

مدخل إلى علم النفس الاجتماعي

أ.د. محمد إبراهيم عيد
رئيس قسم الصحة النفسية
كلية التربية - جامعة عين شمس

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

أسم الكتاب: مدخل الي علم النفس الاجتماعي
أسم المؤلف: د/ محمد ابراهيم عيد
اسم الناشر: مكتبة الانجلو المصرية
أسم الطابع: مطبعة محمد عبد الكريم حسان
رقم الايداع: 5747 لسنة 2005
الترقيم الدولي: I-S-B-N 977-05-2127-2

مقدمة الطبعة الثانية

فى هذه الطبعة أضيف إلى الكتاب بحثان أساسيان، لهما اتصال وثيق بما نعيشه من صراع هويات ثقافية وإرهاب ومحاولات مخلصنة لترسيخ التسامح الثقافى فى مواجهة التعصب والدوجماطيقية .

يدور البحث الأول : حول الهوية الثقافية المصرية ، باعتبارها هوية ثقافية تنفرد بخصائص لصيقة بها تميزها عن غيرها من الثقافات، وهذه الخصائص راسخة، بيد أنها غير جامدة أو مغلقة ، نسبية غير مطلقة ، وهذا سر قدرتها على التجدد والاستمرارية.

ويدور البحث الثانى : حول التسامح الثقافى ، الذى يعنى أن تعدد الآراء أمر مشروع ، وأن التباين فى الفكر يضافى على الأشياء والأفكار معنى وثراءً ، وأن حق التباين جوهرى فى حياة الناس ، ففى التباين إقرار بتفرد الإنسان واختلافه وتميزه .

مقدمة

هذه مجموعة من المحاضرات ، تتضمن بعض الظواهر النفس الاجتماعية ، فى علم النفس الاجتماعى ، الذى بزغ كعلم مستقل ، استجابة لأزمة الإنسان المعاصر ، ولهذا حرصنا أن تكون هذه المحاضرات معبرة - إلى حد كبير - عن مظاهر هذه الأزمة ، التى يتطلب فهمها ، فهم ديناميات العمليات النفسية والاجتماعية العاملة داخل الفرد وداخل المجتمع .

فى الفصل الأول : ناقشنا القصد من علم النفس الاجتماعى ، ونشأته ومجالاته ، وما يرتبط به من علوم أخرى ، وما ينطوى عليه من أهمية فى عصر تلاشت فيه المسافات بين الأمم ، وعاش معاناة حربيين عالميتين كبيرتين ومن بعدهما حروب شتى فى أنحاء كثيرة من العالم ، وتسلمت على مقاديره مذاهب فلسفية وفكرية اتسمت بالكلية والشمول ، وايدولوجيات عقائدية اتسمت بالتسلط وجمود الفكر وثنائية التفكير القطعى ، ورغم كل ذلك تميز هذا العصر بتفجر معرفى متواصل استلزمته ضرورات الحرب وضرورات السلام

وفى الثمانينيات اجتاحت رياح التغيير الاتحاد السوفيتى ، وتحطم حائط برلين ، واندلعت الثورة فى وسط وشرق أوروبا مطالبة بالحرية والديمقراطية والاقتصاد الحر .. وبدا واضحاً أن مشاكل عالمية غير تقليدية تحتاج إلى حلول غير تقليدية ، وأن مفاهيم جديدة بزغت تعبر عن طبيعة هذا العصر ، تمثلت فى العولمة والكونية والاعتماد المتبادل .

ويحتوى هذا الفصل على مقدمة فى مناهج البحث ، الغرض منها تأكيد أن التطور العلمى المعاصر ، جاء نتيجة لتراكم جهد إنسانى غير تاريخ الإنسان ، وبلغ ذروته فى عصر التنوير ، الذى يعتبر عصرنا ثمرة لجهود مفكره وعلمائه .

ثم عرضنا لأهم النظريات التى يسترشد بها علم النفس الاجتماعى فى فهم وتفسير وتأويل الظواهر الاجتماعية المختلفة ، وتمثل هذه النظريات فى التحليل النفسى ونظريات التعلم والنظرية الجينية والمعرفية

ويذور الفصل الثانى : حول الجماعة ودينامياتها ، وما ينطوى عليه البحث فى الجماعة من مراحل ، وأنواع الجماعات ، وأهم العوامل التى تؤدى إلى تماسك الجماعة

وتلك التي تؤدي إلى انهيارها ، والقصد من الروح المعنوية وجاذبية الجماعة لأفرادها.

الفصل الثالث : يناقش الاتجاهات ، وخصائصها وكيفية تكوينها ، وما تنطوي عليه من وظائف ، وكيفية قياسها ، وطرق تغييرها ولا سيما تلك التي تتصف بالتعصب وجمود الفكر وضيق الأفق ، كالاتجاهات الدوجماطيقية والتسلطية.

الفصل الرابع : ويدور حول التنشئة الاجتماعية ، ومعنى الثقافة وعلاقة الوراثة والبيئة بالتنشئة الاجتماعية ، ودور التعلم في هذه العملية ، وما تنطوي عليه من وسائل.

الفصل الخامس : ويدور حول ظاهرة القيادة ونظرياتها والسمات المميزة للقيادة وأنواعها .

الفصل السادس : ويتناول السلوك الاجتماعي بين الوراثة والبيئة ، والقيم كمعايير لما ينبغي أن يكون عليه السلوك ، وأخيراً الإشاعة ، من حيث معناها ، والفرق بين الإشاعة والأسطورة ، والإشاعة عبر التاريخ وأنواعها المتباينة ، وقدرتها على تقويض الأمن القومي إذا ما سادت وانتشرت بغير أدلة صدق أو يقين .

الفصل السابع : ويدور حول اغتراب الشباب ، والقصد من الاغتراب في استخداماته المتعددة . وما يمكن أن يكن عليه الاغتراب في سلوك الشباب ، وكيفية قياسه كظاهرة إنسانية ، إضافة إلى قياس ظاهرة الأنوميا وانهيار البناء الاجتماعي ، حيث غيبة المعايير.

وفي هذا الفصل أيضاً ناقشنا أزمة التطرف وجذوره وأبعاده النفسية والاجتماعية والتاريخية وكيف يمكن تجاوزه .

ذلك هو الكتاب ، وتلك هي فصوله .

والله من وراء القصد

إبراهيم عيد

الفصل الأول

- * تعريف علم النفس الاجتماعي .
- * النظريات التي يسترشد بها علم النفس الاجتماعي .
- * علم النفس الاجتماعي والعلوم الأخرى .
- * نشأة علم النفس الاجتماعي .
- * أهمية دراسة علم النفس الاجتماعي .
- * مقدمة في مناهج البحث .
- * مناهج البحث في علم النفس الاجتماعي .

علم النفس الاجتماعي
تعريفه ونشأته ومجالاته

الفصل الأول

علم النفس الاجتماعي

تعريفه ونشأته ومجالاته

ثمة إجماع بين علماء النفس الاجتماعي على أنه العلم الذي يبحث في السلوك الاجتماعي للفرد ، وفي مكونات هذا السلوك وتوجهاته ، وفي مظاهره من حيث علاقة الفرد بنفسه ، وعلاقته بالآخرين ، وبالمجتمع الذي يعيش فيه ، وفي استجاباته المتعددة للمؤثرات التي تحدثها علاقاته بالآخرين ، وطريقة تفاعله معهم على أرضية من واقع اجتماعي له خصائصه التي تميزه ، وقيمه التي يعتز بها ، ومبادئه التي يعيش في كنفها ، وثقافته التي تتمايز عن غيرها من الثقافات .

ولهذا ينصب اهتمام علم النفس الاجتماعي على دراسة الفرد في موقف الجماعة ، ودراسة سلوكه وما ينطوي عليه من ديناميات وأفكار في عصر تلاشت فيه المسافات بين الأمم ، وأصبحت تهيمن عليه مفاهيم الكوكبية والكونية والاعتماد المتبادل بين الأمم ، ويموج بتيارات عنف وإرهاب وأفكار مغلقة تبلغ حد (الدوجما) فيما تنشده من غايات وأهداف ، وجاوز فيه التطور المسافات الزمنية بفضل العلم والتكنولوجيا والتفجر العلمي المتواصل ، الذي أتاح للإنسان أن يخرج من الأرض بجاذبيتها إلى كواكب السماء ، وأن يقطع أشواطاً هائلة الإنجاز في مجالات الزراعة والصناعة وما بعد الصناعة والهندسة الوراثية والحاسب الآلي والإنترنت .. إلخ .

وهذا التطور يعتمد على الفرد من حيث هو إنسان ، ومن حيث هو فرد ضمن جماعة ، والجماعة من حيث هي وحدة ضمن مجتمع ، والمجتمع ضمن أمة ، والأمة ضمن عالم له طابعه الذي يميزه عن كافة العصور السالفة :

ولهذا يهتم علم النفس الاجتماعي بالدراسة العلمية للعملية الاجتماعية ، وما يكمن وراءها من محددات شخصية وراثية ، ومكونات نفسية واجتماعية ، فالإنسان بطبيعته كائن اجتماعي ، يستحيل عليه العيش بغير جماعة ، ودون مؤثرات تتفاعل مع مكوناته الداخلية ومحدداته الوراثية .

يقول البورت في مفتتح كتابه « الخلفية التاريخية لعلم النفس الاجتماعي

الحديث ، ١٩٦٨ The Historical Background of Modern Social Psychology

إن موضوع علم النفس الاجتماعي يكمن في محاولة فهم وتفسير كيف أن أفكار ومشاعر وسلوك الأفراد تتأثر بالوجود الفعلي أو التصوري للآخرين (ص ٢) .

فالمجتمع كائن ومتأصل في صلب تكوين الإنسان ، ومؤثر في كافة الأنشطة الحياتية له ، حتى حينما يكون الفرد وحيداً مع نفسه ، فإن الطريقة التي بها يفكر ويتصرف تتأثر بوجود الآخر ، سواء كان هذا الوجود قائماً بالفعل أو متصوراً وقائماً في عالم من الخيال .

وبعبارة أخرى .. فإن موضوع علم النفس الاجتماعي يكمن في تلك العلاقة الأبدية بين الأنا والآخر .

وهذه العلاقة اتسع مجالها بعد ثورة المعلومات Informatics ... وثورة الاتصالات والمواصلات ، وانفتاح العالم على بعضه بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي لدرجة أصبحت فيها العلاقات بين الناس ذات طابع كوكبي ، فأنت تتأثر بما يحدث في الطرف الشمالي من الأرض ، وأبناء الطرف الشمالي يتأثرون بما يحدث لأبناء الجنوب .

ولعل من بين أهم الاهتمامات التي يركز عليها المشتغلون بعلم النفس الاجتماعي العلاقات البين شخصية ، والتفاعلات القائمة بين الأفراد Interactions والتواصل اللفظي وغير اللفظي القائم بين الأنا والآخر Verbal and nonverbal communication .

ويؤكد (1988, Schaneder) على المنحنى نفسه الذي قدمه البورت ، وهو أن علم النفس الاجتماعي يمكن تعريفه بوصفه دراسة كيف يفكر ويقيم ويستجيب الناس لخبراتهم الاجتماعية .. (ص ٤)

فالمجتمع قائم في الفرد وهو الذي يتيح له أن يفكر وأن يقيم وأن يستجيب على نحو اجتماعي مستفيداً من خبراته الاجتماعية ومن مكوناته النفسية والعضوية أيضاً .

وعلم النفس الاجتماعي علم ؛ لأنه يبحث عن المصادر المعرفية التي تتيح له القدرة على الفهم والتحكم والتنبؤ بالسلوك الاجتماعي ، مسترشداً في ذلك بعدد من النظريات التي تتمثل في : النظريات الجينية Gentic Theories ونظريات التعلم Learning والنظريات المعرفية Cognitive والنظريات التحليلية Psychoanalytic ونظريات الدور Role .

وهذه النظريات تمد علم النفس الاجتماعي بزوايا متعددة الرؤى، تمكنه من فهم السلوك الاجتماعي، بيد أن كل نظرية من هذه النظريات لا تكفى بمفردها لفهم طبيعة الإنسان الاجتماعية، وما ينطوى عليه من تفاعلات واتجاهات وتنشئة.. إلخ، غير أن هذه النظريات مجتمعة قد تساعد كما يقول فيلدمان (١٩٨٨) على فهم الإنسان في سياق مما هو نفسى واجتماعى.

أولاً : النظريات الجينية Genetic Theories :

تنطلق هذه النظريات من مقولة إن الإنسان حيوان اجتماعى، مفترضة أن السلوك الاجتماعى للإنسان يستمد جذوره ومقوماته من محددات بيولوجية محض، وأن مكونات السلوك الاجتماعى ترتبط بأسباب جينية غير متعلمة - Un-learned، فها هو كونراد لورينز Lornetz وهو من أهم علماء Elthology*، يفترض أن السلوك العدوانى مظهر غريزى ينبثق من حاجات الحيوان للكفاح من أجل حفظ الذات، وأراد لورينز، ومن بعده ولسون (١٩٧٨) الذى افترض أن السلوك الاجتماعى يستمد مقوماته من محددات بيولوجية، تستند إلى ما كتبه مكدوجال McDougal (١٩٠٨)، الذى كان يعتقد أن خصائص السلوك النوعى للإنسان يمكن ترجمتها فى مصطلحات غرائزية، وسلوك نمائى الاتجاه غير متعلم.

وتتلخص رؤية مكدوجال فى أن للعقل الإنسانى ميولاً فطرية هى الأسس الضرورية والقوى الدافئة لكل تفكير أو سلوك، سواء أكان فردياً أم جماعياً - وهذه الميول الفطرية أو الغرائز هى الأساس الذى ينشأ عنه تدريجياً سلوك الفرد وإرادته وطابع الأمة وعزيمتها.

وهذه الغرائز تختلف فى قوتها باختلاف الأجناس، كما تختلف درجة قبولها أو رفضها باختلاف الظروف الاجتماعية فى مختلف الثقافات، وهى شائعة بين الناس فى مختلف العصور والثقافات.

وفى رأيه أن الغريزة فى صورتها الخالصة تكون نتاجاً لعملية عقلية مميزة، عملية لا يمكن أن توصف بأنها آلية فحسب، لأنها عملية نفسية وجسمية، تشمل على تغيرات جسمية ونفسية معاً، وأن شأنها شأن سائر العمليات النفسية تتضمن ثلاثة جوانب : الجانب الإدراكى، والجانب الوجدانى، والجانب النزوعى.

* إيتولوجيا : علم الأخلاق، وهو علم يقوم على دراسة القيم والعادات والتقاليد والأعراف المتبعة بين الجماعات الوطنية والعنصرية، والشعوب المختلفة على نحو بيوسيكولوجى فى كثير من الأحيان.

ويذكر مكدوجال من هذه الغرائز الأساسية ، سبع غرائز تشترك جميعاً فى أن إثارتها تؤدي إلى أكثر الانفعالات الأولية تحديداً ، ومن هذه الانفعالات السبعة المحددة ، مضافاً إليها شعور اللذة والألم تتكون معظم الحالات الوجدانية .

وهذه الغرائز السبع التى يذكرها مكدوجال ويميزها بانفعالاتها على النحو التالى:

- ١ - غريزة الهرب وانفعالها الخوف Filght ... Fear
- ٢ - غريزة المقاتلة وانفعالها الغضب Pugnacity .. Anger
- ٣ - غريزة الاستطلاع وانفعالها التعجب Curiosity .. Wonder
- ٤ - غريزة إذلال الذات وانفعالها الخضوع Self - abasement .. Subjection
- ٥ - غريزة تأكيد الذات وانفعالها المشاعر الموجبة والسالبة نحو الذات Self - assertion .. Negative and positive feelings about self

- ٦ - غريزة الأبوة وانفعالها الرقة Parental .. tenderness
 - ٧ - غريزة النفور وانفعالها التقزز Repuision .. Disgust
- ثم أضاف إلى هذه الغرائز السبع ، غرائز إنسانية أخرى لها دوافع مهمة فى الحياة الاجتماعية مثل :

- | | |
|-----------------|---------------|
| Reproduction. | غريزة التوالد |
| Gregariousness. | غريزة التجمع |
| Construction. | غريزة الإنشاء |
| Acquisition. | غريزة التملك |

وعلى الرغم مما وجه من نقد محتدم لا يتوقف ، لنظرية الغرائز ، باعتبارها نظرية آلية ، قامت على تصورات افتراضية أطلقت عليها اسم الغرائز ، فإن هذه النظرية قد نجحت فى اعطاء بعض التفسيرات للسلوك الإنسانى ، وإن كانت تتشابه مع نظرية الملكات العقلية ، التى لم يعد لها وجود إلا فى التراث التاريخى لعلم النفس ، الذى أسفر عن نظريات أخرى فى تفسير الطبيعة الدينامية للوجود الإنسانى .

٢ - نظريات التعلم Learning Theories :

على الضد من مفاهيم النظريات الجينية للسلوك الاجتماعى وتفسيراته قدمت

نظريات التعلم رؤى جديدة لتفسير السلوك الاجتماعي ، لا يرده إلى محددات بيولوجية ، يكون لها السيادة والتحكم في السلوك الإنساني ، ولكن برده إلى عملية التعلم وما تنطوي عليه من تركيز على دور المواقف والبيئة في تحديد السلوك ، من خلال المدرسة السلوكية .

تمثل السلوكية تياراً علمياً في علم النفس ، وتقوم معطيات هذه المدرسة على إنكار ما يسمى باللاشعور أو اللاوعي ، مؤكدة دور الحتمية البيئية ؛ فالإنسان نبت للبيئة التي يعيش فيها وسلوكه وخبراته وعاداته يتم اكتسابها عن طريق التعلم .

والتعلم جوهرى للوجود الإنساني وأساس للتربية ، ومنطلق لا غنى عنه لدراسة علم النفس ، وضرورة لفهم حقيقة العقل البشري .

وقد حظى موضوع التعلم باهتمام المفكرين والعلماء والفلاسفة أمثال أرسطو والقدیس أوغسطين وجون لوك ، وكانوا جميعاً يعتبرون التعلم قضية رئيسية ، كما بلغ الاهتمام بقضايا التعلم وقضاياها ونوعية السلوك وكيفية الاستجابة وطرائق العلاج السلوكي ذروته في أوائل القرن العشرين ومازال حتى يومنا هذا .

وهنا يثور سؤال

وما التعلم ؟

ويمكن تعريف التعلم تعريفاً بسيطاً بأنه تعديل السلوك من خلال الخبرة ، وتعديل السلوك في صميمه مفهوم عام يشير إلى مجموعة الفنيات التي انبستت من قوانين ومبادئ التعلم ، تلك التي تصف العلاقات الوظيفية بين المتغيرات البيئية والسلوك . فكل سلوك ، هو سلوك متعلم ، سواء أكان سوياً أم غير سوى ، ومن ثم يمكن تعديله .

وينطوى تعديل السلوك على فنيات علاجية متعددة : يتضمن بعضها في التحصين التدريجي Systematic desensitization ، التشريط الإجرائي ، الاسترخاء ، الانطفاء ، التشريط بالأنموذج Modeling ، التشريط بالنقيض Counter conditioning والتشريط التفيري Aversion والتوكيدية .

وهذه العلاجات ، وما تنطوي عليه من فنيات ، ما هي إلا تنويعات Varities على هدف واحد ، هو تعديل السلوك ، هنا والآن وعلى النحو المرغوب فيه ليكون متوافقاً مع المطالب النوعية لبيئة الفرد (إبراهيم عيد ١٩٩٨) .

وثمة عدد من التعريف أوردها جورج جازدا (١٩٨٣) وآخرون عن التعلم ، لعل من أهمها تعريف ثورندايك ، الذي يعرف التعلم بقوله : إنه سلسلة من التغيرات

فى السلوك الإنسانى . وهنا لابد من التمييز بين التعلم وبين التقدم أو استمرار التحسن المفيد ، ذلك أن التعلم قد يكون تقدماً أو تراجعاً ، شأنه فى ذلك شأن كثير من العمليات الأخرى ، وكذلك ليس كل تغير يمكن أن يسمى تعلماً ، لأن التغير الذى يحدث فى نشاط الإنسان بفعل عوامل النضج أو الاستجابات الفطرية لا ينبغى أن ينظر إليه على أنه تعلم ، فوقوف الطفل على قدميه ، ومص ثدى أمه وانقباض عينيه وسعاله ليس تعلماً بل أفعالاً شرطية تساعده على الحياة .

ولقد وصف أندرسون وجيتس Anderson & Gates التعلم بأنه عملية تكيف الاستجابات لتناسب المواقف المختلفة ، أما جانيه Gagne فقد دعا إلى التمييز بين العوامل التى تتحكم فيها الوراثة إلى حد بعيد كالنمو ، والعوامل التى تعد فى الأساس نتائج البيئة ، وهى التعلم .

ويمكن تقسيم تاريخ البحث فى التعلم إلى ثلاث مراحل :

أولاً : مرحلة ما قبل السلوكية Prebehaviorism :

ويمثل هذه المرحلة «جون لوك» الذى نظر إلى الإنسان على أنه يولد وعقله صفحة بيضاء (Tabla rasa) . وأنه لا يوجد فى العقل ما لم يكن من قبل فى الحس ، ومن ثم تصبح منافذ المعرفة هى الحواس ، وأن كل ما نتعلمه ، إنما نكتسبه ، ولا يوجد ما يسمى بأفكار قبلية كامنة ومتأصلة فى العقل ومفطور عليها ، وعارض «لوك» كثيراً من الفلاسفة .. لعل من أهمهم «كانط» الذى أكد وجود مقولات عقلية فى العقل يتعلمها الإنسان ، وينظم من خلالها ما يصله من معارف ومعلومات .

ويمثل «فونت» مرحلة لاحقة من مراحل ما قبل السلوكية ، ويعتبر أول من أنشأ معملاً لعلم النفس ، وينسب إليه الفضل فى ظهور المدرسة البنائية Structuralism ، وهى المدرسة التى تؤكد عملية الاستبطان الذاتى Introspection .

وكان لأعمال «فونت» أيضاً تأثيرها على المدرسة الوظيفية Functionalism .

ثم تلا ذلك أعمال «هيرمان ابينجهاوس» Ebbinghaus فى مجال الذاكرة . وتكرار قوائم الكلمات التى لعبت دوراً كبيراً فى تجارب «ثورندايك» .

ثانياً المرحلة السلوكية Behaviorism :

ورائدها الأول واطسون ، الذى ركز على الحتمية البيئية فى تشكيل السلوك ، وحول الإنسان إلى آلية سلوكية يتحكم فيها المثير والاستجابة ، ولعل من أهم العلماء الذى تأثر بهم «بافلوف» الذى تأثر بدارون . وقد أثرت السلوكية بما تنطوى عليه من

مبادئ وقوانين للتعليم صاغها واطسون وبافلوف وثورندايك - فى أعمال هل وجثرى وتولمان وغيرهم .

ثالثاً المرحلة المعاصرة Contemporary :

وفى هذه المرحلة انصب تفكير العلماء على زيادة الاهتمام بالدافعية والاقتران والتعزيز ، وعلى الفنيات العلاجية التى تواجه الاستجابات اللاتوافقية المتمثلة فى كثير من الاضطرابات السلوكية كالهروب من المدرسة ، والعدوانية ، والسرقه ، والتزيف ، وتعاطى الكحوليات والمخدرات ، والجرائم الجنسية والقوادة ، وقد تلحق بها العادات السيئة عند الأطفال كقضم الأظافر ، والتبول اللاإرادى ، والاستمنا ، ومص الأصابع ، ونوبات الغضب التى ليس لها مبرر والسلوكيات المضادة للمجتمع .

وتتنوع وسائل العلاج السلوكى ، وتتنوع طرائقه بتنوع الاستجابات اللاتوافقية إزاء الذات والمجتمع كالجنسية المثلية والفتشية ، وحالات التجوال الليلى ، والهستيريا والمخاوف المرضية ، والبرود الجنسى لدى النساء ، وما إلى ذلك .

وهكذا تستخدم نظريات التعلم فى تفسير وعلاج الظواهر الاجتماعية التى يتمثل بعضها ، إضافة إلى ما سبق فى العدوان والعلاقات بين الشخصية ، والجاذبية الاجتماعية ، والتواصل اللفظى والتعصب وتكوين الاتجاهات ، والبحث فى المكونات السلوكية للظواهر الجماهيرية .. وما إلى ذلك .

٣ - نظريات المعرفة : Cognitive Theories :

وعلى الضد من نظريات التعلم ، ركزت النظريات المعرفية على عمليات التفكير والإدراك وكيفية بلوغ الناس إلى الفهم والحضور الفعال فى العالم .

وقد انبثقت الكثرة من النظريات المعرفية عن جماعة علماء النفس الجشططيين ، وعلى الرغم من أن الجشططيين قد وضعوا جل اهتمامهم بمجالات الإدراك ، إلا أن أفكارهم كان لها تأثير مهم على علم النفس الاجتماعى ، للأسباب التالية :

(١) إن علماء النفس الجشططيين قد طوروا التقنيات Techniques التى من شأنها أن تجعل التجريب على الظواهر الاجتماعية أمراً قابلاً للتحسين والتعديل معملياً .

(٢) والسبب الثانى يكمن فى اتخاذ الجشططيين من التجربة البسيطة naive ، طريقاً من خلاله يفهم ويعى الفرد الموقف الاجتماعى وعياً حسيّاً ، بينما أصحاب نظريات التعلم يرون أن قياس الموقف الموضوعى المستقل ، عن

وعى الفرد هو الوسيلة الصادقة في البحث في الظواهر الاجتماعية ، ولهذا يفترض الجشططيون أن النهج الفنونولوجي - Phenomenological approach الذى يبحث فى ، كيف يعى الفرد ويدرك ذاتياً من خلال خبرة العالم ، كما يقول كافكا .

والفكرة المحورية لدى الجشططيين تكمن فى أن الظاهرة النفسية ظاهرة فى المجال ، وأن المجال منظومة من العوالم المتداخلة ، التى تتضمن الإدراك والخبرة النفسية ، وأن العناصر الفردية للمجال ، لا يمكن أن تفهم دون معرفة للمجال ككل .

وهنا نسأل ما القصد من نظرية الجشطط التى أسهمت إسهاماً كبيراً ، فى نظريات المعرفة وقدمت تفسيرات دينامية للسلوك الإنسانى . ولكيفية تكون الانطباعات الشخصية القائمة على دينامية العلاقة بين الأنا والآخر ، وذلك أن الآخر لا نراه فى موضوعيته الخالصة من حيث هو آخر ، بل نراه من حيث علاقته بنا .

ولهذا يحاول علم النفس الاجتماعي أن يفهم السلوك الاجتماعى ، أى أن يفهم نوعية تلك التفاعلات القائمة بين الأنا والآخر ، لأن محاولة فهم السلوك الاجتماعى كما هو دون الكشف عن ديناميته ، تسطيح فكرى لا معنى له .

يبقى السؤال ما نظرية الجشطط :

يقول « بول جيوم » فى مفتاح كتابه : « علم نفس الجشطط » .

نظرية الجشطط هى فى الوقت نفسه ، نظرية فلسفية ، و تيار فى علم النفس ، فهى من ناحية تدخل مفهومي الصيغة والبنية فى تفسير العالم الفزيائى ، كما تدخلها فى تفسير العالم البيولوجى والعالم العقلى .. إنها تقيم صلات القربى ما بين الوقائع التى تعتبرها التصورات التقليدية منعزلة عن بعضها البعض ، وتقيم على هذه الصلات فلسفة وحدانية للطبيعة .. هى من ناحية أخرى تطبق هذه المفاهيم نفسها ، فى الميدان الخاص بعلم النفس على مشكلات محدودة وعيانية ، فهى تريد تخليص هذا العالم من ريقة أطر تقليدية معينة ، كانت تحد من انطلاقه ، وتبعد به عن الواقع وعن الحياة ، ولكنها تظل علمية الوجهة ، فمؤسسو هذه النظرية هم قبل كل شيء تجريبيون ، ممن ألفوا الالتجاء إلى ملاحظات محددة ودقيقة ؛ لتبيين صحة فروضهم المتسمة بالجسارة ..

جاءت نظرية الجشطط كرد فعل إزاء ما كان سائداً من فلسفات فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكانت السيادة فى ذلك للنظرية الترابطية بنزعتها

« الذراتية »، فى نظرتها إلى الكل ، وبتفسيراتها «الميكانيكية» ، لذلك الانتظام الذى تكشف عنه الظواهر النفسية .

وبلغت النزعة الترابطية أقصى ازدهارها على يد «فونت» Wundt ، الذى تأثر بمفاهيم نيوتن عن الكون وحاول تطبيق هذه المفاهيم على المجال الفكرى ، فعلم النفس هو علم الحياة ، أو العلم المكمل للعلوم الطبيعية الأخرى مثل الفيزياء والكيمياء وهما العلمان اللذان كان يحلان الأجسام إلى جزئيات وذرات ، والفسولوجيا كانت تعزل أعضاء وتفككها إلى أنسجة وخلايا ، ومن هنا كان على علم النفس هو الآخر أن يعزل عناصر ، وأن يكشف قوانين لائتلافاتها .. فالنفس يمكن تقسيمها عن طريق الاستبطان الدقيق إلى عناصرها الجزئية ، والقوانين التى يمكن بمقتضاها ربط هذه العناصر بعضها ببعض من أجل تشكيل الكل العقلى ، والوصول إلى فهم لهذا الكل العقلى يتطلب ضرورة فهم عناصره الجزئية ، وكيف تتشابه هذه الذرات النفسية بعضها ببعض .

ويعتبر «ماكس فرتيمر» Wertheimer (١٨٨٠ - ١٩٤٣) مؤسس النظرية الجشططية ، وقد انضم إليه فى وقت مبكر «كوهرل» Kohler (١٨٨٧ - ١٩٦٧) وكيرت كوفكا koffka (١٨٨٦ - ١٩٤١) ، ثم ارتبط بهؤلاء الثلاثة «كبرت ليفين» (١٨٩١ - ١٩٤٧) ، بيد أنه استطاع أن يؤسس نظرية جديدة هى نظرية المجال .

ويشور سؤال : ماذا يقصد بكلمة جشططت Gestalt ؟

يجيب مايكل فرتيميز « إن الكلمة تعنى الصيغة أو الشكل أو النموذج أو الهيئة أو النمط أو البنية أو الكل المنظم ، والجشططت كل مترابط ديناميا فيما بينها وما بين الكل ذاته ، أو قل هو كل متكامل كل جزء فيه له مكانه ودوره ووظيفته أكثر من حزمة من الأجزاء ، أو سلسلة من القطع أو الأجزاء التى قد تكون مشتركة أو ملتصقة بعضها ببعض بطريقة عشوائية ، وعلى نحو يوضح الطبيعة الدينامية للكل الجشططتى .

وعلى أية حال .. فإن القضية المحورية فى النظرية الجشططية تكمن فى الاهتمام بالتناقض بين ما يسمى بالأكلال التى تساوى تماماً المجموع الكلى للأجزاء المكونة لها أو تتجاوزه .

النوع الأول من الأكلال يشبه كومة من الطوب أو حفنة من حبات الأرز أو مبلغاً من المال .. أما النوع الثانى فالكل فيه مختلف كل الاختلاف عن مجموع الأجزاء المكونة لهذا الكل : كالمجال الكهربائى ، وفقاعة الصابون ، والمجال المغناطيسى ، والشخصية .

وبعبارة أخرى .. فإن الجشطت وحدة كلية عضوية فى مقابل الكل الإضافى من حيث هو أجزاء غير حقيقية لا تقوم بأدوار معينة ضمن الوحدة الكلية ، بل يقتصر على كونها مجرد أجزاء .

ومن هنا فإن كل الظواهر الحية نفسية أو اجتماعية أو فسيولوجية هي جشطتات، وبعضها الآخر مجرد أكوام تتلاصق فيها الأجزاء غير الحقيقية أى مجرد أكالال إضافية. وذلك شأن الآلات الميكانيكية ، التى يرجع انتظامها إلى ترتيبات خارجية سابقة .

ومن هنا يقوم الكل الإضافى على الذراتية (بمعنى أن الكل مجرد تجميع وحاصل جمع لأجزائه ؛ أى ذراته) وعلى الميكانيكية بمعنى أن الانتظام لا يشكل بعداً صحيحاً من بعد الظاهرة بل يضاف إليها من خارجها ، وعلى النقيض من ذلك يكون الكل العضوى أى الجشطت على نقيض الذراتية ، أى يقوم على الدينامية بمعنى أن الكل صميمة انتظام ينبع كمحصلة من صراع كل القوى المتمثلة للأجزاء بما فى ذلك قوى المجال ، وعلى نقيض الميكانيكية أى على الوظيفة ؛ بمعنى أن الكل صميمة انتظام يستهدف وظيفة أو جملة من الوظائف مما يعنى الهدف والمعنى والدلالة .

والنظرية الجشطتية خلصت إلى نتائجها الرائعة عن طريق التجريب ، وكان اهتمامها الأول منصباً على سيكولوجية التفكير والمعرفة ، ثم سرعان ما امتد مجال أبحاثها إلى مجالات متعددة ، مثل : المشاكل الشخصية وعلم النفس الاجتماعى والإدراك .. فقد ترتب على نشر كوفكا لمقالته : الإدراك مقدمة للنظرية الجشطتية Perception : An Introduction to the Gestalt Theories سوء فهم للنظرية الجشطتية ، فقد اعتبرت وكأنها نظرية للإدراك فى حين أن مجال انتشارها يمتد ليتسع كل ما هو فسيولوجى وعقلى ونفسى واجتماعى ومعرفى وإدراكى .

وبناء على ذلك .. فإن القضية المحورية فى الجشطت تكمن فى كيفية تنمية فهم الكائن الحى للبيئة حتى يتحقق له التكيف مع البيئة بشكل فعال ، ولهذا يحتل الاستبصار موقعاً كبيراً وجوهرياً لدى الجشطتيين فالتعلم يكون بالاستبصار والفهم لا بالارتباط والتشريط ، سواء أكان كلاسيكياً أم وسيلياً أم الأثنين معاً .

ويلخص فرتمير المفاهيم الأساسية للجشطت فى :

البنية (أو التركيب Structure) : لكل جشطت بنية متأصلة فيه وتميزه عن غيره . والحقيقة أن مهمة النظرية الجشطتية تتمثل فى وصف البنى الطبيعية بطريقة لا تشوه أصولها أو كونها ، ومعظم أنواع الجشطت لها قوانينها الداخلية التى تحكمها .

الاستبصار (Insight) : إن تحقيق الانطباع الصادق عن حالة إشكال ما حقيقى من وجهة نظر الجشطلت فى التعلم ، ويتمثل ذلك فى اكتساب الاستبصار فى البنية التى يكون عليها موقف مشكل ، وفهم ترابط أجزائه وطريقة عرضه وكيفية التوصل إلى الحلول المناسبة له ، ولن يكون التعلم فى صورته النمطية قد تم ؛ إذ لم يتحقق مثل هذا الاستبصار.

الفهم (Understanding) : إن الاستبصار هو تحقيق الفهم الكامل للأشياء . ويكون التعلم قد تم حصوله إذا كان استبصاراً (فهماً) ، والفهم هو الهدف من التعلم.

التنظيم (Organization) : تنظيم بنية الجشطلت ، أى جشطلت ، بطريقة خاصة مميزة وفهم تلك البنية يعنى تفهم طريقة تنظيمه . وقد كان تكوين مبادئ التنظيم الجشطلتية للإدراك إسهاماً رئيسياً لهذه المدرسة ، وقد انتقلت هذه المبادئ مباشرة إلى سيكولوجية التعلم . ولما كانت معرفة الجشطلت أو استبصاره تعنى أن يكون العارف له مطلعاً على بنيته وعالماً بكيفية تنظيمه .. فإن مبادئ تنظيم الجشطلت تصبح من الأمور الأساسية لسيكولوجية التعليم تماماً كما هى لسيكولوجية الإدراك.

إعادة التنظيم (Reorganization) : إذا استطاعت الكائنات الحية إدراك وفهم كل موقف جديد بصورة مباشرة وصحيحة ودون أية مصاعب .. فمعنى هذا أنه لا توجد حاجة للتعلم . ولكن الكثير من المشكلات تتم بصورة يصعب عمل أى شىء إزاءها أو حلها إذا ما واجهناها لأول مرة ، بل وقد تبدو المشكلة لأول وهلة غير قابلة للفهم ولا معنى لها أو أنها غامضة . ولا يصبح الحل ممكناً إلا إذا أمكن تعرف الملامح الرئيسية للمشكلة بوضوح ، وظهرت بعض الدلائل التى تجعل من الحل أمراً ممكناً.. وهكذا فإن التعلم غالباً ما ينطوى على تغيير إدراكنا الأول للموقف المشكل ، وإعادة تنظيم ذلك الإدراك حتى نحقق النجاح ، وبذلك نجد الطريق للتعامل مع الموقف.

٤ - النظرية التحليلية : Psychoanalytical

يعتبر فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) مؤسس ورائد التحليل النفسى ، الذى يعتبر منهجاً فى البحث ونظرية فى العلاج . فقد قدم التحليل النفسى لعلم النفس الاجتماعى تفسيرات للشخصية فى محيطها الاجتماعى ، موضحاً أن ما نكابده من صراعات وتوترات ، إنما تمتد جذوره إلى الشخصية ، وأن السلوك الراشد ما هو إلا انعكاس لخبرات طفولية.

وقدم تفسيرات متعددة لمعنى التعصب والعُدوان فى الفكر والسلوك والمواقف ، استفاد منها أدورنو Adorno عندما قدم بحثه عن الشَّخصية التسلطية .

وفيما يلي نبذة عن رائد التحليل النفسى وأهم إسهاماته فى علم النفس عامة وفى علم النفس الاجتماعى بصفة خاصة .

سيرة علمية :

ولد فرويد فى فريبيرج بموارفيا ٦ مايو ١٨٥٦ ، ثم انتقلت الأسرة إلى فيينا ، وهو لا يزال فى الرابعة من عمره ، واستمر فى فيينا حتى بلغ ٨٢ عاماً ، وكان شديد الولع بالفلسفة والتاريخ وأساطير الشعوب وعقائدها .

قرأ دارون وهو طفل ، وترجم إلى الألمانية أحد أجزاء المجلد الضخم الذى حوى كتابات المفكر الاقتصادى الاجتماعى « جون ستيوارت مل » ، واهتم بدراسة الكيمياء والفسولوجيا والتشريع ، واشتغل بضع سنين فى معمل الدكتور فرويد بروك ، ثم التحق بالمدارس النفسية وتتملذ على يد منيرت « أستاذ تشريح المخ » .

وتزوج فى عام ١٨٨٦ من مارتا بير نايز ، وأنجب منها ستة أطفال أصغرهم عالمة النفس الشهيرة « أنا فرويد » .

وفى سنة ١٩٣٨ رحل فرويد من النمسا إلى لندن بعد هيمنة النازية على ألمانيا وضم النمسا إليها وخوفه من الاضطهاد والتعصب ، الذى كان يميز التوجه النازى حيث تمجيد القوة ، وسحق المناهضين لأيدولوجية اليمين الفاشى .

وفى الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٣٩ رحل فرويد عن عالمنا عن ثلاثة وثمانين عاماً .

وقد شاءت الأقدار أن يرقد فى مثواه الأخير بالقرب من رفات نيوتن ودارون . فقد جمع الموت ثلاثة من عباقرة الإنسانية ، نيوتن : الذى اكتشف القوانين التى تحكم سير الكواكب والأفلاك فى الكون اللامتناهى ، ودارون الذى ربط بين الماضى السحيق والحاضر ، مرتباً الأجناس الحية فى سلم تصاعدى متتبّعاً تطور الحياة خلال الأحقاب المتتالية ، وفرويد الذى استطاع ببصيرته العلمية ، ووعيه المتميز أن يكتشف أخرقارات الإنسان ، القارة السابعة فى عالم الإنسان .. أن يكتشف اللاشعور .

وأحدث هؤلاء الثلاثة صدمة أصابت كبرياء الإنسان ، فالأرض مجرد ذرة فى محيط فلكى بغير انتهاء ، والإنسان تربطه بغيره من الحيوانات وشائج صلة وارتقاء ونماء والنفس الإنسانية مغולה بدمدمة الغرائز ، وكل ما هو مستهجن ومعربد ، وعلينا

استثناء القوى التي تعوق العقل الإنساني صوب الحقيقة والحرية.

بدأ فرويد حياته العملية طبيباً للأمراض العصبية ، مستخدماً الجلسات الكهربائية كوسيلة للعلاج ، ثم اكتشف عقم هذه الوسيلة ، فاستخدم مع صديقه بروير Breuer طريقة التنويم المغناطيسي ، وتتلخص طريقتهما في إضعاف القيود التي يفرضها الشعور على الذكريات المكبوتة حتى تنأح لها فرص التعبير عن نفسها ، وكان المريض في أثناء معاناته لخبرات الماضي الصاعدة من اللاشعور يتخلص من الأثر الصدمي المؤلم الذي تحدثه هذه الخبرات ، فتتطهر نفسه وتستعيد إلى حد كبير سيطرتها على نفسها ، ونجحت هذه الطريقة مع بعض المصابين بالأعراض الهستيرية ، غير أن فرويد كان يشعر بأنه لم يصل بعد إلى معرفة جذور المرض ومعرفة القوى الضاغطة التي تتحول إلى هذه الأعراض.

ورأى التنويم المغناطيسي طريقة علاجية ناقصة ، تسلب المريض إرادته ، وأن العلاج يقتضى إشراك المريض في العملية العلاجية ؛ لأن الغرض من العلاج هو تقوية الأنا لا إضعافها.

وانتهى فرويد في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر إلى التحليل النفسي ، حيث استبدل بالتنويم المغناطيسي ما يعرف في التحليل النفسي بالتداعي الطليق Free - association ، وهي طريقة تتلخص في أن يقول المريض كل ما يخطر على ذهنه من معان وأفكار وصور مهما بدت له تافهة أو مستهجنة أو عشوائية السياق ، وهذه الطريقة تتيح للانفعالات المكبوتة أن تنطلق من مكانها في اللاشعور ؛ مما يتيح للمعالج تفسير ما يبدو عشوائياً في تتابعه حيث يرجع إلى الحتمية النفسية ، ثم اكتشف فرويد ظاهرة « الطرح أو التحويل » حيث يسلك المريض ما كان يسلكه تجاه والديه أمام المحلل النفسي ، والمريض بذلك يعيش ماضيه في حاضره . وللطرح الموجب فائدتان ، الأولى : يتيح للمعالج أن يمسك المريض ، والثانية : تعلم المريض نفسه كيفية السيطرة على الانفعالات والمواقف التي عجز في الماضي عن السيطرة عليها ، ولا يصل المعالج إلى ذلك إلا عن طريق ما يسميه بالحيادية.

وتتميز هذه الفترة بالاهتمام المتزايد بالمقاومة والطرح ، وتحديد الأمراض التي يصلح لها التحليل النفسي ، وازدياد أهمية العقدة الأوديبية والاهتمام بسيكولوجية الأنا ، وإنشاق أدلر ، و يونج ، عن أستاذهما فرويد ، فقد اهتم أدلر ، بالعدوان والأنا أكثر من اهتمامه بالجنسية واللاشعور ، بينما اهتم يونج ، باللاشعور الجمعي والتفسير الرمزي لعقدة أوديب . ومن الناحية العلاجية انتقل الاهتمام عند كل منهما إلى الصراع الراهن بدلاً من الصراع الماضي كمحور للتحليل النفسي .

وجاءت المرحلة الثانية عام ١٩٢٠ حيث عدل فرويد في نظريته الغرائز والجهاز النفسي ، فلم يعد التفسير يتمثل في صراع بين الغرائز ، وإنما في دفاع الأنا ضد الحفزات الغريزية والانفعالات المتباينة .

ولم تتوقف اكتشافات فرويد عند التحليل النفسي واللاشعور ، بل تخطت ذلك إلى تقديم تفسيرات جد عميقة لأساطير الأمم والشعوب والمعتقدات والأحلام وتصنيفات الأمراض النفسية ، وما يصاحبها من أعراض بيولوجية .

باختصار .. فإن عظمة فرويد الذي كان يصغى بوعى بصير لأنين المرضى ، ثمان ساعات يوميا ، دون ملل أو ضجر ، تكمن في إخضاعه غير المعقول والمتناقض للتفسير العقلي ، ومن ثم استطاع أن يكشف عن قوة العقل الإنساني وضعفه على السواء ، وجعل من هذه الجملة « الحقيقة » التي ستحررك ، المبدأ الهادي في فن العلاج النفسي .

مراحل التطور النفسي الاجتماعي عند فرويد

يفترض فرويد وجود مناطق شبقية في البدن (لذة شهوية) ، وإن للأطفال حياة جنسية ، أو بمعنى آخر ، أن الطفل الصغير كائن غريزي ملئ بحوافز جنسية عديدة أشكال الانحراف ، أو بعبارة أصح ، ملئ بجنسية إجمالية لم تتمايز بعد في وحدة واحدة تجمع كل الغرائز الجنسية اللاحقة ، (اتوفنخل ، ص ١٥٨) .

ينحصر دليل فرويد على ذلك في أمرين أساسيين :

الأول : راجع إلى الخبرات الجنسية التي اكتشفها وراء الأعراض النفسية لمرضاه بغير استثناء .

الثاني : جاء عن طريق محاولته فهم مظاهر الانحراف ، الذي تبدو فيه عملية الجماع الجنسي السوى بعيدة عن أى نشاط ، يقوم به الفرد المنحرف جنسياً .

ويبرهن فرويد على ذلك بأن الجنسية السوية تتميز بأن موضوع إشباعها هو الجنس الآخر ، وبأن نشاطها يبلغ إلى التحقق في الجماع الجنسي بين جنسين مختلفين (رجل وأمرأة) ، في حين أن الانحرافات الجنسية على الضد من ذلك من حيث الموضوع والنشاط والهدف . فمن حيث الموضوع : نجد أن هناك من يحققون لذتهم الجنسية بالاختلاط بأشخاص من الجنس نفسه أو من الحيوانات أو من أنفسهم كما هو الحال في الاستمناء (العادة السرية) .

أما من حيث الهدف ، فهناك أشخاص لا يصلون إلى الإشباع إلا عن طريق الاتصال بأعضائهم التناسلية ، بل يتخذون من مناطق أخرى وسيلة للإشباع الجنسي ، ويقتصر الأمر عندهم عند الخطوات التمهيدية للجماع الجنسي ، كالنظر أو الملامسة أو ما يعرف باسم (سكوتوفليا) .

ومن تلك الملاحظات تبين لفرويد أن هناك مناطق شبقية فى البدن غير المناطق التناسلية التى تخدم هدف الإشباع ، أو تصل بالإشباع إلى حده الأدنى بالجماع الجنسي ، وأن هناك من الأشخاص من يكتفى بخطوات تمهيدية فقط لبلوغ حد الإشباع ، وأن الموضوع الجنسي يختفى لتحل محله موضوعات أخرى لا تخدم العلاقة الإنسالية على أى نحو من الأنحاء .

ومن جماع هذه الحقائق بدا واضحاً أمام فرويد أن النمو النفسى والاجتماعى ينحصر فى وجود مناطق شبقية (لذة شهوية) فى البدن ، يترتب على تنبهاها إشباكات لبيدية ، وتتغير المنطقة المهيمنة طبقاً للمراحل العمرية ومستوى النمو ، وبالتالي تتغير علاقات الفرد مع نفسه ، ومع العالم المحيط .

ويقسم فرويد مرحلة الطفولة إلى عدد من المراحل النمائية ، التى يعتبرها مراحل نضج للغرائز ، وهذه المراحل هى :

(١) المرحلة الفمية (المصيه) Oral Phase

وتحدد هذه المرحلة بالأشهر الستة الأولى ، وفيها يكون المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الفم ، وأسلوب التعامل هو الإدماج بالمص ، حيث يجد الطفل فى ذلك لذة ، وهى ليست مجرد إشباع لحاجته البيولوجية للطعام ، فامتصاص الطفل لأصبعه إذا حس بالجوع يدل على امتزاج الحاجة إلى الطعام بحاجة أخرى يشبعها بأصبعه ، وهذه الحاجة ، ما هى إلا نواة للذة الشبقية التى تتمثل فى التقبيل فيما بعد . لذلك تعد منطقة الفم شبقية etrotic وعندما يعانى الطفل الإحباط ، فإنه يمنح نفسه إشباع لبيدى فمياً ذاتياً بمصه لأصبعه . أما التثبيت Fixation على المرحلة الفمية فيؤدى إلى مظاهر الانحراف التى تتخذ من الفم بديلاً عن العضو التناسلى ، وتختار الموضوعات التى تحقق ذلك الإشباع .

(٢) المرحلة الفمية السادية (العضية) :

وتحتل النصف الثانى من السنة الأولى ، ويكون فيها المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الفم وأسلوب التعامل هو الإدماج التدميرى بالأسنان لموضوع الحب (ثنائية العاطفة) . وفى هذه الفترة يمكن القول بأن جميع عمليات الطفل الحسية

والحركية « تعض على العالم » ، تنزعه منه لتحفظ بما تنتزع . وهذه السادية تجد ما يدعمها في التوترات الناشئة عن التسنين ، وفي الإحباطات الناشئة عن النظافة ، وفي الصراعات المتصلة بتحقيق الرضاة دون عض . وتعمل مشاعر النعمة على الأم ، وأحاسيس الغضب الكظيم العاجز على دخول المازوشية إلى المرح إلى جانب السادية . وتتميز هذه المرحلة إذاً بتناقض العاطفة ، وبالسادية والمازوشية ، وبالنرجسية لاهتمامات الطفل المنصبة على جسمه .

(٣) المرحلة السادية الإستية :

وتحتل العامين الثاني والثالث ، وفيها يكون المحور الرئيسى للتعامل مع العالم هو الإست (الشرح) . وفي هذه السنة يطرأ تغييران مهمان على حياة الطفل ؛ حيث يقل اهتمامه بالنشاط الفمى بعد النظافة وبداية السير ، وتبدأ الأم فى توجيه انتباهه إلى عادات التبول والتبرز وغيرها من مظاهر النظافة . وبذلك تنتقل منطقة الاهتمام إلى الإست ، ويكون موضوع التبول والتبرز من الموضوعات التى يبدأ الطفل فى تقييمها نتيجة لظهور اهتمام الأم بذلك ، ويشعر الطفل بلذة فى إفراغ برازه والاحتفاظ به ، هذا بالإضافة إلى لذته التى يحققها من رؤية تأثير قيامه بتلك الوظائف على من يقومون بأمره ، ويتحقق الإشباع الليبىدى بتهيج الأغشية المخاطية للإست ، وبتفريغ المادة البرازية . وحيث إن المادة تتعرض لاحتجازها أو إخراجها فإن الطفل يمارس بذلك تناقض العاطفة ، وحيث إن العضلات العاصرة تتيح للطفل أثناء تعلم النظافة إمكانية معارضة الكبار ، فإن هذه المرحلة تتميز بالسادية ، وتتميز أيضاً بالجنسية الثنائية حيث لم تتمايز بعد الذكورة والأنوثة . وقد تظل هذه المنطقة محتفظة بما لها من قدرة التوتر والارتخاء كمنطقة شبقية كما هو الحال فى المنحرفين جنسياً .

(٤) المرحلة الأوديبية :

عند كلا الجنسين ، يمكن اعتبار « المرحلة الأوديبية » ذروة الجنسية الطفلية ، ذلك أن النمو الشبقى ابتداء من الشبقية الفمية ماراً بالشبقية الإستية إلى الإنسالية ، وكذلك نمو العلاقات مع الموضوع ابتداء من الاندماج ، ماراً بالإدماج الجزئى ، وتناقض العاطفة ، إلى الحب والكراهية . كلاهما يتقزم فى الحفزات الأوديبية ، هذه التى تعبر عن نفسها - كقاعدة - فى الاستمناة الإنسالى المحمل بالإثم والتغلب على هذه الحفزات ، كيما تخلق مكانها للجنسية الراشدة ، هو الشرط الضرورى للسوية ، بينما التشبث اللاشعورى بالنزاعات الأوديبية يميز الشخصية العصابية (اتوفنخل ، ص ٢٣٦) .

وتحتل العقدة الأوديبية العامين الرابع والخامس ، ويكون محور التعامل الرئيسي مع العامل هو عضو الذكر ، قضيباً كان أم بظراً ، ويكون أسلوب التعامل شبيهاً بالحياة الغرامية للكبار ؛ فالإشباع اللبيدي يتحقق بصفة أساسية بالاستمناء المنصب على العضو الجنسي مصحوباً بالتخييلات .

(٥) مرحلة الكمون :

وتحتل الفترة من السادسة حتى البلوغ ، وفيها تضعف الحفزات الغريزية بتأثر العوامل الثقافية والاجتماعية التي يحيا في كنفها الطفل ، ومن ثم يبدأ الطفل في نسيان الانحراف المتعدد الأشكال ، ويبدأ في استدخال ما هو قيمى وما هو اجتماعى جاعلاً منه حاجزاً في وجه عريضة الغرائز ، وخلال مرحلة الكمون لا تتلاشى الغرائز الجزئية وهى النزعات الفمية والأستية والسادية والماشوسية والاسكبتوفيلية والاستعراضية ، بل تتكامل فى الحالات السوية تحت راية الجنسية التناسلية .

وترتبط مراحل النمو النفسى والاجتماعى عند فرويد ارتباطاً وثيقاً بنشأة الأمراض النفسية ، فعندما يعانى الطفل إفراطاً أو تفريطاً فى الإشباع فى مرحلة من مراحل النمو فإنه يعانى التثبيت عندها . هذا التثبيت الغريزى هو الذى يتيح عودة النزعات المكبوتة ، ويحدث ذلك عندما يواجه الفرد موقفاً يناله بالإحباط الشديد ، فيكون بالتالى نكوصاً إلى نقطة التثبيت ليجيب على الموقف الذى عجز عن مواجهته كراشد . باستجابة طفلية يكرر فيها الماضى .. ذلك هو صميم الأمراض النفسية والانحرافات الجنسية .

ومما سبق يتضح أن هناك تشكيلة متعددة من التعريفات الخاصة بعلم النفس الاجتماعى ، وجميعها تؤكد أن الدراسة العلمية لسلوك الفرد الاجتماعى ضمن الجماعة التى ينتمى إليها ، والعالم الموضوعى الذى يعيش فى كنفه ، غير غافلة عن التفاعلات الدينامية بين الأنا والآخر ، وما تنطوى عليه هذه التفاعلات من ديناميات نفسية .

يقول إريك فروم Fromm فى مقدمة كتابه « الهروب من الحرية » escape from Freedom إننا إذا أردنا أن نفهم ديناميات العملية الاجتماعية ، علينا أن نفهم ديناميات العمليات النفسية العاملة داخل الفرد .

ثم أن هناك مجموعة من النظريات - السالفة الذكر - التى يسترشد بها علم النفس الاجتماعى فى تفسير وتأويل السلوك الاجتماعى . ومن هنا يكون التساؤل : عن أى النظريات أولى بالاتباع لصوابها وقدرتها على الإجابة عن طبيعة العملية الاجتماعية ؟

وللإجابة عن هذا السؤال : نجيب أن كل نظرية تلقى الضوء على زاوية من زوايا الوجود الإنساني المتعدد الرؤى ، ومن ثم تقدم تفسيرات نسبية ، يمكن الاسترشاد بها لفهم الوجود الاجتماعي وما ينطوي عليه من دوافع وديناميات ، غير قادرة على تقديم رؤية كلية لهذا الوجود الإنساني ، لأن الحقيقة الإنسانية ثرية في محتواها ، متعددة من حيث زوايا الرؤية إليها ، وما التطور الذي صاحب العلوم الإنسانية ، إلا مظهراً لميكانيزم واحد ، هو محاولات الكشف عن جوانب الثراء في الوجود الإنساني بما ينطوي عليه من محددات بيولوجية واجتماعية ونفسية ، تنصهر جميعاً في بوتقة واحدة هي أن الإنسان : كائن عضوي نفسي اجتماعي واحد . Bio - Psycho - So- cial organism

وأن هذه الكلية هي التي تضيء على الوجود الإنساني ثراء في التأويل والبحث.

علم النفس الاجتماعي والعلوم الأخرى

إن المستويات التحليلية للفرد والجماعة والأنظمة الاجتماعية تجعل من علم النفس الاجتماعي نقطة التقاء بين معظم العلوم التي تتخذ من الإنسان موضوعاً لها فهو من جهة يضطلع بدراسة سلوك الفرد ، وما يكمن وراء هذا السلوك من مكونات شخصية ، وحينما نقول مكونات شخصية فإنما نقصد (المكونات الجسمية الفسيولوجية ، والعقلية والانفعالية والاجتماعية) . ومن جهة يدرس الإنسان من خلال تفاعلاته مع البيئة والمجتمع وطبيعة المؤثرات الثقافية والقيمية وما إلى ذلك على سلوكه وسلوك الجماعة والأنظمة الاجتماعية .. فالقول بأن الإنسان موجود نفسى فحسب خرافة ؛ لأن سلوكه يتشكل من تفاعله مع المجتمع ومع الآخرين فى سياق من عملية التنشئة الاجتماعية ، التي تحقق للإنسان النقلة الكيفية من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان . وهنا يتجاوز علم النفس الاجتماعي استاتية (ثبات) علم النفس العام فى النظر إلى ما هو اجتماعى .

فعلم النفس العام كان يركز اهتمامه على الفرد وسلوك الفرد وما يترتب على هذا السلوك من استجابات ، وما يخضع له من قوانين ، بغض النظر عن كافة المتغيرات الأخرى التي تشكل شخصية الفرد كالبيئة والمجتمع والثقافة ومحددات الوراثة ؛ ولهذا كان يعتمد إلى تثبيت هذه المتغيرات وعزلها عن سلوك الفرد . وهكذا كان ينظر علم النفس العام إلى الإنسان بوصفه ظاهرة نفسية أو سلوكية مقطوعة الرأس ومعزولة عما هو اجتماعى .

الأمر نفسه بالنسبة لعلم الاجتماع ؛ حيث كان ينظر إلى الإنسان كموجود اجتماعى ، ومن ثم يدرس المبادئ والقوانين التي تحكم الصيرورة الاجتماعية دونما تعرض لما هو نفسى فى تشكيل المجتمع والجماعة والمنظمة ، أى دونما إعطاء لمتغيرات الشخصية ، ومكونات الفرد النفسية أى دور فى عملية التغيير الاجتماعى ، وفى بناء الأسرة وفى تشكيل سلوك الفرد .

وكأن الفرد من هذا المنظور كائن اجتماعى فحسب معزول عما هو نفسى ! وهذه النظرة الأحادية فى تناول الظواهر الإنسانية المركبة هى التي وصمت علمى النفس والاجتماع بالاستاتية فى تناولها للظواهر الإنسانية ذات الطبيعة الدينامية .

وقد استطاع علم النفس أن يحقق تطوراً كبيراً في تطوره من النزعة البيولوجية عند ماكدوجال McDougall إلى السلوكية عند ألبورت إلى التحليلية النفسية عند فرويد إلى تطبيق مبادئ الجشطلت حيث النظر إلى الإنسان « ككل دينامي .. » . محصلة ختامية لتفاعل ما هو عضوى ونفسى على أرضية مما هو اجتماعى .

وهكذا تنكشف الحقيقة الإنسانية ، لا بوصفها نفسية خالصة ، ولا باعتبارها اجتماعية خالصة ، وإنما هى نفس - اجتماعية . وهذه الحقيقة النفس - اجتماعية هى ميدان علم النفس الاجتماعى ، الذى يشير حتى اسمه إلى التقاء ما هو نفسى مع ما هو اجتماعى .

ويرتبط علم النفس الاجتماعى بعلم الأنثروبولوجيا ، ذلف العلم الذى وحرر الأنواع الإنسانية ، وتتركز اهتماماته على أن الإنسان كائن فريد فى تكوينه يولد وهو مزود بتنظيم عقلى وضمير أخلاقى وخيال خصب ، ويترتب على هذه المعطيات « قدرة الإنسان على الكلام والتفكير وخلق النماذج الثقافية والاحتكاك بالآخرين والتفاعل معهم ونقل مهاراته وسلوكه وثقافته المتنوعة إلى الأجيال المتوارثة بغير توقف أو انقراض » ، ومن ثم كان على علم النفس الاجتماعى أن يخوض فى هذا المجال كى يتوصل إلى فهم أعمق للإنسان ولا سيما فى المجتمعات البدائية . ولعل من أهم هذه الدراسات دراسات مرجريت ميد على المجتمع البدائى فى سهول غينيا الجديدة .

والباحث فى علم النفس الاجتماعى يجد أن مجالات بحثه ودراسته للإنسان لتستوعب فروع من العلوم كالإثنولوجيا ، وإثنوجرافيا ، * والسياسة والاقتصاد والفلسفة إضافة إلى عدد من المجالات التى تتمثل فى :

التربية والتعليم

حيث يكشف علم النفس الاجتماعى عن طبيعة العملية التربوية ، وما يكتنفها من تفاعلات دينامية سواء داخل الفصل أو خارج الفصل أو المدرسة ، ويقدم حلولاً إنشائية لكثير من المشكلات النفسية والاجتماعية داخل المجتمع المدرسى كمؤسسة تعليمية .

* الإثنولوجيا : هو علم الشعوب ، ويبحث فى الثقافة الإنسانية والعادات والعلاقات الاجتماعية وذلك من وجهة النظر التكوينية ، أى من حيث تاريخ النشأة والتطور .

* إثنوجرافيا : العلم الذى يقارن بين الثقافات الإنسانية من زاوية جغرافية ، فالجغرافية هى قدر الأمم .

الصحة النفسية والعلاج النفسى

حيث يتكشف علم النفس الاجتماعى بوصفه نقطة الالتقاء الحقيقى لما هو نفسى وما هو اجتماعى ، وعن طريق مناهج بحثه التجريبي والكلينيكي يقدم تشخيصاً للاضطرابات التى يتصدى لمعالجتها ، ويقدم أيضاً طرائق للعلاج سواء عن طريق الدراسات العميقة لحالة فردية أو عن طريق معرفة العلاقة السببية وتفسيرها وتأويلها والوصول إلى القوانين أو المبادئ الفهمية التى تحكمها .

وعن طريق علم النفس الاجتماعى ، يمكن تنظيم الجماعات العلاجية والجماعات السوسيوومترية لمعرفة ديناميات الجماعات فى كافة المجالات التربوية والاجتماعية والنفسية .

مجالات الخدمة الاجتماعية

يرهص بحقائق لكثير من المجالات النفس الاجتماعية ، ولاسيما ما يختص بالتفاعلات الدينامية بين الفرد والجماعة ، وما يسفر عن هذا التفاعل من نتائج نفسية واجتماعية .

ويقدم مبادئ تفسيرية تفسر كثيراً من الصراعات والاضطرابات السلوكية والاجتماعية والنفسية داخل المؤسسات التعليمية أو المصانع أو السجون وما إلى ذلك ، ومن شأن هذه المبادئ التفسيرية أن تتيح للأخصائيين الاجتماعيين والنفسيين فهماً أعمق للظواهر النفسية والاجتماعية كالجماعة ودينامياتها ، وكسيكولوجية القيادة ، وأبعادها وعواملها ، وما يتصل بالروح المعنوية للأفراد وعوامل إعلائها أو تدهورها ، وما يتصل بديناميات الجماعات العلاجية وكيفية التشخيص وطرق العلاج .

القوات المسلحة

لعب علم النفس دوراً بارزاً فى الحروب ؛ بخاصة فى الحربين العالميتين : الأولى والثانية :

وترجع أهمية علم النفس الاجتماعى فى كشفه النقاب عن أن الحرب ، أى حرب ، هى حرب نفسية ، فأنت مهزوم يوم أن ينال منك المعتدى نفسياً ، ويقنعك على نحو نفسى بأنك ضعيف ولن تقوم لك قائمة ، فكل الحروب قديمة أو حديثة هى حروب نفسية يكون فيها الانتصار لمن يصمد ولا ينهزم نفسياً .

وأى حرب هى فرد أولاً وأخيراً ثم معدة حربية .. وهنا يلعب علم النفس الاجتماعى الدور الأساسى فى تعبئة الأفراد والجماعات وتكوين المقاتل الجسور المتزن

نفسياً وانفعالياً ، والمضحى بنفسه من خلال قيم ومبادئ واضحة ومتميزة .

ولدراسة الجماعة الحربية أهميتها فى القوات المسلحة فهى الجماعة الأولية التى يلتف حولها الجنود ويتمركزون ، ومن هنا كان توجيه القادة والأفراد نحو إعلاء شأن الجماعة وتماسكها من أهم واجبات علم النفس الاجتماعي فى المجال العسكرى .

مجال الإعلام

الإعلام بكافة أنواعه ومناشطه هو الوسيلة الوحيدة للتعبير عن التوجهات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتكمن قيمة الإعلام فى خلق الثقة المتبادلة بين هذه الأجهزة وبين الجماهير . ومن ثم لابد من معرفة سيكولوجيات الجماهير وحركة الأغلبية الصامتة وهديرها الذى لا يرد .

ولإخصائى الإعلام دور فعال فى إعلاء الروح المعنوية عن طريق المعلومة الصادقة والفكرة الواضحة وربط الأفراد بقادتها وتوجهات النظام وضرب الشائعات والدعايات المغرضة وكافة أشكال الحرب النفسية .

وهكذا يعتبر علم النفس الاجتماعي القاسم المشترك لكافة مجالات الحياة لما يقدمه من تفسيرات وحلول إنشائية لمشكلات الحياة .

نشأة علم النفس الاجتماعي

نشأ علم النفس ، شأنه شأن كثير من العلوم في أحضان الفلسفة .. فقد اهتم فلاسفة اليونان بوجود الإنسان وبجوهر طبيعته البشرية ، وبمعيارية الخير والشر ، وبصلات الفرد الاجتماعية وعلاقاته بالسلطة الحاكمة وأنواع الحكومات والنظم الاجتماعية والطبقات الاجتماعية وما إلى ذلك من موضوعات أرهست ومازالت ترهص لعلماء النفس والاجتماع بكثير من الأفكار.

ويعتبر افلاطون (٤٢٧ - ٤٤٧ ق.م) من أوائل الفلاسفة الذين اهتموا بالطبيعة الإنسانية ، وعلى أهمية البيئة في تشكيل طبيعة الفرد الاجتماعية ، وأكد ذلك في كتابه الفذ ، الجمهورية ، تلك التي حصرها في طبقات ثلاث : الحكام والجند والشعب ، أما الحكام فينبغى أن يكونوا من الفلاسفة ، لأن الفيلسوف ، هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يتصور القوانين العادلة تصوراً علمياً ، (١) وأكد أفلاطون ضرورة تجنيد المرأة ، وشيوعية النساء والأولاد.

ومن بعد أفلاطون جاء أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) الذي أكد أن الإنسان اجتماعي بطبيعته ، وقد نبه إلى أهمية التواصل بين الناس ، وركز على أهمية الأسرة والجماعة ، فالإنسان حيوان اجتماعي بالطبع ، والذي لا يستطيع أن يعيش في جماعة أو الذي ليست له حاجات اجتماعية لأنه يكفى نفسه بنفسه فهو إما بهيمة أو آلة، (٢)

وقد أكد أرسطو أهمية المحددات البيولوجية ، ومنذ ذلك الوقت بدأت ثنائية البيئة والوراثة . وانتقلت المشكلة إلى القيم التي تحدد سلوك الإنسان . فذهب هوبز Hobbes ، (١٦٥١) إلى أن الإنسان شرير بفطرته وأنه أنانى يؤثر نفسه على الآخرين ، وأنه لا صلاح للمجتمع إلا إذا حد المجتمع من أنانية الفرد ، الذي ينزع دائماً في سلوكه إلى ما يحقق له اللذة والمنفعة.

وعارضه في ذلك جان جاك روسو Rousseau في كتابه ، العقد الاجتماعي ، و ، وإميل . .

(١) يوسف مكرم : تاريخ الفلسفة اليونانية : دار المعارف ، ص ١٠٥

(٢) يوسف مكرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار المعارف ، ص ١٠٥

والفكرة المحورية في فلسفته : إن الطبيعة في جوهرها خيرة ، والمدنية مصدر كل رذيلة وكل اغتراب للإنسان ، وفطرة الإنسان في صميمها خير محض ، ولهذا يستهل « روسو » كتابه إميل بهذه العبارة « كل شيء هو خير حين يخرج من بين يد الخالق ، ويفسد كل شيء على يد الإنسان » .

ومعنى هذه العبارة أن الحضارة أو المدنية في نظر روسو تفسد ما فطر عليه الإنسان من خير ، وتفصله عن الطبيعة ، وتجلب إليه كل الرذائل التي تغريه عن طبيعته الأصلية .

ولهذا يغالى روسو في التركيز على ارتقاء الشعور والوجدان على حساب العقل ومناشطه لدرجة أن من أقواله الشهيرة ما نصه « إنى لأصرح في يقين أن التفكير مناقض لطبيعة الإنسان ، وأن الرجل المفكر حيوان سافل وأن الخير للناس أن يطرحوا العقل جانباً ، وأن يعمدوا إلى رياضة القلب وتنمية مشاعر المحبة في أحضان الطبيعة » .

وقد اتخذ البحث في السلوك النفسى والاجتماعى منحى مغايراً فى كتابات مونتسكيو Montesquieu الذى أكد أهمية دور البيئة الطبيعية فى تشكيل سلوك الفرد ، ولقد أكد هذا رأى هيلباش Hellpach فى كتاب له بعنوان الجغرافيا النفسية .

ويظهر كتاب أصل الأنواع لداروين (١٨٥٩) تأثرت نشأة علم النفس الاجتماعى بهذا الاتجاه الجديد .

ومع بداية القرن العشرين بدأ علم النفس الاجتماعى يبرز كعلم ؛ حيث نشر ماكدوجال كتابه الشهير « مقدمة فى علم النفس الاجتماعى » ، ويظهر هذا الكتاب بدأت مشكلة الدوافع والغرائز تحتل موقعاً فى علم النفس الاجتماعى ، فقد أضفى ماكدوجال على علم النفس طابعاً بيولوجياً ، ثم كان معمل فونت Wundt (١٨٣٢ - ١٩٢١) الذى أسهم إلى حد كبير فى تدعيم البحث التجريبي لعلم النفس الاجتماعى ، واصطبغ علم النفس الاجتماعى بالنزعة السلوكية على يد ألبورت ، وبالتحليل النفسى نتيجة لتأثيره بنظريات فرويد وبالمبادئ الجشطالتيية والنظريات المعرفية والسياسية والاقتصادية .

وهكذا اتجه علم النفس الاجتماعى من إطاره الفلسفى الذى يعتمد على وصف كيفية حدوث الظواهر ، لا تحليل حدوثها ، الى العلم حيث التناول العلمى للظواهر النفسية والاجتماعية بمناهج البحث العلمى وطرائقه .

أهمية دراسة علم النفس الاجتماعي

تكمن أهمية علم النفس الاجتماعي في محاولاته تحليل أسباب أزمة الإنسان المعاصر ورصدها وإخضاعها للدراسة العلمية الدقيقة ، وتتمثل بعض جوانب أزمة الإنسان المعاصر فيما يلي :

(١) حربان عالميتان كبيرتان فجرهما الإنسانى فى أقل من ثلاثين عاماً ، وبسببهما تمزقت معنويات الإنسان ، وجعلناه يشعر بعجز القيم السائدة عن إنقاذه من ويلات الحرب ودمارها الرهيب .

(٢) تفجر معرفى استلزمته ضرورات الحرب وضرورات السلام ، امتد ليستوعب كافة مناشط الإنسان وتمثل فى ثورة المعلومات ، وفى الطاقة الجبارة ، بكل مخاطرها وإيجابياتها ، وفى تكنولوجيا المعلومات وقد أدى هذا التفجر المعرفى إلى زيادة الإنتاج ، وظهور ما سعى بظاهرة الأتوميشين ، وظهور الإنسان - الآلة .

(٣) مذاهب فلسفية وفكرية اتسمت بالكلية والشمول ، كفلسفة الحضارة وفلسفة التطور وفلسفة الحياة ، وقد أسهمت جميعاً بشكل أو بآخر فى تحويل الإنسان إلى كائن لا وزن له ، إلى إنسان لا حول ولا قوة له ، إلى ذرة إنسانية ، إلى رقم فى إحصاء كبير ، إلى موجود فى ذاته ، كما يسميه سارتر .

(٤) أيديولوجيات عقائدية اتسمت بالتسلط والقطعية وجمود الفكر والتعصب والتمييز العنصرى والحض على العدوان : وتمجيد القوة : ومعاداة الأفكار الأخرى ، وتمثلت هذه الأيديولوجيات المذهبية فى النازية والفاشية فى الثلاثينيات والأربعينيات . وفى الخمسينيات كانت الحرب الباردة ، بين المعركين ، ثم ظهرت بعد ذلك أشكال متعددة من التعصب وجمود العقل والتفكير القطعى فى أنحاء شتى من العالم .

(٥) احتجاجات على وضع الإنسان وموقفه تمثلت فى كتابات المفكرين وعلماء النفس والاجتماع : وتمثلت فى البحث عن الجوانب الإيجابية فى الإنسان حيث الفاعلية والاستمرارية ، وتأسيس القيم : واستثارة كوامن المعنى وتأكيد حرية الإنسان وتساميه وسعيه الدؤوب نحو تأكيد ذاته .

(٦) أيديولوجيات جديدة ، ومراكز قوة ظهرت بعد الحرب العالمية الكبرى صاحبته حروب هنا وهناك : وبؤر للصراع والتوتر في أنحاء شتى من العالم مثل فيتنام ، كوريا الشمالية وإيران والعراق ولبنان .. الخ . كل هذا حدث كما لو كان في داخل الإنسان شيء انتحاري يدفعه إلى الحروب وتدمير نفسه .

(٧) ومع نهاية الثمانينيات من هذا القرن بدا أن هذا العالم يعيد - ومن جديد- تشكيل أوضاعه ، وأن هناك حركة تسويات كبرى لأوضاع اجتماعية ونظم اجتماعية وسياسية وأيديولوجية راسخة .

وبدأ الزلزال السوفيتي الصنع عن طريق البروسترويك ، يهز أوضاعاً ثابتة وراسخة في الاتحاد السوفيتي ، واجتاحت رياح التغيير أوضاعاً ثابتة راسخة في الدول الشرقية ، فلقد خرج العفريت من القمقم وانطلقت الأغلبية الصامتة ، بهديرها الذي لا يصد ، تعيد ومن جديد تشكيل أوضاعها على طريق الحرية والديمقراطية والاقتصاد الحر .

وسيقف علماء النفس الاجتماعيون طويلاً أمام ما حدث في الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية محاولين إعطاء تفسيرات علمية لحركة الشعوب واتجاهاتها .

إضافة لما سبق .. فإن أهمية علم النفس تمتد لتستوعب مجالات شتى في حياتنا الاجتماعية والنفسية ، لعل بعضها يتمثل في :

العولمة : Globalism

في نهاية الثمانينيات ، وبالتحديد في عام ١٩٨٩ سقط حائط برلين ، وكان سقوطه بداية منبئة بأفول الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي ودول شرق ووسط أوروبا ، حيث انطلقت الثورة في كل مكان في هذه الدول تنشد الحرية والديمقراطية والتحول الاقتصادي .

وبدا واضحاً أن العالم في حاجة إلى رؤية جديدة ، إلى رؤية مستقبلية تستهدف إيجاد حلول جديدة لمشاكل عالمية غير تقليدية .

وظهرت مفاهيم جديدة تحاول بلورت مظاهر الثورة المعلوماتية والتقدم التكنولوجي المتسارع وحركة المتغيرات في عالم اليوم ، وتمثلت هذه المفاهيم في العولمة Globalsim والكونية Universalism والاعتماد المتبادل Interdependence

ولعل نقطة البدء في استخدام مفهوم العولمة جاءت إثر انهيار الاتحاد السوفيتي ،

وتحول دول شرق ووسط أوروبا إلى الاقتصاد الحر ، وخروج العالم من الثنائية القطبية إلى تعدد الأقطاب .

أما مفهوم الكونية فقد جاء نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية ، تلك التى أتاحت للإنسان رؤية الكون رؤية علمية ، بغزو الفضاء ، حيث أمكن رؤية الأرض من خلال الكون ، فبدت وكأنها وحدة واحدة بلا حدود أو تقسيمات ، الأمر الذى يلزم عنه ، الاعتماد المتبادل ، بين الشعوب والأمم ، وضرورة حل المشكلات الإقليمية فى إطار عالمى والمشكلات العالمية فى أطر إقليمية .

غير أن هذه الثورة الكونية تفتقر إلى وضوح الرؤية ، فقد أشار تقرير روما لعام (١٩٩١) إلى إن عالم اليوم يمر بمرحلة الثورة الكوكبية ، وهى ثورة متميزة عن الثورة الزراعية والثورة الصناعية والتعصبية والدوجماطيقية ، وقد تمثلت تلك اللاعقلانية وذلك التعصب والدوجماطيقية فى حرب الخليج ، وبشاعة التطهير العرقى فى دول البلقان ، والعنف الوحشى فى الصومال وعمليات الإبادة الجماعية فى رواندا ، وظهور الحركات الفاشية الجديدة فى أوروبا ، وتصاعد النزعات التعصبية على نحو غير مسبوق فى إسرائيل .

وقد ولدت ثورة المعلومات والاتصالات ثورات مقابلة فى عالم الاقتصاد ؛ ذلك أن مفهوم العولمة استخدم فى بداياته لوصف بعض الأوجه الرئيسية للتحويل الحديث فى الاقتصاد العالمى .

غير أن آثار العولمة بدأت تمتد لتستوعب نشاط الإنسان المعاصر ، ولا سيما الثقافية منها ، وأن الصراعات القادمة ستكون صراعات ثقافية .

ويعبر عن ذلك هنتجتون Huntington فى كتابه « صدام الحضارات » بقوله إن الصراعات القادمة ستكون بين شعوب تنتمى إلى كيانات ثقافية مختلفة .. وإن الصراعات الثقافية هى الآن أخطر ما كانت عليه فى أى وقت فى التاريخ .. وإن الصراعات المستقبلية سوف تشكلها عوامل ثقافية أكثر منها عوامل اقتصادية أو أيولوجية ..

وتاريخ الصراع عنده بدأ بين الملوك والأباطرة ثم بين الشعوب ، ثم بين الأيديولوجيات فى الحرب الباردة ، والآن الصراع هو صدام بين الحضارات ...

ويستشهد هنتجتون بفوكوياما الذى يرى أن غلبة الليبرالية الرأسمالية على كل شئون العالم قد بدأت بعد سقوط حائط برلين ، وأن على الهويات الثقافية أن تذوب فى الهويات الثقافية الكبرى .

ورؤية هنتجتون تحض علي العدوان ، وتدعو إلى الصدام بين الحضارات ... بين الثقافات ، غافلة عن أن التفاعل بين التمايزات الثقافية وليس « الصراع » الثقافي بين الأمم هو الذي يقدم إبداعاً لحلول جديدة ، لمواجهة مشكلات عالمية غير تقليدية ، فلكل مجتمع هويته الثقافية وآرائه الحضارية الفريدة ، التي لا تذوب أو تتلاشي بتلاشي المسافات بين الأمم.

ها هنا يصبح الكشف عن منابت الثقافة المصرية ، واستجلاء محتوياتها المتميزة أمراً لا مناص منه للحفاظ علي الهوية القومية ، كجزء من هذه الثقافة التي شكلت أبعادها « ثوابت جغرافية » ثرية التنوع « ومتغيرات تاريخية » فريدة في نوعها.

الإرهاب Terrorism

يموج العالم بتيارات عنف وإرهاب مخضب بالدماء ، وهذا الإرهاب ليس ظاهرة مصرية ، أو عربية أو إسلامية ، إنما هو ظاهرة عالمية لها أبعادها الثقافية، ودوافعها النفسية ، وبواعثها الاقتصادية والاجتماعية وأهدافها السياسية.

وهذا النوع من الإرهاب عدو للحضارة ، عدو للتقدم ، يتسم بالخسة والغدر ، يستمرئ النيل من الأبرياء دون ذنب أو جريرة.

ولعل في انفجار المركز التجاري في اكلاهوما (١٩٩٥) ، وحرب الكنائس في إيرلندا ، ومجزرة الأقصر في (١٩٩٨) وتفجير سفارتي أمريكا في تنزانيا وكينيا (١٩٩٩) خير شاهد علي ضراوة الإرهاب وعالميته .

وقد استفاد الإرهاب من التطور العلمي والتكنولوجي ، فالعولمة الاقتصادية أتاحت فرصاً للتحويلات المالية بغير حدود ، وغسل الأموال ، وتحويلها من مكان إلى آخر بمجرد نبضة إلكترونية.

مقدمة فى مناهج البحث

لعل من أهم الخصائص التى تميز عصرنا هذا ، أنه عصر العلم والتقدم التكنولوجى الهائل ، الذى يمتد ليستوعب كافة مناشط الإنسان ، فهناك ثورات علمية جبارة فى وسائل الاتصال والمواصلات ، وهناك تفجر علمى متواصل فى عالم المعرفة والمعلومات وكيفية تدوينها ورصدها وتخزينها ، والاستفادة من نتائجها ، وهناك وثبات تكنولوجية اختزلت المسافات الزمنية للإنسان بالخروج من الأرض بجاذبيتها إلى كواكب السماء ، حيث بدت الكرة الأرضية وكأنها عالم واحد بغير حدود أو تقسيمات مصطنعة إنسانياً .

وهناك تقدم علمى فى عالم الحواس الآلية والإلكترونية ، بلغت بالإنسان إلى اختراع شبكة الشبكات الإلكترونية أو الإنترنت .

وهناك ثورات علمية فى عالم الجينات الوراثية والهندسية ، تنبئ نتائجها بمستقبل أفضل للإنسان على الأرض .

وهناك ثورة علمية فى مجالات الفضاء والأقمار الصناعية ، لدرجة أصبحت معها السماء مفتوحة . والعالم كله أشبه ما يكون بقرية تكنولوجية واحدة لا انقسام فيها؛ الأمر الذى يلزم معه أن يكون هناك تعاون وتسامح بين الناس ، على الرغم مما بينهم من تباينات فكرية وثقافية وعقائدية .

وهذا التقدم الذى نعيشه هو نتيجة متواصلة العطاء لعصر التنوير -Enlightenment الذى يؤرخ له المؤرخون بالنصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وكانت مهمة فلاسفة التنوير تأكيد سيادة العقل ، باعتباره السيد الذى ينبغى أن يطاع ، ولهذا فضلوا الفلسفة عن الميتافيزيقا التقليدية ، لتقتصر مهمتها فى البحث فى العالم وفى الوجود الإنسانى ، الأمر الذى لزم عنه تأسيس العلوم والفنون على السببية وليس البحث فيما وراء الأسباب .

وقد تأثر فلاسفة التنوير بمفكرين عظميين ، هما :

جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤)

ونيوتن (١٦٦٣ - ١٩٢٧) .

بحث جون لوك فى أصل الأفكار فى كتابه، محاولة فى الفهم الإنسانى ، فردها إلى معطيات التجربة الحسية ، فالنفس فى الأصل كلوح مصقول ، صفحة بيضاء Ta-bala Rasa ، وأن التجربة هى التى تنقش فيها المعانى والمبادئ جميعاً.

إن لوك يدعونا إلى الاهتمام بعالم التجربة ، ويتقبل حدود عقولنا ، وأن نبحث عن اليقين فى نفوسنا ، ولننظر إلى هذه النفس ، والتى من خلالها سنعرف أن إدراكنا محدود ، ولنتقبل حدود العقل ولندرسه كما هو ، لنعرف كيف يعمل وأن نكون على يقين بأنه لا يوجد فى العقل شىء ما لم يكن من قبل فى الحس ، وأن عقلنا قادر على كشف اليقين والحقائق ، التى يتوصل إليهما الذهن باستنباطات مستمدة من الأفكار التى نكتسبها عن طريق الإحساس والتفكير .

أما إسحق نيوتن فقد كان لمنهجه العلمى ولمكتشفاته أثر فى فلاسفة التنوير .. جاء اكتشافه للجاذبية مؤيداً للمذهب الآلى وموطداً للثقة فى المنهج الرياضى فقد استدل على مبدأ يفسر تماسك أجزاء الطبيعة ووضع قانوناً كلياً استخرج منه بالقياس نتائج متفقة مع التجربة ، لقد أصبحت الطبيعة موضوع العقل فى عصر التنوير حيث ارتبطت بالوظيفة النقدية للعقل فى إطار من الملاحظة والتجربة ، دون تجاوز لحدودها إلى ما وراء الطبيعة ، ولهذا كانت الغاية القصوى تكمن فى الوصول إلى منهج علمى يستطيع الإنسان من خلاله أن يكون سيداً ومسيطرأ على الطبيعة باعتبارها مجال ملاحظته وتجاريه .

وقد أدى التقدم العلمى فى القرن السابع عشر إلى الثقة فى الطبيعة وإلى إمكان التقدم المستمر فى القرن الثامن عشر ؛ حيث تقدمت العلوم الفيزيائية الرياضية بفضل منجزات نيوتن ، ومرت الكيمياء على يد لافوازيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) بفترات ازدهار إبداعية وازدهرت علوم النبات والحيوان ووظائف الأعضاء ومهد مونتيسكو لعلم الاجتماع ، وأفكار جون لوك لعلم النفس ، وانطلقت الأفكار معبرة عن عصر التنوير ووضع كانط شعار عصر التنوير بقوله المأثور : كن جريئاً فى استخدام عقلك ، وأصبح هذا العصر بفضل كتابات كانط وفولتير وجان جاك روسو وديدرو وغيرهم هو التمهيد الحقيقى للتقدم العلمى فى القرن العشرين وللقرن القادم أيضاً .

وهنا لنا أن نتساءل عن الخصائص التى تميز التفكير العلمى . ولعل من أهم

هذه الخصائص :

أولاً : النسبية :

إن العلم نسبى غير مطلق ، وهذه النسبية سر تقدم العلم .. ولهذا فهو جزئى

ومحدود وقائم فى الزمان ففى مجال العلم لا توجد حقائق مطلقة بذاتها أزلية وأبدية، بل إن كل حقيقة علمية تفضى إلى حقائق علمية أخرى ، ومهما بدا فى أى وقت أن العلم قد وصل فى موضوع معين إلى رأى نهائى مستقر .. فإن التطوير سرعان ما يتجاوز هذا الرأى ويستعيض عنه برأى آخر جديد ، والحقائق العلمية التى نطلق عليها لفظ موضوعية إنما هى فى حقيقة أمرها ذات عبور ذاتى ، فهى ذاتية لا تبلغ حد الموضوعية المطلقة إلى أن نتجاوزها إلى حقائق أخرى ، ولهذا يقول سارتر : إن الموضوعية لا بد وأن تعانى نوبة من الذاتية ، وهذا سر تقدم العلم الذى هو موضوع العقل والتجربة بأدواتها ومقاييسها ، وعن طريق مناشط العقل نبلى إلى حقائق تكون ممهدة لبلوغ حقائق أخرى ، فهندسة إقليدس كانت فى عصرها والعصور التى تلتها قمة الإبداع العقلى ، ولكن التقدم تجاوزها إلى حقائق علمية أكثر تقدماً ، فلا يوجد فى مجال العلم إلا ما هو محدود ومتغير وجزئى فى سبيله إلى التطور كصيورة لا تعرف التوقف .

ثانياً : التراكمية :

العلم معرفة تراكمية ، فكل معرفة علمية تأتى انطلاقاً من معارف جديدة لتحل محل المعرفة السابقة ، والوضع الذى يقبله العلماء فى أى عصر هو الوضع الذى يمثل حالة العلم فى ذلك العصر بعينه ، وتصبح النظرية العلمية السابقة بمجرد ظهور الجديد شيئاً تاريخياً ؛ أى إنها تهم مؤرخ العلم لا العالم ذاته ، وهذا مردود إلى نسبية العلم ومحدوديته وإلى قابلية العقل إلى التطور والارتفاع بالإنسان إلى ما يجاوز وضعه فى مرحلة زمنية بعينها إلى مراحل أكثر تقدماً ؛ فالعلم فى حركة دائبة ، ومن ثم دليل على حيوية الإنسان ونزوعه المستمر إلى التطور والإبداع الذى هو جوهر وجود الإنسان ، فالإنسان يولد وهو مزود بعقل فريد هو أعدل الأشياء قسمة بين البشر ، وبإمكانات تتواصل بغير انتهاء ومواهب شتى وخيال خصب .. وهذا العقل وتلك الإمكانيات هى المعين للإنسان على التطور من خلال التراكم المعرفى القائم فى إطار من المجتمع ، الذى يشجع على العلم والتطور من خلال المنهج العلمى السليم .

ويحدد فؤاد زكريا بعض الخصائص المميزة للمنهج العلمى لا بوصفه المنهج الوحيد الذى يمكن تصويره للعلم ، ولكن بوصفه المنهج الذى أصبح غالباً على الدراسة العلمية دون استبعاد أية تطورات أخرى ممكنة فى المستقبل .

(١) يبدأ المنهج العلمى يبدأ بملاحظة منظمة للظواهر التى يراد بحثها ، وهذه الملاحظة تقوم على انتقاء وعزل الوقائع الأخرى التى تتشابه مع

الظاهرة موضع البحث ، بل إن الظاهرة أو الواقعة سواء كانت نفسية أم طبيعية أم اجتماعية .. فإنه يمكن تناولها من زوايا متعددة وفقاً لاهتمام العالم أو الباحث .

(٢) وفي العلم الحديث نادراً ما تستخدم الملاحظة الحسية .. صحيح أنها في أوائل العصر الحديث كانت الوسيلة التي يلجأ إليها العلماء من أجل جمع معلومات عن الواقع ، وذلك قبل أن تكتشف أجهزة الملاحظة والرصد الحديثة . وأبسط مثال على ذلك أن ملاحظة الطبيب للمريض في البلاد المتقدمة طبيياً أصبحت أقل اعتماداً على اليد وسماعة الأذن ، وازداد اعتمادها على الأجهزة العلمية الدقيقة في تسجيل ضربات القلب أو على التصوير بكاميرات داخلية أو على الأنواع الجديدة من الأشعة ، كذلك لم تعد ملاحظة عالم الفيزياء تعتمد على العينين بل تتم عن طريق أجهزة علمية وإلكترونية غاية في الدقة ، ويكون على الفيزيائي أو الطبيب القيام بفحص وقراءة هذه الصور ومحاولة فهمها وتشخيصها فالخطوة الأولى لم تعد حسية خالصة .. بل أصبحت علمية دقيقة تعتمد على القراءة العقلية لها .

(٣) وتأتي بعد الملاحظة مرحلة التجريب حيث توضع الظواهر في ظروف ، يمكن التحكم فيها مع تنوع هذه الظروف كلما أمكن ، وقد أصبحت التجارب العلمية مرحلة ممهدة لمراحل علمية تالية ؛ أي إنها تظل مرحلة أولية في العلم ، تسفر عن قوانين جزئية عن الظواهر المراد بحثها .

(٤) وفي المرحلة التالية يستعين العلم بتلك القوانين الجزئية ، التي تم كشفها عن طريق تجارب جاليليو ويسكال وهجنز وغيرهم من العلماء السابقين عليه ، لكي يضمها كلها في نظرية عامة هي نظرية الجاذبية أو قانون الجاذبية بالمعنى العام لهذا اللفظ .

(٥) وفي كثير من الأحيان يلجأ العلم ، بعد الوصول إلى النظرية العامة إلى الاستنباط العقلي ؛ إذ يتخذ من النظرية نقطة ارتكاز أو مقدمة أولى ، ويستخلص منها بأساليب منطقية ورياضية ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج . وبعد ذلك يقوم مرة أخرى بإجراء تجارب من نوع جديد لكي يتحقق من هذه النتائج التي استخلصها بالعقل والاستنباط ، فإذا أثبتت التجارب صحة تلك النتائج كانت المقدمات التي ارتكز عليها صحيحة .. أما إذا كذبتها فإنه يعيد النظر في مقدماته ، وقد يرفضها كلياً أو يصححها

عن طريق إدماجها في مبدأ عام . وهذا ما فعله آينشتين عندما توصل إلى نظرية النسبية بناء على ملاحظات وتجارب جزئية سابقة قام بها هو وغيره من العلماء ، واستخلص النتائج المترتبة عليها عن طريق الاستنباط العقلي . . وكان لابد من تجربة لكي يثبت أن هذه النتائج صحيحة ، وبالفعل أجريت هذه التجربة في حالة الكسوف الشمسي التي حدثت ١٩١٦ ، وأثبتت صحة النظرية التي اتخذ منها آينشتين مقدمة لاستنتاجاته .

وهكذا يسير المنهج العلمي من الملاحظة إلى التجربة إلى الاستنباط العقلي وإلى التجارب مرة أخرى ؛ أي إن هناك تداخلاً بين ما هو تجريبي وما هو عقلي ، ومن ثم فإن التجريدية والعقلية في مجال العلم ليستا مستقلين بل هما مرحلتان في طريق واحد . وفي أغلب الأحيان يكون العلم في بداية تطوره تجريبياً ، وعندما ينضج يكتسب إلى جانب التجريبية الصيغة العقلية الاستنباطية .

ثالثاً : البحث عن الأسباب :

إن النشاط العلمي قائم في البحث عن السببية ، أي عن الأسباب التي تكمن وراء الظواهر ، سواء أكانت ظواهر طبيعية أم نفسية ، وهذا البحث هو الذي يتيح لنا بلوغ بعض القوانين المفسرة لهذه الظواهر ، ومن ثم يزيد من قدرتنا على الإمساك بالظاهرة ، ويتيح القدرة على التنبؤ بما هو قادم .

وفي البحث عن العملية الكامنة داخل الظواهر إرضاءً للتعطش المعرفي الكامن في الإنسان ، فهو يسأل عن : لماذا ، وكيف تحدث الظواهر على هذا النحو ، وفي سؤاله عن : لماذا ، معرفة بالأسباب .

أما السؤال : بكيف ، فهو يوصلنا إلى الكيفية التي تكون عليها الظواهر وينحو العلم في العصر الحديث إلى توسيع فكرة السببية ، حيث لا يؤدي ظهور نظرية جديدة إلى إلغاء نظرية قديمة ، بل يوسع من نطاق استخداماتها المستقبلية .

رابعاً : العمومية واليقين :

إن اليقين في العلم - وإن كان نسبياً - إلا أنه يتصف إلى حد كبير بالعمومية . وعلى الرغم من أنه ليس يقيناً مطلقاً يسرى على كل زمان ومكان ، بل يعمل حساباً للتغير والتطور المستمر .

وهذا اليقين العلمي يتسم بالموضوعية ، بمعنى أنه يركز على أدلة مقنعة

وأدوات بحثية جديدة ، إضافة إلى تلك الرؤية الذاتية التى هى المعبر للوصول إلى هذه الحقائق الموضوعية ، التى قد تنقلنا إلى حقائق أخرى أكثر موضوعية وأعم وأشمل تفسيراً .

خامساً : الدقة :

إن العلم له أدلته التى تتصف بالدقة والتجريد والقياس والرياضيات ، ولا غنى للباحث عن استخدام هذه الأدوات إذا ما أراد أن يبلغ إلى الحقيقة العلمية ، وعدم استخدامها معناه إننا نظل فى المرحلة قبل العلمية .. فمنذ العصور القديمة كانت هناك محاولات لدراسة الطبيعة على أسس علمية ، ولكن كان يعيب هذه المحاولات اعتمادها على لغة (كيفية) أى على الكلام عن الظواهر الطبيعية من خلال صفاتها التى تبدو للحواس المعتادة كالحار والبارد والثقيل والخفيف . ولم يبدأ علم الطبيعة بمعناه الحقيقى إلا على أيدي أقطاب الفيزياء فى أوائل العصر الحديث ، وعلى رأسهم جاليليو ، وعلى هذا النحو كانت معظم العلوم ، فالنقلة الهائلة التى حدثت فى العلم تكمن فى أدواته المستخدمة للوصول إلى الحقائق ؛ فلم تبدأ الكيمياء دخول المرحلة العلمية إلا فى القرن الثامن عشر ، عندما طبقت فيها المناهج الكمية واستخدمت فى التعبير عن حقائقها النسب والمعادلات الرياضية .

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن : ماذا عن الظواهر الاجتماعية والإنسانية ؟! فإذا كانت الظواهر الطبيعية يمكن التحكم فيها وإخضاعها للأدوات الكمية على نحو دقيق ، فهل من المقدور التحكم فى الظاهرة الإنسانية على هذا النحو ، لا سيما وأن الإنسان كائن فريد فى نوعه ، يتسم بدينامية وتفاعلات ، ويولد وهو مزود بجهاز عصبى موروث وعقل فريد ، وإمكانات وقدرات ، وتتحكم فيه مشاعر وعواطف وانفعالات ، وتؤثر فيه قوى اجتماعية واقتصادية ، إضافة إلى هذا كله .. فإنه كائن فى حالة انسلاخ عن ماضيه ، وتجاوز لحاضره صوب مستقبل يتواصل أمامه باستمرار فكيف يمكن إذا إخضاعه للتجريب العلمى على نحو كمى ، كما هو الحال فى الكيمياء والفيزياء وغيرهما من العلوم .

مناهج البحث فى علم النفس الاجتماعى

إن التطور العلمى المذهل الذى حققته العلوم الطبيعية ، دفع علماء النفس إلى محاولة الوصول إلى علم نفس عام بقوانين عامة ، كعلم الطبيعة العام ، مما يتضح عنه مدرسة فونت ، ولكن لم يكتب لمعمله النجاح وفشلت المحاولة لعدم التجانس فى البشر ، فاختلف فهم أكثر من تشابههم ؛ فكل فرد يمثل هوية فريدة فى نوعها ، بصمة وحيدة غير قابلة للتكرار ، ومن هنا نشأت المحاولة لقياس الاختلافات بين الناس (علم نفس الفروق الفردية) ، ويهدف تحديد مكان الفرد بالنسبة للآخرين (مجموع السكان) من زاوية قدرة بعينها (كالذكاء والقدرة العددية ، الموسيقية .. الخ) .. ولكن عندما تحدد مكان الفحوص بالنسبة إلى الآخرين من زوايا كل القدرات الممكنة فإن ذلك لا يقترب بنا مع ذلك من فهمه .

ومن هنا المحاولة لفهم الفرد عن طريق المنهج الكلينى ، أى الدراسة العميقة لحالة فريدة بعينها ، الهدف هو الفهم بمعنى أن نتبين الدوافع الغريزية التى كانت خطرة بالنسبة إليه فى طفولته ، والتى ولدت القلق ، هذا الذى أبتعث ميكانيزمات دفاعية خاصة مازالت حتى اليوم تكرر نفسها ، وتطبع الشخصية بطابعها المميز وتحكم السلوك فى المستقبل .

وعليه انتهى الأمر إلى منهجين :

(١) تجريبى سيكومتري (قياس) : يستهدف الفروق الفردية أى تحديد مكان الفحوص من الآخرين من زاوية قدرة معينة ؛ مما يدخل ضمن التفسير أو التصنيف .

(٢) كلىنى : يستهدف فهم الفحوص .

من الزاوية المنطقية :

منهج الملاحظة الطبيعية الذى يلاحظ الظواهر على الطبيعة هو الأساس :

(أ) إذا استحدثنا الظاهرة لكى نلاحظها مع التحكم فى العوامل (حصر العوامل وتثبيتها جميعاً ، مع تغير عامل واحد فى المرة الواحدة ؛ لتبين كل ما يترتب على ذلك) كان المنهج التجريبى .

(ب) وإذا لاحظنا الظاهرة ، من الزاوية السيكدينامية واضعين في اعتبارنا أن الحياة ليست سلسلة من الصراعات ومحاولات فضها ، من الرغبات والدوافع والحاجات والخوافز ومحاولات إشباعها من ضياع الاتزان ومحاولة إعادته) .. فإن هذه المحاولات قد تنجح فتكون السوية ، وعندما تفشل يحاول الكائن فض صراعاته على مستوى نكوصي ، وعلى نحو تفكيكي فتكون اللاسوية (أمراض نفسية وعقلية) . فإذا كان النكوص بشكل جزئي تكون الأمراض النفسية ، وعندما يكون النكوص ممعناً إلى البدايات الأولى للطفولة تكون الأمراض العقلية ، وعندما نقوم بملاحظة السلوك من هذه الزاوية الدينامية يكون ذلك هو المنهج الكلينيكي .

أما إذا حرصنا في هذا المنهج الكلينيكي على الحيادية وإدخال مفهوم (الطرح) في حسابنا يكون منهج التحليل النفسي ، وعندما نتناول النتائج بالعمليات الإحصائية يكون المنهج الإحصائي .

وتتلخص مناهج البحث في علم النفس الاجتماعي فيما يلي :

- (١) المنهج الوصفي .
- (٢) المنهج التجريبي .
- (٣) المنهج الكلينيكي .

١ - المنهج الوصفي :

وهو منهج مساعد يمهّد للعملية العلمية ، ولكن لا يدخل إلى صميم العملية العلمية ذاتها ؛ حيث يستند إلى :

أ - الملاحظة العلمية .

ب - الطريقة الطولية .

ج - الطريقة المستعرضة .

أ - الملاحظة العلمية Observation

تعتبر الملاحظة الدقيقة مصدراً للحصول على معلومات أو بيانات عن الحالة المراد بحثها . وكما تكون الملاحظة على قدر من الموضوعية في الوصف تستخدم وسائل دقيقة ، لعل من أهم هذه الوسائل كاميرات الفيديو والتسجيلات والحجرات ذات الرؤية الأحادية الجانب ..

ورغم أهمية الملاحظة .. إلا أنها تقدم بهذه الوسائل جانباً وصفيّاً من السلوك يحتاج إلى دراسة لفهم دينامياته الكامنة ، ولهذا فإن الملاحظة عملية تمهيدية ومساعدة للفهم والتفسير .

ب - الطريقة الطولية (التبعية) : Longitudinal

ويقصد بها تتبع سلوك فرد أو عدد محدود من الأفراد فترة طويلة من الزمن في مظهر معين من مظاهر السلوك الاجتماعي ، وهي تعتمد على ملاحظة أنواع التغير الذي يحدث في سلوك طفل أو عدد من الأطفال خلال مدة معينة من الزمن : شهر أو شهرين .. سنة أو بضع سنين .

وقد بدأت هذه الطريقة عندما بدأ العلماء يهتمون بأطفالهم أنفسهم ، ويتتبعون مراحل نموهم في مظهر من مظاهر النمو الاجتماعي والنفسي والحركي والبدني .

ويعتبر جيزل Gesell من أوائل العلماء الذين اتبعوا هذه الطريقة ، حينما تتبع مجموعة من الموهوبين على مدى ثلاثين عاماً منذ طفولتهم الباكرة .

ورغم أن هذه الطريقة تتميز بالدقة والاستمرارية إلا أنه يعيبها كثرة التكاليف ، كما أن استمرار أفراد العينة في الدراسة أمر غير مضمون .

ج - الطريقة المستعرضة Cross - Sectional

ويقصد بها دراسة عينة ممثلة من الأفراد ، في مرحلة عمرية واحدة بهدف تحديد السمات التي تميز هذه المرحلة العمرية عن غيرها من المراحل ، وتوصف هذه الطريقة بأنها مستعرضة ؛ لأنها تنصب على قطاع عرضي من النمو النفسي ، كما توصف بأنها معيارية ؛ لأنها بواسطة هذه الخصائص التي تسفر عن الدراسة يمكن مقارنة أي طفل بمجموعة من الأطفال ، أو يمكن مقارنة مرحلة عمرية بمرحلة عمرية أخرى .. وهكذا .

نموذج للدراسة الطولية

قام الكسندر توماس وستيلا تشيس ، Thomas , Chess بدراسة طولية على أطفال نيويورك من عام ١٩٥٦ - ١٩٨٦ بهدف الإجابة عن تساؤلات أساسية :

لماذا يختلف الأطفال في خصائصهم النفسية ؟ ، ولماذا يعاني بعض الأطفال من اضطرابات مزاجية وانفعالية ، على الرغم من أن آبائهم يتمتعون باستقرار نفسي وانفعالي لا بأس به ؟ ، وأخيراً لماذا لا يستجيب بعض الأطفال لقواعد التغذية والنظام

وتدريبات النظافة ، على الرغم من أن أمهات مثل هؤلاء الأطفال يتسمن بالذكاء والوعى الأمومى ؟.

وقد تم اختيار العينة بدقة كبيرة ، وتتكون من ثلاث مجموعات :

العينة الأولى :

وتمثل العينة الجوهريّة للدراسة (١٩٥٦) ، وتتكون من ١٣٣ طفلاً (٦٦ من الذكور ، ٦٧ من الإناث) ، ٩٩٪ من أفراد العينة من الأطفال البيض .

وينتمى أفراد العينة إلى الطبقة الوسطى والعليا ، ومعظم الآباء من مواليد الولايات المتحدة ، أما المستوى التعليمى فيكشف عن ٤٠٪ من الأمهات ، ٦٠٪ من الآباء من الحاصلين على درجات علمية جامعية وعليا أيضاً ، ١٠٪ فقط من آباء العينة لم ينل تعليماً جامعياً ، ٧٨٪ من آباء العينة من اليهود ، ١٥٪ من البروتستانت ، ٧٪ من الكاثوليك ، ٤٥٪ لهم ابن واحد .

العينة الثانية :

انضمت إلى العينة الجوهريّة عام ١٩٦١ ، وتتكون من ٩٨ طفلاً (٥٠ من الذكور ، ٤٨ من الإناث) ٨٦٪ من أفراد العينة يعيشون فى مستوى اجتماعى واقتصادى منخفض بالنسبة لسكان نيويورك .

واستمرت دراسة هذه المجموعة من ١٩٦١ - ١٩٦٨ .

العينة الثالثة :

تتكون من ٥٢ طفلاً (٣٦ من الذكور ، ١٦ من الإناث وأطفال هذه المجموعة يعانون من تخلف عقلى ضعيف جداً ، يخلو تماماً من أى خلل حركى أو حسى أو نطقى وأيضاً من أى وصمة بدنية Stigmatized مميزة ومعوقة) .

وكان من الواضح ، أن الافتراض النظرى للإجابة عن تساؤلات هذه الدراسة يكمن فى حقيقة الأطفال الذين يتمتعون بسمات شخصية منفردة ومتباينة ، وأن هذا الاختلاف يرجع إلى أمرين :

الأول : إن الاختلاف فى عالم الطفولة يؤدى إلى اختلافات فى ردود الأفعال إزاء مثيرات البيئة ، بمعنى أن أى مثير يحدث فى البيئة ، تكون الاستجابة عليه متباينة بتباين الأطفال ، والنتيجة ردود أفعال متباينة من طفل إلى آخر ، فعلى سبيل المثال قد ينفلج طفل بحدة وعنف إزاء الضوضاء الصاخبة ،

بينما قد ينفع طفل آخر قد ينفع انفعالاً بسيطاً .

الثانى : ويرجع إلى احتمالية حدوث تفاعلات جينية خلال تعاقب نمو الجنين Epi-genetic ؛ الأمر الذى يؤدى إلى تفرد الوجود البشرى (نظرية التخلق المتعاقب) ، التى ترى أن الجنين يتكون من خلال سلسلة من التشكيلات المتعاقبة وهى تناقض نظرية التخلق القبلى التى ترى أن جميع خصائص أعضاء الجنين موجودة فى الجرثومة . ولهذا يستخدم الباحثان (توماس وتيس) مصطلح الجبلة Temperament لوصف نمط سلوك الشخص فى الفعل والاستجابة للمواقف والمثيرات .

وللإجابة عن هذه التساؤلات ، استخدم الباحثان أدوات تتمثل فى المقابلات الشخصية لآباء الأطفال ، والملاحظة المقننة ، ومقياس السمات المزاجية الذى يتكون من تسعة تصنيفات سلوكية .

٢ - المنهج التجريبي

يعتبر المنهج التجريبي من أهم المناهج العلمية المستخدمة فى تحليل وبحث وتفسير الظواهر النفسية - الاجتماعية ؛ بمحاولته الكشف عن الأسباب والعوامل التى تكمن وراء السلوك الاجتماعى ، مما يؤدى إلى معرفة القوانين أو المبادئ التى تحكم هذا السلوك ؛ الأمر الذى يتيح القدرة على التنبؤ به ، وضبطه إلى أقصى درجة ممكنة .

ولئن كان المنهج الكلينى هو المنهج المنوط به دراسة الحالة الفردية دراسة عميقة مطوقة لكافة جنبات المشكلة ، فإن المنهج التجريبي هو أدق المناهج العلمية فى تناول الظواهر النفس - اجتماعية .

وتسير الدراسة وفقاً لهذا المنهج حسب تسلسل متتابع يبدأ من الظاهرة المراد بحثها ، إلى تحديد المشكلة .. إلى الهدف من دراستها ، فغرض الفروض ، التى يستتبعها إجراء التجربة التى تسفر عن نتائج ، يتم تفسيرها كيما نصل إلى القوانين أو المبادئ ، النظرية التى تحكم الظاهرة موضع البحث .

وهذا التسلسل يمثل الخطوات التى ينبغى اتباعها فى دراسة الظواهر النفس - اجتماعية على النحو التالى :

(١) تحديد الظاهرة :

وهنا ينبغى تحديد الظاهرة موضع البحث تحديداً دقيقاً وفصلها عن غيرها من

الظواهر النفسية - الاجتماعية ، وتحديدتها في صورة مشكلة ، تستوجب البحث . ومن أبرز الأمثلة على ذلك ظاهرة اغتراب الشباب أو ظاهرة التسامح الثقافي .

(٢) تحديد المشكلة :

هنا ينبغي تحديد مشكلة البحث التي تحدد بناء على تحديد الظاهرة المراد بحثها ، ومن ثم ينبغي على الباحث ضبط متغيرات المشكلة ضبطاً دقيقاً ، وعزل العوامل التي أدت إلى المشكلة .

ومن الوسائل التي تعين الباحث على تحديد مشكلة البحث ذاتية الباحث نفسه ، فما من حقيقة موضوعية نبلغ إليها إلا عن طريق ذاتيتنا ، فاختيار الباحث لمشكلة لها وجود موضوعي في الواقع الذي يعيش فيه هو اختيار ذاتي يتعمق بخبرته البحثية وبالإطار المرجعي ، أي الأساس النظري الذي ينطلق منه ، وأيضاً من قراءاته حول الظاهرة المراد بحثها ومن فهمه للدراسات السابقة ، التي قد تكون قد أجريت عن بعض جوانب المشكلة المراد بحثها .

(٣) تحديد الهدف :

ومن أهم أهداف البحث العلمي تحديد الهدف فلا يوجد بحث حقيقي بغير هدف من أجله قام الباحث بدراسته ، ويبرز الهدف من البحث يبرز من خلال التفسير ، والتنبؤ والضبط .

أ - التفسير :

حيث ينبغي على الباحث العلمي أن يتخطى مجرد وصف الظاهرة إلى تقديم تفسيرات لها ، باكتشاف العلاقة السببية الكامنة وراء متغيرات الدراسة . وهكذا يكون نتاج عمله هو تفسير الظواهر لا مجرد وصفها أو رصدتها حسبما تتبدى أمامه . والتفسير يتيح له أن يبلغ إلى التعميم ، وعن طريق التعميمات المطردة نصل إلى القوانين أو المبادئ التفسيرية التي تحكم الظاهرة موضوع البحث ، فالعلم في صميمه وجوهه ليس غير عملية تنظير .

ب - التنبؤ :

إن القوانين الفهمية التي نصل إليها هي التي تتيح لنا القدرة على التنبؤ بما هو قادم ، فالباحث لا يقنع بمجرد صياغة تعميمات تفسر الظاهرة ، بل يريد أيضاً أن يتنبأ بالطريقة التي سوف يعمل بها التعميم في المستقبل ، إنه يأخذ المعلومات المعروفة

والتعميمات المعقولة ويعبر عنها ؛ بحيث يستطيع أن يتنبأ بحدث مستقبلي أو ظاهرة لم تلاحظ حتى ذلك الوقت . (زهران ، ٣٨)

ج - الضبط :

والضبط هو التحكم في بعض العوامل الأساسية التي تسبب الظاهرة ، فلكي نفهم العلاقة السببية ، علينا أن نخضع جميع العوامل المهمة لأدق ضبط ممكن ، أو بعبارة أخرى يتحتم أن نخضع هذه العوامل لتجريب الباحث حيث يتخذ من كل عامل منها بعد الآخر ، ويدوره متغيراً مستقلاً .

٤ - فرض الفروض :

ويمكن تحديد القصد من الفرض بوصفه « تكهنًا مؤقتًا » ، وتخمينًا ذكيًا يقف بالباحث على حافة المجهول ويستحثه إلى استجلاء غوامضه ، فعن طريق الفروض يحاول الباحث استكشاف غموض الظاهرة موضع البحث ، وقد تحقق نتائج البحث فروض الدراسة أو قد تنفيها أو تثبتها ، المهم من خلال الفرض أن نستطيع الوصول إلى الحقيقة العلمية .

وغالباً ما تكون الفروض مستمدة من الدراسات السابقة والملاحظات المبدئية التي قام بها الباحث ، وتتضمن تفسيرات مبدئية تحدد العلاقة بين ثلاثة متغيرات .

أ - المتغير المستقل :

وهو المتغير الذي نقيس أثره في بعض متغيرات الظاهرة موضع البحث .. ومن ثم لا يمكن أن يكون هناك أكثر من متغير مستقل واحد في تجربة واحدة ؛ لأن الباحث الذي يريد أن يتبين العوامل المحددة للظاهرة ، إنما يتحتم عليه أن يتبين المتغيرات التي تترتب على عامل عامل ؛ أي كل عامل على حدة .

ب - المتغير التابع :

وهو المتغير الذي يتغير بتغير المتغير المستقل ؛ أي إنه المتغير الذي تنعكس عليه آثار المتغير المستقل .

ج - المتغير الدخيل :

وهو المتغير الذي يحاول الباحث تثبيته ، كما يتخلص من أثره المحتمل على المتغير التابع .

٥ - التجربة :

ومن أجل بلوغ الهدف من الدراسة ، والتحقق من صحة الفروض التي افترضها الباحث ، يقوم الباحث بإجراء التجربة ، محدداً عينة الدراسة Sample والأدوات المستخدمة كالاختبارات Tests مثل الاختبارات الإسقاطية ، كاختبار تفهم الموضوع ، اختبار القلق والذكاء ، الاغتراب وما إلى ذلك من اختبارات تصمم أو تستخدم لقياس الظاهرة المراد بحثها .. أضف إلى ذلك استخدام الباحث لبعض الأساليب الإحصائية التي تتفق وبحثه .

٦ - النتائج :

تأتي مرحلة رصد النتائج عن طريق الدقة في تفسير وتأويل النتائج التي بلغ إليها ، فالأرقام - أى أرقام - ليس لها قيمة بغير تأويل أو تفسير ؛ فالأرقام فى حد ذاتها غفل لا دلالة لها بغير التفسير الذى يضفى القيمة والدلالة على الرقم .

وعن طريق تفسير النتائج قد تصل إلى تعميمات من شأنها البلوغ إلى المبادئ التفسيرية أو القوانين الفهمية ، التى تحكم الظاهرة موضوع البحث ، وهذا القانون ينبغى أن يكون تصورياً ، أى نظرياً يتصف بالكلية أو بالتعميم والضرورة .

وغاية العلم أى علم هو الوصول إلى القانون الذى ترد إليه الكثرة الكثيرة من المتغيرات .. إلى وحدة النموذج أو النمط الكيفى أو العلاقة المثالية أو القانون التفسيري الذى يتيح تفسير التباينات المتماثلة فى الواقع العيانى .

ثالثاً : المنهج الكلينيكى :

المنهج الكلينيكى هو الدراسة العميقة لحالة فردية ، أى دراسة حالة فردية بعينها من حيث هى كل لا يتجزأ فى علاقتها بنفسها وواقعها الاجتماعى وما تنطوى عليه من صراعات ، وما تكابده من معاناة ، وما تعيشه من دفاعات نفسية ، ومشاعر قلق أو إثم أو اكتئاب وما إلى ذلك .

وباختصار الهدف هو دراسة الإنسان الفرد من حيث هو كل لا يتجزأ ؛ أى من حيث هو كل عضوى نفسى اجتماعى .

ويعتبر التشخيص هو هدف المنهج الكلينيكى وصميم جوهره .

ويعرض مخيمر (١٩٧٩) لأهم فنيات التشخيص ، كمايلي :

(أ) معطيات تاريخية : معرفة تاريخ حياة الشخص منذ أشهر الحمل حتى الآن ، فى المقابلة الشخصية الطليقة .

(ب) معطيات حالية : ملاحظة مباشرة أثناء المقابلة للتصرفات مع الأقوال (تبين مالا يقوله الشخص - وما لا يريد أن يقوله ، وما يتردد في قوله) .. كل ذلك بالإضافة إلى مجالات حياته الحالية ضمن ظروف البيئة وذلك من خلال المقابلة الشخصية الطليقة .

(ج) معطيات قياسية : الاستعانة عند اللزوم بالمقاييس المقننة (كإكلينيكية مسلحة) ، هذا إلى الاختبارات الإسقاطية وملاحظة الاختصاصي الاجتماعي أو النفسي للحالة في سياقها الأسرى أو المدرسى .

(د) معطيات تحليلية : تفسير الأحلام ؛ خاصة التي تتكرر أو التي تكون في صورة « كوابيس » ، وتفسير الهفوات والحركات البدنية المرفهة التي تصدر عن الشخص أثناء المقابلة .

لب المنهج الإكلينيكي - إذا - هو تاريخ الحالة والملاحظة المباشرة وثمة مراحل ثلاث للتشخيص ، تتمثل في : تحديد المشكلة في سؤال محدد أى صياغة فروض العمل حتى يمكن تحديد خطة العمل .. نحصل على معطيات نستخلص منها في نهاية كل مسيرة دلالتها ، ثم معطيات أخرى تعدل أو تعمق الدلالة ، وهكذا ذهاب ومجىء متصل ما بين التأويل والوقائع في حركة ، لا ينبغي أن تتوقف من حيث المبدأ وإنما تتوقف لأهداف عملية .

في المرحلة الأولى ننتهي إلى برنامج العمل ، وفي الثانية نبدأ بدراسة الحالة متجهين في كل مسيرة تبعاً لما انتهينا إليه عبر معطيات المرحلة الثانية وهكذا أما المرحلة الثالثة فإقامة التشخيص في مراعاة للمعايير .

ومعايير التشخيص : أهمها معيار التكامل ومعيار التقاء الوقائع ومعيار الاقتصاد، ثم يأتي بعد ذلك معيار الوفرة والدقة ومعيار الخصوبة ومعيار التنبؤ . وهذه المعايير هي :

(أ) معيار التكامل : بمعنى أن تتكامل هذه المعطيات ضمن الوحدة التاريخية والحالية في صورة علاقات صراعية مع البيئة ، وبحيث لا تبقى ثمة واقعة واحدة لا تجد لها مكانها ضمن الكل التفسيري الواحد .

(ب) التقاء الوقائع : بمعنى أن تكون الوقائع من المصادر المختلفة كالأحلام والاختبارات الإسقاطية والقفوات ، ملتقية عند الدلالة نفسها .

(ج) معيار الاقتصاد : بمعنى أن التأويل يكون من المعقولية بقدر ما يرد أكبر عدد من الوقائع إلى أقل عدد من المبادئ التفسيرية .

(د) معيار الشراء والدقة : بقدر ما تكون المعطيات ثرية ودقيقة ، يكون التشخيص أمعن صدقاً .

(هـ) الخصوبة : بمعنى أن ينطوى التشخيص على جديد ، لم يكن فى الوقائع من حيث هى كذلك .

(و) التنبؤ : بمعنى أن يسمح التشخيص بالتنبؤ بما يمكن أن يكون عليه سلوك الشخص فى موقف بعينه .

الفصل الثانى

- * الجماعة ودينامياتها .
- * ديناميات الجماعة .
- * البحث فى ديناميات الجماعة .
- * المدخل السوسيومتري .
- * مراحل البحث السوسيومتري .
- * الاختبارات السوسيومترية .
- * الجماعة العلاجية .
- * تماسك الجماعة .
- * الروح المعنوية .
- * جاذبية الجماعة لأفرادها .

الجماعة ودينامياتها

الفصل الثانى الجماعة ودينامياتها



قديماً قال أرسطو ، وأصاب فيما قال : « إن الإنسان حيوان اجتماعى ، ؛ لأنه كائن منتم ، لا يستطيع أن يحيا بمفرده ، بل يحيا منتماً إلى جماعات متعددة ، تمنحه الشعور بالوجود ، وتفجر إمكاناته ، وتتيح لقدراته ومواهبه أن تتفتح وأن تزدهر . فانتفاء الإنسان إلى جماعات مكون من مكوناته النفسية والاجتماعية ، ومن ثم فالعزلة بالنسبة له تعنى الموت انتحاراً ، أو الالتصاق بالذات والتشرد فى داخلها حيث ظهور الاختلالات النفسية والعقلية .

ويرتبط انتفاء الفرد بجماعة أو بعدد من الجماعات بإحساسه بهويته وبقوته وتماسكه ، فهو ضعيف بنفسه ، قوى بالآخرين ، ولولا الجماعة ما كانت حضارة الإنسان ، فحضارة الإنسان محصلة لاجتماعه وتفاعله وتماسكه وصراعه مع الجماعة . فالطفل حينما يولد يجد المسرح الاجتماعى مهيباً لاستقباله ، ومن ثم ينشأ وينمو عضواً فى جماعة أولية هى الأسرة ، وحينما يتطرد فى النمو ، تتسع دائرة علاقاته الاجتماعية فيصبح عضواً فى جماعات أخرى جانب جماعته الأولية ، وقد ينفصل عن جماعة ، ولكن لينضم إلى جماعة أخرى ، وقد يعيش حياته متعدد الانتماء إلى جماعات متعددة .

وانتماء الفرد إلى جماعة يحقق له إشباعاً لكثير من حاجاته النفسية والاجتماعية ، فالجماعة تنشأ استجابة لحاجات الأفراد ويتوقف بقاؤها على إشباع هذه الحاجات .

ولعل من بين أهم هذه الحاجات الشعور بالأمان والانتماء ، والحب والإحساس بالتفرد والهوية وتحقيق الذات ، الأمر الذى يؤدى إلى تطور شخصية الفرد بتفاعله مع الآخرين فى سياق من عمية التطبيع الاجتماعى . وإذا لم تحقق الجماعة لأفرادها إشباع هذه الحاجات ، انصرف أعضاؤها عنها وتفككت ، ولهذا فإن من أهم العوامل الموحدة للجماعة ، إعطاء القادة للأعضاء أدواراً متميزة ، تحقق للأفراد الشعور بالانتماء والقوة والهوية ، وتتيح للشخصية أن تبرز إمكاناتها وقدراتها .

ولكل جماعة ايدولوجية معينة ، أى لكل جماعة نسق من القيم والأفكار

والتوجهات والمعتقدات التي تحاول الجماعة أن تبلور شخصيات أفرادها ضمن هذه الصيغة المشتركة ، أو الإطار المرجعي العام للجماعة ، وبديهي أن هذه الوحدة الأيديولوجية للجماعة تعظم أهميتها كلما كان الانضمام الى الجماعة عن طوعية واختيار ورغبة .

وإيمان الأفراد بوحدة أيديولوجية الجماعة ، يؤدي الى وحدة السلوك واتساقه مع أفكار ومعتقدات وتوجهات الجماعة ، وهكذا تمضي الجماعة بالأفراد من إشباع الحاجات الى وحدة النمط المميز الى وحدة السلوك واتساقه عن اختيار وطوعية .

وقد تتسع دائرة الجماعة الأيديولوجية لتصبح عقيدة قومية ، تتحول الى حقيقة متعالية فوق الفرد ، متجاوزة لحقوقه الأساسية ، ومن هنا يكون وهم الإحساس بفسوخ الأنظمة الأيديولوجية . وتعاليتها فوق الأفراد وجمودها فكرياً وعقائدياً وتحولها الى دوجما Dogma مناهضة للتطور والتغير ، ومن هنا قد يعصف الزلزال بهذه الأنظمة ويحولها الى أشلاء تمهيداً لإعادة البناء ، مرة أخرى ، ومن جديد ، عبر المكاشفة وحرية الفرد .

ونتساءل ما القصد من الجماعة ؟

الجماعة وحدة اجتماعية ، تتكون من فردين أو عدد من الأفراد بينهم علاقة صريحة على نحو يسمح بأن يدرك الأنا الآخر كعضو في الجماعة ، ولكل فرد من أفراد الجماعة دوره الذي يؤديه ، والذي ينظم له علاقاته مع غيره ، ويشتركون جميعاً في تنظيم معين من المعايير والمعتقدات أو الأفكار ينظم سلوك كل فرد .

وسيان كانت الجماعة أولية أو ثانوية ، صغيرة أم كبيرة ، دينية كانت أم سياسية أو اجتماعية فإن لكل جماعة إطاراً فكرياً أو صيغة مشتركة تنظم تفاعلات الأفراد ، وتساعدهم على أداء أدوارهم وفقاً لها .

وعلى هذا ، فإن دراسة الجماعة ودينامياتها هي نقطة البدء لفهم الإنسان من زوايا اجتماعية نفسية ، فالإنسان كائن عضوي نفسي اجتماعي يعيش ضمن جماعات ، يتفاعل مع أفرادها ويشكل سلوكه واتجاهاته من خلالها ، وأن عملية التطبيع الاجتماعي بكل عواملها يستحيل لها أن تتم بغير جماعة ، ولهذا فإن فهم طبيعة الحياة الاجتماعية لا يكون إلا من خلال فهم الجماعة ودينامياتها ؛ أي فهم طبيعة القوى النفسية والعوامل الاجتماعية التي تكمن وراء الجماعة .

ولهذه الاسباب ولغيرها ، راح علماء النفس الاجتماعيون يحاولون فهم الجماعة

من حيث تكوينها ، ومن حيث ما يرتبط بتطورها وفاعليتها من عوامل ، وما يرتبط بتدهورها وتفككها من عوامل ، وكيف تؤثر الجماعة فى إدراك الفرد وفى تفكيره وفى سلوكه ؟ وما الذى يؤدى إلى قوة الجماعة وإلى تماسكها ؟ وكيف تؤثر البيئة الاجتماعية على تشكيل الجماعة وتدوينها ؟

وهل الجماعة هى مجموع أفرادها ، أم أنها محصلة ختامية لتفاعلات أفرادها وانتظامهم فى كل دينامى ؟

وتحدد هذه الأسئلة مع غيرها من الأسئلة ، التى لم تطرح ، ما يمكن أن يطلق عليه اسم ديناميات الجماعة .

ديناميات الجماعة Group Dynamics

صيغة اقترحها ليفين Lvin لفهم عناصر القوى الداخلية والخارجية التى تتحكم فى الجماعة .

وبحسب رأى ليفين .. فإن الجماعة كل دينامى ، وهذا الكل الدينامى لا يساوى مجموع أجزائه أو أعضائه ، بل هو محصلة لصراع القوى المتمثلة فى هذه الأجزاء ، ومن ثم فالجماعة أكبر ككيان وتنظيم واتجاه من مجموع أفرادها .

وثمة تغيرات داخلية وأخرى خارجية ، تحدث داخل الجماعة لتؤكد دينامياتها .

وتتضح التغيرات الداخلية أثناء نشأة الجماعة وخلال مرحلة إعادة تشكيلها ، وتتلور هذه التغيرات فى عدم اتزان داخلى ينتج من الصراع بين الأفراد أو بين الجماعات ، فقد يظهر عدم الاتزان فى صورة صراع بين القادة والأفراد ، أو صراع على الاختصاصات ، وقد يأخذ شكل الاختلاف فى أحكام الأفراد تجاه أيديولوجية الجماعة وأهدافها ووسائلها فى تحقيق هذه الأهداف ، أو أثر ظهور أهداف وحاجات جديدة .

أما سبل الجماعة فى إزالة التوتر وفض الصراع ، فقد تنحصر - مثلاً - فى استبعاد العناصر المشاغبة ، أو استبدال القائد ، أو تعديل أيديولوجية الجماعة ، أو اتخاذ الجماعة لكبش فداء وتحميله مسئولية الفشل وما إلى ذلك من وسائل .

وقد تظهر التغيرات الخارجية فى تغير البيئة أو الأفراد أو التغير الشخصى للأفراد .

أما عن التغيرات البيئية فقد تكون تغيرات اقتصادية ، كما كشفت الدراسة التى

قام بها لازار سفيلاز Lazarsfield على المتعطلين وتكشف الانكماش ، ومن المؤثرات البيئية التهديدات الخارجية التى قد تزيد من صلابة الجماعة .

وثمة ملاحظة : إن من خصائص الجماعة المصرية توحيد الجماهير مع زعمائها فى أوقات الدراما التاريخية . كذلك من ضمن التغيرات الخارجية ما يلحق بالأفراد من تغيرات خارجية ، كما هو الشأن فى حالات الوفاة أو الولادة .

وقد طبق ليفين وتلاميذه هذه الصيغة فى مجالات متعددة كالصناعة ، وفى مكافحة التعصب والتحيز الثقافى وفى تدريب القادة .

ويذكر كارترتريت وزاندر (١٩٦٠) ثلاثة استعمالات مختلفة لدينامية الجماعة تشيع بين الناس .. فهناك من يستخدم دينامية الجماعة للدلالة على أيديولوجية أهمية القيادة الديمقراطية ، واشتراك الجميع فى عمل القرارات ، ومدى الفائدة التى يجنيها كل من المجتمع والأفراد نتيجة لمشاركة الجميع فى أوجه النشاط التى تقوم بها الجماعة . ويأخذ البعض على هذه الأيديولوجية مبالغتها فى إعطاء المشاركة مثل هذه القيمة ، ومناداتها بأن الجماعة لا تحتاج إلى من يقودها ويتولى زمام الأمور فيها ، مادام أن الجميع يشتركون على قدم المساواة فى كل ما تقوم به الجماعة من أوجه نشاط .

أما الاستخدام الثانى الذى شاع عن دينامية الجماعة ، فمن اعتبارها مجموعة من الأساليب التى تستخدم فى البرامج التدريبية بقصد تحسين المهارة فى إدارة الجماعات والمؤتمرات والعلاقات الإنسانية ، مثل : لعب الأدوار ، والجلسات الحرة ، والملاحظة والتقييم (التغذية الرجعية) فى عمليات الجماعة ، واتخاذ القرارات وغير ذلك من أساليب .

أما الاستخدام الثالث فينظر إلى الجماعة على أنها مجال من مجالات الدراسة ، يهدف تحصيل المعلومات عن طبيعة الجماعة والوصول إلى القوانين التى يخضع لها نمو الجماعة ، وعلاقة الجماعة بالأفراد والجماعات الأخرى وبالمؤسسات الاجتماعية المختلفة .

ويلخص الباحثان أساليب البحث فى ديناميات الجماعة فى أربعة أساليب :

أولاً : الدراسة المجالية :

ويتضمن هذا النوع من الدراسات تعريض جماعة ما - مجال الدراسة - للدراسة ، دون أن يؤدى هذا إلى أى تأثير فى حياة الجماعة ونشاطها ، ويتخذ الباحث

فى هذه الدراسة جميع الاحتياطات الممكنة ؛ بحيث لا يؤدى وجوده أو ما يقوم به من عمل الى تدخل أو أثر فى حياة الجماعة .

ومن مآخذ هذه الطريقة صعوبة تحديد اتجاه السببية ؛ حيث إن ما نحصل عليه من نتائج فى صورة معاملات ارتباط لا يمكننا من تحديد أى العوامل كان سبباً وأياًها كان نتيجة .

ثانياً : التجريب الطبيعى :

وتعتبر هذه الطريقة من الطرق التى حاول استخدامها علماء النفس ؛ للتغلب على صعوبة تحديد اتجاه السببية .

وتوفر هذه الطريقة دراسة الآثار المترتبة على ما تحدثه من تغييرات فى عوامل محددة ، وبهذه الطريقة نستطيع إلى حد ما تحديد اتجاه السببية .

والباحث فى هذه الطريقة لا يقوم بإدخال أى تغيير أو تعديل فى العوامل - أحدها أو بعضها - حتى يقوم بدراسة الآثار المترتبة على هذا التعديل ، وإنما هو يستغل ما يحدثه من تعديلات فى حياة الجماعة ليدرس ما ترتب عليها من آثار .

ومن أهم المآخذ على هذه الطريقة ، أن التغيير الذى يحدث بصورة طبيعية لا يمكن الباحث من فرض سيطرته على العوامل التى يرغب فى ضبطها وتثبيتها . وتتضح هذه الصعوبة إذا أخذنا فى الاعتبار أى تغير يحدث فى الجماعة بصورة طبيعية ، غالباً ما يكون نتيجة لعدد آخر من عوامل ترتبط بتكون الجماعة ونشاطها .

ثالثاً : التجريب المجالى :

حاول الباحثون التغلب على بعض الصعوبات التى تواجه الطريقة السابقة ، خاصة تلك التى تفرض على الباحث أن ينتظر حدوث تغير بصورة طبيعية ، وفى ذات الوقت يكون مجهزاً ومعداً بالبيانات التى تلزمه قبل وبعد حدوث التغير ، وذلك وضع من الصعب تحقيقه ، وكان التجريب المجالى نتيجة هذه المحاولة .

يقوم الباحث فى هذه الطريقة بإحداث التغيير الذى يهدف إلى دراسة آثاره ، بالصورة المناسبة التى يسمح له بإجراء مقارناته ، وضبط سيطرته على العوامل التى يرغب فى ضبطها أو السيطرة عليها .

ويعتبر تعاون أفراد الجماعة التى يعمل معها الباحث من أهم مستلزمات نجاح هذه الطريقة ، إذ دون هذا التعاون لا يصل الباحث إلى ما يحتاج إليه من بيانات .

وأهم ما يوجه إلى هذه الطريقة من مآخذ أن عملية ضبط المتغيرات التى يود الباحث تثبيتها أو معادلة آثارها ، عملية عسيرة بعض الشيء فى المواقف الطبيعية .

رابعاً : التجريب المعملى :

وتستهدف هذه الطريقة زيادة قدرة الباحث على ضبط المتغيرات المختلفة التى تؤثر فى الظاهرة موضع الدراسة والسيطرة عليها ، بما يمكن الباحث من تغيير ما يود تغييره ، وتثبيتته بدرجة أفضل من الطرق السابقة .

ويقوم الباحث فى هذه الطريقة باستخدام الجماعات الطبيعية ، بعد نقلها إلى معمله .

وهنا لا نستطيع أن نفاضل بين الطرق السابقة التى سردناها .. فليست هناك طريقة جيدة وأخرى سيئة طالما التزم الباحث بالدقة فى جمع البيانات ، وطالما التزم بالقواعد الأساسية للطريقة العلمية فى البحث ، والذى نستطيع قوله أن اختيار الطريقة العلمية التى تستخدم فى البحث يتوقف إلى حد كبير على طبيعة المشكلة موضع البحث وأن أفضل طريقة للبحث هى أنسبها لدراسة المشكلة موضع البحث .

المدخل السوسيومتري Sociometry

منهج فى البحث وطريقة فى التحليل والعلاج وأداة لجمع المعلومات والبيانات ابتدعها مورينو Moreno بقصد الكشف عن شبكة العلاقات بين الأفراد من حيث التجاذب أو التنافر ، القبول أو التعارض . وأيضاً من حيث بناء الجماعات سواء كانت جماعات مدرسية أو جماعات عمالية ، أو عسكرية أو علاجية ويستخدم مورينو عدداً من الأدوات لتحقيق الهدف من السوسيومتري ، من أهمها : الاختبارات السوسيومتري ، والأساليب السيكدرامية بغير إغفال منه لطرق الملاحظة الخارجية والملاحظة المشاركة ، وفى الملاحظة الخارجية يمكن دراسة التجمعات القلقائية ، مثل دراسة تجمعات الأطفال حيث انجذاب بعضهم إلى طفل معين أو نفور البعض من آخر ، أو التجمع فى مجموعة صغيرة أو كبيرة وهكذا ، أما الملاحظة بالمشاركة فيقوم الملاحظ بالاشتراك الفعلى مع الجماعة فى أنشطتها والعمل معها ؛ الأمر الذى يتيح له الحصول على معلومات أدق وأكثر عمقاً .

مراحل البحث السوسيومتري :

تتم الدراسة السوسيومتري من خلال خمس مراحل تبدأ من الطبقات السطحية ثم تتعمق تدريجياً إلى الطبقات الداخلية ، وتطبق فى كل مرحلة اختبارات معينة

لقياسها . وهذه الاختبارات هى : اختبار المعارف لتحديد الامتداد الاجتماعى للفرد ، الاختبارات السوسيومترية لتحديد اختبارات الفرد ، واختبارات التلقائية لدراسة التفاعلات الانفعالية بين أعضاء الجماعة ، واختبارات المواقف وهى تقوم على تحليل المادة التى تجمع فى اختبارات التلقائية فى مواقف معينة ، ثم اختبارات تمثل الأدوار ، وهى دراسة لمدى الأدوار وبنائها .

أولاً : الاختبار السوسيومترى :

يعرف مورينو الاختبار السوسيومترى ؛ بوصفه « أداة » تستخدم فى قياس مدى التنظيم الذى يظهر فى الجماعات ، وهو يتألف من سؤال الفرد صراحة أن يختار فى نطاق الجماعة التى ينتسب إليها أو التى يمكن أن ينتسب إليها الأفراد الذين يود أن يجعل منهم رفاقاً ، ويطلب من الفرد التعبير عن اختياراته بغير تحفظ ، سواء كان - أو لم يكن - الأفراد الذين يختارهم ضمن جماعته الحالية . والاختبار السوسيومترى أداء لدراسة الأبنية الاجتماعية على ضوء ضروب التجاذب والتنافر التى ظهرت داخل جماعة ما ، وفى مجال العلاقات القائمة بين الأفراد ، نستخدم ألفاظاً مثل الاختيار أو « الرفض » بمعنى أضيق . وألفاظ التجاذب والتنافر أكثر اتساعاً وهى لا تطبق على الجماعات الإنسانية فحسب ، وإنما تدل على وجود صور اجتماعية مماثلة خارج الجماعات الإنسانية بالمعنى الدقيق للكلمة .

ومن هذا التعريف تتضح عدة شروط لإجراء الاختبار السوسيومترى ، لعل من أهمها :

- ١ - توضيح حدود الجماعة موضوع الاختبار .
- ٢ - السماح للأشخاص باختيار أو رفض عدد غير محدد من الأشخاص .
- ٣ - تحديد محك الاختيار أو الرفض أى تحديد النشاط الذى يريد الشخص أن يشارك فيه ، أو النشاط الذى لا يريد أن يشارك فيه ، على شريطة أن يكون هذا النشاط له معنى ودلالة .

٤ - استخدام نتائج الاختبار لإعادة بناء الجماعة .

٥ - أن يتم إجراء الاختبار فى جو من السرية .

٦ - أن تناسب أسئلة الاختبار مستوى أعضاء الجماعة .

بعد أن يتم الاختبار السوسيومترى ، يجرى على أفراد الجماعة عدد آخر من الاختبارات التى صاغها « مورينو » ، وهى على النحو التالى :

- ١ - اختبار المعارف .
- ٢ - اختبار التلقائية .
- ٣ - اختبار المواقف .
- ٤ - اختبار تمثيل الأدوار .

ثانياً : اختبارات « المعارف » :

وتقيس هذه الاختبارات حجم الامتداد ، الجماعى ، للفرد ، مدى اتصالاته الاجتماعية . والمعارف فى أوسع معانى الكلمة هم كل الناس الذين يعرفهم الفرد وجهاً لوجه ، أو هم الناس الذين يعرفهم معرفة غير مباشرة عن طريق فرد آخر أو عن طريق المراسلة .

ويسبق اختبارات المعارف الاختبارات السوسيومترية ، وقد وجد مورينو أن عدد ، المعارف ، أكبر بكثير من ، الذرة الاجتماعية ، وأن العدد يختلف من فرد لآخر ، ومن وقت لآخر . وعن طريق الاختبارات السوسيومترية يمكن تحديد الحدود الخارجية لذرة اجتماعية معينة .

ونسأل : وما الذرة الاجتماعية ؟ يجيب مورينو : إنها أصغر وحدة اجتماعية غير قابلة للتجزئ . وتتألف الذرة الاجتماعية من العلاقات النفسية القائمة بين فرد وأفراد آخرين ينجذب إليهم أو ينفرد منهم .. ومن علاقاته بهم بالنسبة لمعيار معين .. وشكل الذرة الاجتماعية - كما هو الحال فى الذرة الطبيعية - غير واضح بالعين المجردة ، إنما ينبغى اكتشافه . ويهين لنا الاختبار السوسيومترى وسائل هذا الاكتشاف .

٣ - اختبارات التلقائية :

والغرض منه : هو دراسة التفاعلات الاجتماعية بين أفراد الجماعة . ويحاول مورينو فى تعليماته التى يوجهها للأفراد أن يضع كل فرد فى حالة من الانفعال نحو كل شخص ارتبط به فى الاختبار السوسيومترى (سواء كان ذلك اختياراً أو نبذاً) . ثم يطلب من هذا الأخير أن يختار حالة انفعالية نحو الفرد المقابل ، وقد تكون الحالة نفسها أو غيرها ، وهو لا يسمح لشخصين بالتشاور قبل بدء الاختبار .

اختبارات المواقف :

ولئن كانت اختبارات التلقائية تكشف عن انفعالات الشخص ، وعلى نحو تلقائى .. فإن اختبارات المواقف تكشف عن ، المصفوفة الموقفية ، للجماعة وهى تحليل المادة التى تجمع فى اختبارات التلقائية من زاوية علاقات المكان والزمان والحركة والأفعال والتوقعات وحجم الكلمات والتعبيرات والمبادأة بالموقف وتغييره

وانتهائه ، وفي هذه الاختبارات يعطى الشخص فرصة للسلوك فى مواقف مختلفة من الحياة : فى موقف المنزل بما فيه من صراع بين الوالدين انتهى بالانفصال ، وفى موقف العمل حيث أدى التأخير عن الحضور فى الميعاد المحدد إلى الفصل عن العمل وفى موقف الحب وهكذا .

اختبارات تمثيل الأدوار :

وفى هذه الاختبارات يحدد اللعب فى الموقف بجانب معين منه فمثلاً يعطى الشخص فرصة لعب أدوار مختلفة خاصة أو اجتماعية مثل دور الابن أو الوالد أو الحبيب أو الخادم أو القاضى أو رجل الشرطة .

وتسمى هذه الاختبارات أحياناً ، اختبارات الدور ، وهى تكشف عن ، مصفوفة الدور ، للجماعة . وتهتم أساساً بمدى الأدوار وبنائها ، فقد تكشف الدراسة عن أن شخصاً معيناً له ثلاثة أدوار بارزة فى حياته السرية : دور المحب ، دور اللص ، دور الثائر .

وهكذا يتضح لنا أن المدخل السوسيومتري Sociometric الذى ابتدعه «مورينو» لفهم الجماعة عن طريق قياس مدى التجاذب والتنافر أو الإقبال والإعراض ، ينبغى أن يفهم على أنه دراسة للجماعة النفسية التى تتوافر بين أفرادها المعرفة الشخصية والتأثير المتبادل ، وأن خير طريقة لدراسة الجماعة هى أن ندرس التجمعات التلقائية فى تناغمها أو تصارعها .

وتنحصر الطريقة فى أن يطلب من كل شخص تحديد ميله نحو أى فرد آخر من الجماعة يريد العمل معه أو الإقامة أو التنزه معه . والمدة التى يفضلها لإقامة . مثل هذه العلاقة ، وقد يطلب من الفرد تحديد اتجاهات السلبية من بعض الأفراد الذين يكره التعامل معهم ، وكل ذلك يتم فى جو من السرية ، وبذلك نستطيع إقامة سوسيوجرام Sociogram .

ويفترض مورينو أن الفرد يكون حراً مبدعاً إذا ما وجد المركز الملائم له . وتقرر جنجز Jennings : إن الفرد يشعر بأمن أعظم إذا ما وجد ضمن أفراد يستجيبون له ويستجيب لهم ويرغب فى صحبتهم ، وكلما زاد إحساسه بالأمن ازداد شعوره بالحرية وازدادت فاعليته داخل الجماعة .

الجماعة العلاجية :

فى بحثه عن ، الجماعة العلاجية ، بين « سامى محمود على » ، أن ثمة اتجاهين أساسيين فى تناول الجماعة العلاجية ، هما :

الاتجاه الأول : يقوم على تصور أن الجماعة لا تنفرد بخصائص متميزة عن خصائص أفرادها، وأن الظواهر الجماعية هي مجموع الظواهر الفردية بحيث تفهم ما يحدث في الجماعة بإرجاعه إلى مستوى السلوك الفردي . والنظر إلى الجماعة على هذا النحو يستتبع تطبيق مفاهيم علم النفس الفردي ومبادئه على الجماعة تطبيقاً مباشراً دون حاجة إلى وضع مفاهيم ومبادئ جديدة خاصة بالجماعة ، ويستتبع ذلك أيضاً في مجال العلاج النفسي للجماعات تطبيق مفاهيم نظرية التحليل النفسي ، دون تعديل جوهري يجعلها أكثر مطابقة لمستوى الجماعة ؛ بحيث يصبح العلاج النفسي ضرباً من التحليل النفسي التطبيقي .

ولعل من أهم أنصار هذا الاتجاه « سلافسون ، Slavson الذي يرى أن الفرد هو الموضوع الأول للعلاج النفسي في الجماعة ، ومن ثم جاءت صياغته للعمليات الدينامية التي تجرى في الجماعة قاصرة على إبراز الجوانب الفردية المميزة لتفاعل أعضاء الجماعة ، وهذه العمليات الدينامية هي :

- | | | | |
|-------------------|-----------------|-----------------|-------------------|
| ١ - الطرح | Transference | ٢ - التنفيس | Catharsis |
| ٣ - الاستبصار | Insight | ٤ - تقوية الأنا | Ego Strengthening |
| ٥ - اختبار الواقع | Reality Testing | ٦ - الإعلاء | Sublimation |
- وكلها مفاهيم مستمدة أصلاً من التحليل الفردي .

ويلاحظ « سلافسون ، بهذا الصدد أن ظاهرة الطرح كما تشاهد في نطاق الجماعة تتخذ صوراً متنوعة ، هي : طرح العواطف التي موضوعها الإخوة والأخوات Sibling Transference ، وطرح طاقات الحب وشحناته الغريزية ، والطرح القائم على التوحد Identification

وينتج عن هذا التوسع في تطبيق مفهوم الطرح طمس معالمه وفقدانه مضمونه الدقيق الذي تحدده نظرية التحليل النفسي .

الاتجاه الثاني : فيقوم على تصور أن الجماعة « كل دينامي ، حسبما يرى ليفين ، دون إغفال لما طرحه مورينو من تنظير خاص بدراسة ديناميات الجماعة من حيث التجاذب والتنافر ، مع تأكيد أن دراسة الجماعة ككل دينامي لا يغفل في الآن نفسه خصائص أفرادها النفسية على النحو الذي افترضه فرويد .

ويعبر ليفين عن تصوره الدينامي للجماعة بقوله « ليس جوهر الجماعة في تشابه الأعضاء أو عدم تشابههم ؛ بل هو في اعتماد بعضهم على البعض الآخر . ومن

الممكن وصف الجماعة بأنها كل دينامى بمعنى أن أى تغير فى حالة جزء منه يغير حالة أى جزء آخر . وتتراوح درجة الاعتماد المتبادل بين الأجزاء التى يؤلفها أعضاء الجماعة بين الجمهرة المفككة والوحدة المتماسكة .

ويؤكد ، مورينو ، أن منهجه السوسيومتري لا يقوم بدراسة الفرد بمعزل عن غيره ، ولا الجماعة مستقلة عن أعضائها ، وإنما يدرس منهجه العلاقات المختلفة القائمة بين الأفراد والأنماط البنائية المميزة لهذه العلاقات .. يقول مورينو : « إن ثمة مجالاً للنشاط غير محصور فى حدود الكائن العضوى ، بل يمتد بين الكائنات العضوية المختلفة ، فقد تبين أن بين الأفراد أنماطاً مميزة للعلاقات المتبادلة ، وأن ثمة مبادئ ثابتة تسمح بانتقالهم من مرحلة إلى أخرى أو من مكان إلى آخر ، وتكتسب هذه الأنماط صوراً منتظمة وتؤثر فى الجماعات القريبة أو البعيدة تأثيراً متصلاً بحيث تبدو الدوافع الاجتماعية ، وكأنها تخلق صورها الخاصة بها لا من داخل الكليات العضوية الفردية فحسب ، بل وبين الأفراد كذلك . ومن الممكن أن نعثر على آثار هذه العملية كلما أخضعنا الجماعات للتحليل ، .

وعلى هذا ينبغى أن يقوم العلاج النفسى على هذا التصور الدينامى ، الذى أصبح الأساس فى معظم العلاجات النفسية .

تماسك الجماعة :

يمكن تحديد القصد من تماسك الجماعة فى ضوء تصورين أساسيين :

١ - الروح المعنوية .

٢ - جاذبية الجماعة لأفرادها .

أولاً : الروح المعنوية وتماسك الجماعة :

الروح المعنوية تصور متعدد التعريفات ، مختلف من حيث زاوية الرؤية . ولعل من أهم تعريفات الروح المعنوية من حيث مدى تأثيرها على استمرارية الجماعة وتماسكها ، ما أكدته موكور Moucorps فى كتابه «سيكولوجية الحركات الاجتماعية» «إن الروح المعنوية إرادة يدعمها العقل لبلوغ هدف مشترك» .

وهذا التعريف يستمد مقوماته من كتابات الفيلسوف الألمانى شوبنهاور الذى اعتبر الإرادة جوهر الوجود ، أو كما يقول ، اندفاع أعمى إلى الحياة ، . ويؤكد شلنج على أنها أصل الوجود - ويعتبرها نيتشه أصل الحياة ، فليس الوجود إلا ، الحياة ، ! وليست الحياة إلا ، إرادة ، وليست هذه الإرادة إلا ، إرادة القوة ، .

بيد أن موکور يدعم القصد من الإرادة فى حركتها بتدعيم عقلى ، فالعقل يكمن وراء الإرادة .

ويبرز هاريمان Harriman الجانب الانفعالى فى تعريف الروح المعنوية فيقول إنها شعور انفعالى حماسى تجاه ما تقدم عليه الجماعة من أعمال .

بيد أن الانفعال وحده لا ينهض دليلاً على تماسك الجماعة وإعلاء روحها المعنوية ، فالانفعال موقت أهوج لا يبلغ بالجماعة إلى تحقيق أهدافها .

ويقدم وارن Warren فى معجمه تعريفاً للروح المعنوية يجمع بين الجانب الوجدانى والجانب القيمى فى اتجاه الجماعة . فيخبرنا بأن ، الروح المعنوية اتجاه قوامه الثقة والمثابرة فى العمل والتمسك ، بمثل الجماعة ، .

الاتجاه إذاً : مفهوم تصورى نستدل عليه من سلوك الأفراد الذى قد يتسم بالثقة والمثابرة والتمسك بقيم الجماعة أو يتم بعكس هذه الخصائص .

ويشير ، كريش وكرتشفيلد ، إلى أن المظاهر أو الأعراض التى تتجسد فى الواقع هى التى تكشف عن ارتفاع الروح المعنوية وانخفاضها ، وأن ثمة عوامل هى التى قد تؤدى إلى ارتفاع الروح المعنوية وانخفاضها وهذه العوامل قد تكون داخلية ، أو قد تكون خارجية ، ومن أهم العوامل التى تؤدى إلى ارتفاع الروح المعنوية وتماسك الجماعة .

- موقف الأفراد من الجماعة ورغبتهم فى استمراريتها .
- النظر إلى الجماعة كقيمة إيجابية .
- توحيد الفرد مع الجماعة ، وربط حاجاته وأهدافه بحاجات وأهداف الجماعة .
- إشباع الجماعة لحاجات الأفراد الثانوية وإعطاؤهم فرصة متكافئة للتعبير عن أنفسهم داخل الجماعة .
- وعلى الضد من ذلك ، يكون انخفاض الروح المعنوية راجعاً إلى غيبة الهدف المشترك أو الصبغة الموحدة للجماعة التى تستوعب آمال وتطلعات وأهداف أفراد الجماعة .
- عدم إشباع الجماعة لحاجات الأفراد وعدم توحيد أفرادها مع أهدافها ، وظهور ، الأناملية ، بين صفوفها .

وثمة عوامل مضللة فى الحكم على الروح المعنوية للجماعة ، منها :

١ - النظام :

فالنظام غالباً ما ينظر إليه كدليل على ارتفاع الروح المعنوية ، ومع ذلك فقد يكون فى كثير من الحالات نتاجاً لضغط خارجى .

٢ - إنتاج الجماعة :

فإنتاج الجماعة قد يكون أيضاً من العلامات المضللة .

٣ - قيام التوتر بين الأشخاص :

لا يدل بالضرورة على ضعف الروح المعنوية ، وإن دل على انخفاضها حين نشأ بين الأفراد والقادة . وحين ينصب على الحاجات والأهداف ، فإن هذا التوتر كثيراً ما يشير إلى الغضب والازدهار حين يتخذ صورة النقد البناء ، وحين ينصب على الوسائل المؤدية إلى الهدف .

وثمة دراسة قام بها ، ليفين ، و ، هوايت ، تبين أثر الجو الاجتماعى على السلوك العدوانى للأفراد ، وقد كشفت نتائج الدراسة عن نزعة عدوانية معتدلة فى الجماعة الديمقراطية ، وتعظم هذه النزعة فى الجماعة الفوضوية بينما تتضاءل فى الجماعات الأتوقراطية .

ومعنى هذا أن ندرة السلوك العدائى ، وما يلحق به من أعراض صريحة للتوتر فى الجماعة الأتوقراطية لا يعبر بحال عن ارتفاع الروح المعنوية فى هذه الجماعة ، وإنما يعبر فحسب عما هم عليه من خضوع واستسلام .

وعلى الرغم من أن النظام وكثافة الإنتاج قد يعبران عن انخفاض الروح المعنوية .. إلا أنهما يعتبران المحكان الرئيسيان لإعلاء الروح المعنوية .

وهناك عدد من العوامل المحددة للروح المعنوية :

١ - وجود دافع إيجابى للروح المعنوية :

فكل سلوك يكمن وراءه دافع ، ووحدة الجماعة وتماسكها لا تكون بغير دوافع للأفراد ايجابية تجعل من وحدة الجماعة واستمرارها هدفاً لأفرادها .

٢ - إشباع الجماعة للحاجات الثانوية بالنسبة للأفراد .

بمعنى أن تتيح الجماعة للفرد أن يعبر عن تلقائيته وعن قدراته ومواهبه .

٣ - ازدهار الجماعة وتقدمها يرفع من روحها المعنوية :

فتجاح الجماعة فى تحقيق أهدافها وتماسكها هو الذى يعلى من قيمتها ، وكلما

كان الأفراد على علم بالخطوات التي تحققها الجماعة ، ازداد عطاؤهم وتكثفت جهودهم .

٤ - تحقيق المساواة :

بين أفراد الجماعة وإتاحة الفرص المتكافئة دون هوى شخصي بين أفرادها يحقق علو الروح المعنوية .

٥ - وضوح الأهداف وتميزها :

وقدرتها على التعبير عن حاجات الأفراد ودوافعهم يحقق معنى الانتماء والتوحد بين الفرد والجماعة أمام التهديدات الداخلية وأيضاً الخارجية .

ثانياً : جاذبية الجماعة لأفرادها :

لئن كانت الروح المعنوية تعبر عن تماسك الجماعة .. فإن قوة جذب الجماعة لأفرادها يتخذ كدليل على استمرارية الجماعة وتماسكها ، ولهذا يعرف فستنجر وباك تماسك الجماعة Group Cohesiveness بأنه ، متوسط القوى الناتجة والمؤثرة في توجيه أفراد الجماعة ، ؛ أي إن تماسك الجماعة يستدل عليه بدرجة انجذاب الأعضاء للجماعة . والأفراد لا ينجذبون إلا لجماعة تمثل لهم مصدراً لإشباع حاجاتهم . ولهذا يحدد كارتررايت وزاندر Cartwright and Zander عدداً من العوامل نستدل من خلالها على تماسك الجماعة :

١ - اختيار أعضاء الجماعة لبعضهم في مواقف العمل ، ومواقف الحياة خارج

العمل مثل مواقف الجيرة والنزرة والصداقة .

٢ - وقوف أعضاء الجماعة بجانب بعضهم في المواقف العصبية .

٣ - تحمل الفرد لمسئوليته تجاه الجماعة .

٤ - تمثل أعضاء الجماعة لقيمها وأهدافها .

٥ - توزيع الأدوار بين أفراد الجماعة على نحو لا يؤدي إلى صراع الأدوار .

ومما سبق يتضح أن كارتررايت وزاندر ركزا فقط على بعض المظاهر التي تعبر عن تماسك الجماعة ، وغفلاً عن الجوانب النفسية والاجتماعية التي تؤدي إلى انجذاب الفرد لجماعة دون أخرى ، ولعل من أهم هذه العوامل :

١ - تأكد الإحساس بالهوية لدى الفرد : فكثير من الجماعات ولاسيما الدينية

والسياسية تمنح أفرادها هذا الإحساس بالهوية ، وبأنه فعال وإيجابي في

قراراتها وفي مصيرها .

٢ - المشاركة فى صنع حلم اجتماعى يكون بمثابة أرضية مشتركة يتحرك فوقها وفى اتجاهها أفراد الجماعة .

٣ - أن تمثل الجماعة بالنسبة للفرد استجابة لدوافعه وتطلعاته المستقبلية .

٤ - أن يشعر أفراد الجماعة بالتوحد مع قيم الجماعة ، فبغير توحد لا تحقق الجماعة أهدافها ، ولا يحقق الفرد ما يصبو إليه من آمال .

وقد عبر عن ذلك سيدلنجر فى كتابه « التحليل النفسى والسلوك الجماعى » بقوله : « إن شبكة العلاقات المتبادلة بين أفراد الجماعة تتميز بتفاعل القوى الموجهة ، التى تدعم تماسك الجماعة والقوى التى تعمل على إضعاف هذا التماسك ، وتتكون العلاقات الموجبة من التوحد بأنواعه ، كالتوحد بشخص أو جماعة هى محل إعجاب الفرد أو التوحد بالنزد أو جماعة الأنداد ، الذين يطمح الفرد فى أن يحل محلهم ، أو التوحد بالفرد أو الجماعة على أساس وجود صفة أو اهتمام واحد ، وأخيراً التوحد بالفرد أو بجماعة من الناس لهم الحاجات الأساسية نفسها . وهناك أنواع من التوحد الثانوى كالتوحد بالمعتدى ، وهو وسيلة للتغلب على الخوف . أما العلاقات أو القوى السالبة التى تعمل على إضعاف تماسك الجماعة .. فتؤدى إلى تفككها ، فهى المبالغة فى الأنانية والتنافس والإفراط فى الحرمان الناتج من قسوة القائد ، (ص ١٣١) .

ومما سبق يتضح أن هناك عدداً من العوامل التى تؤدى إلى تماسك الجماعة ، وأن هذه العوامل لا توجد إلا حيث توجد الجماعة نفسها . وأن فهم هذه العوامل يعنى فهم العوامل التى تؤدى إلى استمرارية الجماعة ، سواء كانت الجماعة علاجية أو تربوية أو علمية أو سياسية .

ويدهى أن تكون عوامل عدم تماسك الجماعة على الضد من عوامل الجذب إلى الجماعة ، ونلخص بعضها فيما يلى :

- عدم إحساس الفرد بهويته وبأنه فعال وإيجابى داخل الجماعة .
- افتقار الجماعة إلى صيغة مشتركة أو إطار محدد أو حلم اجتماعى ، يستوعب آمال وأحلام وتطلعات الأفراد ، ويتيح للجميع حق المشاركة على قدر من المساواة .
- عجز الفرد داخل الجماعة عن التعبير عن تلقائياته وإمكاناته وقدراته .
- تناقص إشباع الحاجات النفسية والاجتماعية داخل الجماعة .

- تراكم خبرات كدرة لدى الأفراد داخل الجماعة وتناقض الخبرات السارة .
- هيمنة الروح التسلطية على قادة الجماعة .
- تناقض معايير الجماعة مع معايير الفرد وما يؤمن به ويعتقد .
- شيوع السلوك ، الأنامالى ، على حساب السلوك الانتمائى الإنشائى ، وحينما تسود ، الأنامالية ، ينصرف كل فرد إلى تحقيق ما يصبو إليه من نفع ، غير مبال بما يصيب الغير من ضرر .
- غيبة التواصل الحقيقى بين الأفراد لأسباب داخلية أو أسباب خارجية . وقد تتحدد الأسباب الداخلية فى اختلاف المكونات النفسية لأفراد الجماعة، وقد تتحدد الأسباب الخارجية فى اختلاف القوميات واللغات بين أفراد الجماعة .
- انخفاض التوترات المشحونة بالرغبة فى التقدم داخل الجماعة توافماً واستسلاماً مع لتوجهاتها .
- تضائل إحساس الفرد بأن الجماعة التى ينتمى إليها تمثل قيمة إيجابية ، وشعوره بأنه لم يعد يمثل قيمة إنسانية داخل الجماعة .

الفصل الثالث

- * تعريف الاتجاه
- * خصائص الاتجاه
- * تكوين الاتجاه
- * وظائف الاتجاهات
- * الاتجاهات التعصبية
- * التسلطية
- * الدوجماطيقية
- * قياس الاتجاهات
- * طرق تغيير الاتجاهات

الاتجاهات

الفصل الثالث

الاتجاهات ATTITUDES



تلعب الاتجاهات دوراً محورياً في حياة الإنسان ، ومن ثم يستحيل أن يكون هناك إنسان بغير اتجاهات معينة يؤمن بها ويتحمس لها ويدافع عنها ، وتتحول بفعل استقرارها وثباتها في داخله إلى مكون من مكونات شخصيته ، واتجاهات أخرى قد يرفضها ، بضراوة وعدوان ، وثالثة قد لا يتحمس لها ولا يؤمن بها ، ومن الممكن ألا تحتل عنده أى اهتمام أو تهيو نفسى .

وتتخذ الاتجاهات مما يحيط بالفرد من أشخاص أو طبقات اجتماعية أو عقائد دينية أو نظم سياسية واقتصادية موضوعاً لها .

وقد يشير الاتجاه إلى ميل مؤيد أو مناهض ، أو محايد لموضوع ، وقد يتحرك الاتجاه فوق متصل متعدد الدرجات من تأييد تام إلى رفض تام أو حيادية فيما يتصل بموضوع الاتجاه . فقد يؤمن بعض الأفراد بضرورة الحجاب أو النقاب للمرأة وأنه خير عاصم لها من الخطأ ، وقد يرفض البعض حجاب المرأة ويرى في سفور المرأة تأكيداً لحريتها ودافعاً لها إلى العمل والإنتاج . وقد يرى البعض الثالث أن الاعتدال في ملابس المرأة وسط بين الحجاب وبين السفور ، وأن على المرأة أن تراعى الاعتدال في ملابسها وفي حركتها وهكذا ، وقد يؤمن البعض بحتمية الفكر الرأسمالى ، وأن هذا الفكر يقوم على تأكيد حرية المواطن ، وأن من أهم دعائمه الديمقراطية التى تساوى فى الحقوق والواجبات بين الناس ، وأن الانسان كائن حر ، وأن حريته تعنى تفتح إمكاناته وأن هذه الإمكانيات لا تفتح ولا تزدهر إلا من خلال مجتمع رأسمالى . وقد يرفض البعض الفكر الرأسمالى ، ويرون فى الاشتراكية خلاصاً للإنسان مما عاناه وكابده من سلب منظم لطاقاته وإنتاجه فى ظل المجتمع الرأسمالى ، الذى يجعل من أفراد مجرّد أدوات أو تروس فى دولا ب العمل ، وأن فى مثل هذه المجتمعات تنتشر الجرائم والمخدرات والسموم البيضاء وغير البيضاء .

وقد يرى البعض الثالث أننا نعيش فى عصر يتشكل من جديد ، عصر من أهم خصائصه أنه عصر التسويات الكبرى ، وأن هناك مشاكل إنسانية متراكمة تجد لها طريقاً إلى التسويات ، وأن ما نريده هو نظام يؤمن بالإنسان ويحقق له الاستقرار

والأمان ، وأن التسابق المجنون المدفوع بوهم اسمه ، نظام دفاعى جديد ، يستهدف تسليح الفضاء الخارجى ببسط لحاف نووى فى الفضاء هو نظام يستهدف الإنسان ، وأن العالم اليوم يملك من وسائل إبادة الأرض عشرات المرات ، فى حين أن الأرض لن تدمر إلا مرة واحدة ، وأن أى حرب ثالثة لن يكون فيها طرف منتصر وآخر مهزوم لأن الكل فيها مهزوم وفان إلى الأبد . ومن ثم لابد من التوجه نحو نظام يستهدف الإنسان وخير الإنسان وسعادته ، ونحن نعيش فى عصر أزمات طاقة وتجارة وديون .

وقد تضيق اتجاهات الفرد وتتمركز فقط حول عالمه الضيق جداً حيث أسرته ومشاكل أسرته والتوحد مع اتجاهاتها والدفاع عن هذه الاتجاهات بعنف وغضب وعدوان ، وقد تنسحب هذه الاتجاهات على مدرسته أو الحى الذى يقطن فيه أو حتى مجتمعه الذى يعيش فيه ، متحركة فوق متصل بدرجات من الموافقة أو التأييد إلى الرفض التام ، وعلى هذا .. فإن الإنسان فى مسيرته الحياتية يكون اتجاهات متعددة نحو موضوعات متباينة فى العالم الذى يعيش والواقع الاجتماعى الذى يتفاعل فيه مع أفراد ومؤسساته ونظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كذلك قد نجد لكل فرد اتجاهات معينة نحو مناشط ثقافية رفيعة المستوى كالفن والفلسفة والأدب والتاريخ ، ونحو المعتقدات الدينية والسياسية والاقتصادية التى تسود مجتمعه .

تعريف الاتجاه :

الاتجاه مفهوم متعدد المعانى ، مختلف من حيث زاوية الرؤية إليه ، معرفياً ونفسياً واجتماعياً ، وهذا الاختلاف مردود إلى اختلاف الأطر المرجعية والنظريات النفسية والاجتماعية للعلماء والباحثين أنفسهم . ويكاد يكون موضوع الاتجاه : من حيث القصد منه وخصائصه وعوامل تكوينه وتعديله وقياسه ، ميدان بحث مشترك لدى المشتغلين بعلم النفس الاجتماعى .

ولعل من المفيد أن نعرض لبعض التعريفات .

يعرف « البورت » ، (١٩٦١) الاتجاه بوصفه « حالة استعداد عقلى وعصبى ينشأ خلال التجربة ، ويؤثر تأثيراً دينامياً على استجابات الفرد إزاء جميع الموضوعات والمواقف التى يتصل بها ، .

ويمتاز هذا التعريف بأنه يتجنب القسمة الثنائية ، بين ما هو فسيولوجى وما هو عقلى ، وأن هذا الاستعداد يهيئ الفرد لاستجابات بعينها بإزاء المواقف والأشخاص ، وأن الاتجاه ليس فطرياً فى الإنسان ، بل هو مكتسب يكتسبه الفرد من خلال تجاربه ومواقفه فى الحياة .

ويركز وارن Warren على الاستعداد النفسى الكامن وراء كل اتجاه ، فيرى أن الاتجاه استعداد نفسى ، يتكون بناء على ما يمر به الشخص من خبرات يمكن أن تؤدي فى نهاية الأمر إلى إحداث تغييرات فى مجال الاتجاه ، فثمة استعداد نفسى يكمن وراء الاتجاهات التى تتصف بالتحيز أو الرفض أو الحيادية ، وأن هذا الاستعداد النفسى يتشكل فى سياق من خبرات الفرد .

أما كرتش وكرتشفيلد Krech & Crulshfield فيعرفان الاتجاه بأنه « تكوين دائم من الدوافع والإدراك والانفعالات والعمليات المعرفية المرتبطة بجوانب حياة الفرد » .

وهذا التعريف يعبر عن الائتلاف الكامن وراء اتجاهات الفرد المتعددة ، والذي يتشكل كمحصلة لما هو نفسى ودافعى وانفعالى وجدانى ومعرفى إدراكى .

ويقدم بروشانسكى وسيدنبرج Proshansky and Seidenberg تعريفاً للاتجاه يتضمن « أن الاتجاه عبارة عن ميل معقد للاستجابة الثابتة بالموافقة أو المعارضة للموضوعات الاجتماعية التى فى البيئة ، وهذه الاستجابة تختلف من ثقافة لأخرى ، فالموضوع الذى قد يعارضه الناس فى ثقافة ما قد يوافقون عليه فى ثقافة أخرى . ويواصل بروشانسكى وزميله كلامهما عن الاتجاه فيقولان بأن الاتجاه يستنتج من سلوك الشخص نحو المؤسسات المختلفة ، والجماعات المختلفة ، والتعليم والطب والجنس والزواج والدين .. ومن ثم فإن الاتجاهات تمثل الرابط النفسى الأساسى بين قدرة الشخص على الإدراك أو الإحساس أو التعليم وبين نواح نفسية ونواح اجتماعية سبق أن خبرها الفرد فى المواقف أو المجال نفسه (محمود أبو النيل ١٩٨٥ ص ٤٤٩) .

ويضع تعريفاً للاتجاه مؤداه أنه : « استعداد نفسى تظهر محصلته فى وجهة نظر الشخص حول موضوع من الموضوعات سواء كان اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً ، حول قيمة من القيم كالقيمة الدينية أو الجمالية أو النظرية أو الاجتماعية ، أو حول جماعة من الجماعات كجماعة النادى أو المدرسة أو المصنع ، ويعبر عن هذا الاتجاه تعبيراً لفظياً بالموافقة عليه أو عدم الموافقة أو المحايدة ، ويمكن قياس الاتجاه بإعطاء درجة للموافقة والمعارضة والمحايدة . (نفس المرجع ص ٤٥٠) .

يتبين مما سبق أن الاتجاهات متعددة من حيث القصد منها ، وأنها قد تشير إلى ميل مؤيد أو ميل مناهض أو ميل محايد إزاء الموضوعات والطبقات والأشخاص ، وأن تعريف الاتجاهات يشير إلى ما بين الاستجابات من اتفاق واتساق ، من شأنه أن يساعد المشتغلين بعلم النفس الاجتماعى على التنبؤ بالسلوك المقبل .

خصائص الاتجاهات :

ثمة إجماع بين علماء النفس الاجتماعيين على أن هناك خصائص تتصف بها الاتجاهات ، ويتحدد بعضها فيما يلي :

(١) إن الاتجاهات مكتسبة وليست فطرية متوارثة ، وإن الفرد يكتسبها من خلال تجاربه وما يعيشه من خبرات .

(٢) إن الاتجاهات تتسم بالثبات النسبي ، ومن ثم يستحيل تغييرها أو تعديلها بسرعة ؛ بخاصة الاتجاهات التي تشبع حاجة نفسية لدى الأفراد .

(٣) إن الاتجاهات لا تتكون بغير موضوع للاتجاه ، ومن ثم تتضمن العلاقة بين فرد وموضوع من موضوعات الحياة .

(٤) تتعدد الاتجاهات وتختلف تبعاً لتعدد الموضوعات واختلافها .

(٥) إن الاتساق والاتفاق فيما بين استجابات الفرد لمواقف وموضوعات محددة يسمح بالتنبؤ بنوعية الاستجابة في مواقف غير محددة .

(٦) إن الاتجاهات قد تتسع مجالات انتشارها فتحتوى .. موضوعات عالمية أو فنية أو تاريخية ونحو ذلك ، قد يضيق مجال انتشارها فتتضمن موضوعات محدودة بالنسبة للفرد ، بيد أن الاتساع أو الانحسار لا يؤثر على خصائص الاتجاه .

تكوين الاتجاهات :

ثمة عوامل متعددة تؤثر في تكوين الاتجاهات ، لعل من أهمها ما يلي :

(١) طبيعة النظام السياسى :

إن كل توجه سياسى أو أيديولوجى يحاول أن يشكل اتجاهات الأفراد ومعتقداتهم تبعاً لمعتقداته ، وما يؤمن به من أهداف ومن توجهات سياسية واقتصادية ، وهنا تلعب وسائل الإعلام بمختلف أدواتها من صحافة وإذاعة وتلفزيون دوراً أساسياً في تشكيل وصياغة اتجاهات الفرد .

(٢) نوعية الطبقة الاجتماعية :

تلعب الطبقة الاجتماعية دوراً كبيراً في تكوين اتجاهات الأفراد ، فالانتماء الطبقي يستتبعه انحيازاً لاتجاهات الطبقة ومعاييرها القيمية ؛ فعلى سبيل المثال : الطبقة المتوسطة تكون دائماً قلقة ومتطلعة ، ومملوءة حيوية وثرورية ، ومنها تتشكل

العناصر الحيوية داخل المجتمع والعناصر غير الحيوية ، التي تتسم بالرفض ومناهضة الأوضاع القائمة والتمرد عليها أيضاً .

(٣) الخصائص النفسية :

تؤثر السمات النفسية تأثيراً كبيراً في تكوين الاتجاهات ، فكل اتجاه يكمن خلفه دافع نفسى يهيئ الفرد للانحياز لاتجاه معين أو رفضه ، أو اتخاذ موقف محايد منه .. ولهذا يشير أدورنو وزملاؤه في دراستهم الشهيرة عن « الشخصية التسلطية » إلى أهمية الدوافع النفسية التي تدفع فرداً أو عدداً من الأفراد أو شعباً بأسره إلى تقبل الاتجاهات ، التي تدعو إلى الحض على العدوان وسحق الضعفاء وتمجيد القوة ، ومناهضة الأفكار الأخرى والإيمان بالفكرة الواحدة أو الرأي الواحد ومعاداة كافة الآراء الأخرى ؛ الأمر الذى تمثل بوضوح فى النازية والفاشية .

وظائف الاتجاهات :

قلنا إن الاتجاهات تتكون كمحصلة ختامية لدوافع الفرد النفسية وطبيعة التنشئة الاجتماعية ، التى يعيش فى كنفها الفرد وما يحيط به من وسائل إعلامية كالصحافة والإذاعة والتلفزيون ، وغير ذلك من وسائل الإعلام التى تحاول أن تصوغ الرأي العام وتشكل الاتجاهات ، كيما تتفق مع توجهات النظام السياسى والعقيدة السائدة دينية كانت أو سياسية . أضف إلى ذلك مكونات الفرد بما تحتويه من انفعالات وإدراكات ومكونات معرفية تجعله يستجيب باستجابة معينة لاتجاهات أيضاً معينة . ومن خلال هذه الاستجابات وما بينها من اتساق ، نستطيع أن نتنبأ بسلوكه المقبل أى اتجاهاته المستقبلية ، فإن كان مثلاً لا يحبذ عمل المرأة ونزولها إلى ميدان العمل ، فهو بالضرورة لا يوافق على حقها فى التصويت ، وفى المشاركة السياسية والاجتماعية . وللاتجاهات وظائف معينة اتفق على معظمها علماء النفس الاجتماعيون ، ولعل من أهم هذه الوظائف :

(١) الاتجاه يحدد طريق السلوك ويفسره .

(٢) الاتجاه ينظم العمليات الدافعية والانفعالية والإدراكية المعرفية حول بعض النواحي الموجودة فى المجال الذى يعيش فيه الفرد .

(٣) الاتجاهات تنعكس فى سلوك الفرد فى أقواله وأفعاله وتفاعله مع الآخرين ، فى الجماعات المختلفة ، فى الثقافة التى يعيش فيها .

(٤) الاتجاهات تيسر للفرد القدرة على السلوك واتخاذ القرارات في المواقف النفسية المتعددة في شيء من الاتساق والتوجد ، دون تردد أو تفكير تفكيراً مستقلاً في كل موقف في كل مرة .

(٥) الاتجاهات تبلور وتوضح صورة العلاقة بين الفرد وعالمه الاجتماعي .

(٦) الاتجاه يوجه استجابات الفرد للأشخاص والأشياء والموضوعات بطريقة تكاد تكون ثابتة .

(٧) الاتجاه يحمل الفرد على أن يحس ويدرك ويفكر بطريقة محددة إزاء موضوعات البيئة الاجتماعية .

(٨) الاتجاهات المعلنة تعبر عن مساهمة الفرد لما يسود مجتمعه من معايير وقيم ومعتقدات .

هذا .. ويوضح زهران (١٩٨٤) أن فيشبين Fishbein (١٩٦٧) في نظريته عن العلاقة بين الاتجاهات والسلوك قد حدد أن هناك ثلاثة أنواع من المتغيرات تعمل كمحددات أساسية للسلوك ، وأن الوزن النسبي لهذه المتغيرات يختلف من سلوك إلى سلوك ، ومن شخص إلى شخص . وهذه المتغيرات هي :

(١) الاتجاهات نحو السلوك : وتعتمد على معتقدات الشخص بخصوص عواقب السلوك المعين في موقف معين ، وتقييم الشخص لهذه العواقب .

(٢) المعتقدات الشخصية والاجتماعية : وتشمل المعيار الشخصي للسلوك والمعيار الاجتماعي .

(٣) الدافعية للتمسك بالمعايير : وتشمل الرغبة وعدم الرغبة في التمسك بالمعايير .

الاتجاهات التعصبية

لعل من أهم هذه الاتجاهات التي تتصف بالجمود والانغلاق والتمركز حول الفكرة الواحدة أو الرأي الواحد ، ما أطلق عليه العلماء اسم « الاتجاهات التسلطية » ، تلك التي بلورها أدورنو ، وزملاؤه في دراستهم الشهيرة عن التسلطية ، وكذلك أيضاً الدراسات القيمة عن الدوجماطيقية كما كشف عن جذورها ، روكيتش Rokeach ، (١٩٦١) . في الفكرة والسلوك والمواقف :

أولاً : التسلطية : Authoritarianism

في عام ١٩٤٣ ، في أثناء الحرب العالمية الثانية ، بدأ أدورنو Adorno وزملاؤه يخططون لدراسة « الشخصية التسلطية » ، كجزء من اهتمامهم بدراسة ظاهرة التعصب العنصري ، الذي تمثل في أيديولوجية الفاشية التي تقوم على تمجيد القوة ، والحض على العدوان ، ومحق الضعفاء ومعاداة السامية ، ورفض كافة المعتقدات التي تختلف عن توجهات وأيديولوجية الفاشية .

وكان جل اهتمام أدورنو وزملائه (١٩٥٠) مركزاً على دراسة الدوافع النفسية التي تدفع فرداً ، أو بعض الأفراد ، أو شعباً ، أو شعوباً بأسرها إلى تقبل المعايير والأحكام التسلطية ، بحيث يكون الفرد أو بعض الأفراد أو الشعب مستهدفاً للطاعة والامتثال المطلقين لكل أشكال السلطة ، والإيمان المطلق بأحكامها واتجاهاتها ونظمها القيمية ، بغض النظر عن معقولية هذه الأحكام والاتجاهات والقيم .

وقد تمكن أدورنو وزملاؤه (١٩٥٠) من تحديد المكونات النفسية « للشخصية التسلطية » ، باستخدام قوائم الشخصية وفنيات التحليل النفسي ، والاختبارات الإسقاطية لتعرف أهم سمات هذه الشخصية ، التي وجد أنها تتميز بدرجة عالية من التعصب والعدوان والجمود العقلي ، وتحيا نهباً لمشاعر الإثم والقلق وفقدان الأمن والتناقض الوجداني .

ويصف أدورنو (١٩٥٠) هذه الشخصية بأنها تتميز « بمجموعة من السمات التي تتصف بالامتثال المطلق لقيم وأحكام الجماعة (التعصب الفكري) والخضوع لأحكامها ومعاييرها ، والحض على العدوان ، الذي يظهر في ميل الفرد إلى التحفز والعدوان ضد كل من تسول له نفسه الخروج على قيم واتجاهات الجماعة » ، والإيمان

المطلق بالغيبيات ، وفرض الرأى السائد فى الجماعة على الآخرين بايجاد النسخ المتماثلة من الأفراد، التى تؤمن بفكر واحد ورأى واحد بغض النظر عن معقولية هذا الرأى أو الفكر ، وتمجيد القوة والمغالاة فى تأكيدها ، أو التعامل مع الواقع وفق نماذج سلطوية متقابلة . الخضوع فى مقابل الهيمنة) ، والميل إلى التدمير والاستخفاف بالآخرين (أى الميل إلى تدمير الآخر ، والنظر إليه بوصفه كائناً شريراً ينبغى تدميره) ، والتصرف مع الآخرين على نحو إسقاطى (أى إسقاط ما فى داخل المتسلط من مشكلات واضطرابات نفسية ومواطن ضعف على الآخرين) ، والانشغال بالجنس (على نحو يحول فيه المتسلط قلقه ومشاعر ذنبه وصراعاته الداخلية إلى العالم فيتصوره عالماً مليئاً بالانحرافات الجنسية ، وإلى الآخرين بوصفهم منحلين ومنحرفين جنسياً وينبغى إدانتهم وتعقبهم ومحاربتهم) (ص ٢٢٨) .

وقد اسفرت دراستهم عن نتائج بعضها يميز سمات المتسلط ، منها أنه شخص يمجد ويضخمها ، ويهتم بالمركز الاجتماعى والنجاح الخارجى أكثر من غيره ، وربما يسبب نشأته فى أسرة تهتم بالمركز الاجتماعى - بسبب عدم الإحساس بالأمن والتهديد الداخلى - كما تبين أن الآباء المتسلطين يميلون إلى القلق والقمع الشديد ، ويؤدى هذا القمع إلى خوف الأبناء ، وقلقهم وتوحدهم مع آبائهم قلقاً وخوفاً ، وعدواناً .

هذا ، ولم تكن دراسة أدورنو وزملائه الأولى فى مجال البحث عن سمات الشخصية التسلطية ، بل سبقتها وواكبتها وتلتها دراسات عديدة لعلماء النفس الاجتماعى والتربىة عن الشخصية التسلطية مثل (ريتش ، Reich ١٩٣٥ - ١٩٧٠ ، فروم ١٩٤١ ، ١٩٧١ ، ميرفى Murphy ١٩٤٧ ، أندروسكى Andresky ١٩٥٤ ، سوف ، ١٩٨٤ ، عبد الستار إبراهيم ، ١٩٨٤ وغيرهم) .

وتعتبر دراسة ريتش Reich (١٩٣٥ ، ١٩٧٠) من الدراسات الرائدة فى مجال البحث عن جذور التسلطية فى طبيعة الإنسان المعاصر ؛ إذ إن ريتش (١٩٣٥) قد انتهى من كتابة دراسته بعد استيلاء النازيين على السلطة فى ألمانيا بثلاث سنوات ، وقد أوضح ما يمكن أن ينجرف إليه العالم من عنف ودمار وتعصب إذا ما سادت الفاشية واستحكمت ، ولهذا يرى أن التسلطية قد وجدت تعبيراً لها فى الفاشية كنظام قيمى وأيديولوجى ، غير معقول يتصف بالعدوان والتعصب وعشق القوة ومعاداة الأفكار والآراء المناهضة . وأن الفاشية كتعبير عن التسلطية ، ظاهرة عالمية ، ليس لها وطن معين ؛ لأنها مكون من مكونات الإنسان ، وقد تنتشر إذا ما وجدت الظروف المهيئة لها نفسياً واجتماعياً واقتصادياً ، وهى أشد انتشاراً بين صفوف الرجل العادى ،

وأن هناك عوامل وظروفاً تساعد على ظهور التسلطية ، من أهمها : طبيعة التنشئة الاجتماعية في الأسرة ؛ فالأسرة التسلطية التي يحيا أبناؤها في قلق وخوف وتهديد تفرز الشعور بالتسلط (ص ٩ - ٢٠) .

ويرى فروم (١٩٤١ - ١٩٧١) أن هناك علاقة بين الاغتراب والتسلطية ، كإحدى آليات الدفاع الرئيسية التي تدفع الفرد إلى ، التخلي عن حريته وعن استقلاله الذاتي بالاندماج مع شخص أو جماعة تمنحه الشعور بالقوة ، أو هي البحث عن روابط ثانوية جديدة كبديل للروابط الأولية المفقدة (ص ١٦٣) .

والروابط الأولية عند فروم ، هي تلك التي تعطي الفرد الشعور بالأمن والشعور بالأمن حاجة نفسية ينبغي أن تشبع والإنسان لا يزال في المهد صبيّاً ، وأن إشباع هذه الحاجة يعنى أن يتقدم الفرد نحو ، الحرية الإيجابية ، ، وأن يتعلق بالعالم على نحو تلقائي بالحب والعمل ، معبراً بذلك عن إمكاناته العاطفية والحسية والعقلية على نحو خلاق .

أما إذا حدث - كما يقول فروم (١٩٧١) - وتقطعت الروابط الأولية التي تمنح الإنسان الشعور بالأمن ، فإنه يبحث ، عن بدائل ، ثانوية ، تمنحه الشعور بالأمن ، وترد إليه الإحساس بالهوية ، وترفع عنه عبء الشعور الذي لا يطاق بالوحدة والعجز واللاجدوى بالاندماج في شيء يعطيه الإحساس بالقوة والأمان ، وهذه القوة قد تكون شخصاً أو مؤسسة ، أو أمة أو ضميراً ، أو قهراً نفسياً . (ص ١٢٠) .

والتسلطية التي يتحدث عنها فروم ، ليست ، أحادية البعد ، وإنما هي مركب نفسى يجمع بين الرغبة في الهيمنة والرغبة في الخضوع ، أو ما أطلق عليه فروم ، «الرغبات السادية ، والرغبات الماشوسية» ، وبين فروم أن هذا المركب النفسى - Sado - masochistic كامن ومتأصل في الناس جميعاً - أسوياء وعصابيين - ولكن بدرجات متفاوتة ، وأن كلا من الرغبات السادية والماشوسية تميل إلى مساعدة الفرد على تجاوز شعوره ، الذي لا يطاق بالوحدة والعجز واللاجدوى .

وقد أسفرت نتائج دراسته عن التسلطية - كإينكياً وتجريبياً - عن أن التسلطيين ممثلون إحساساً بالذنب ، ويتعذّب الذات أحياناً بطقوس وأفكار قهرية أشبه بطقوس وأفكار العصائبيين القهريين وأنهم لا يشعرون بالأمن وممثلون رعباً بشعور لا يطاق بالوحدة واللاجدوى ، وأنهم يواجهون العالم بوصفه عالماً مغترباً ومعادياً ، وأن الشخص السادى يحتاج إلى موضوع تسلطه بقدر ما يحتاج إليه الشخص الماشوسى ، (ص ١٨٠) . وأن الشخصية التسلطية تحب الظروف التي تحد من الحرية الإنسانية ..

وانها تحب الخضوع للقدر ، فيتوقف على وضعها الاجتماعي ما يعنيه القدر بالنسبة لها، (ص ١٨٥) .

وهكذا يؤكد فروم (١٩٧٥) التكوين النفسى للشخصية التسلطية ، وما تنطوى عليه من دوافع نفسية تتخذ لنفسها دلالات سلوكية فى تصرفات المتسلطين تقوم على عشق القوة ، والحض على العدوان والتوحد مع نماذج القوة ، وأن جوهر هذه التسلطية يكمن فى الحضور التلقائى للدوافع السادية والماشوسية ، (ص ١٨١) .

هذا - وقد حدد أندروسكى Androsky (١٩٥٤) عناصر ثلاثة للتسلطية تنطوى على ما هو نفسى ، وما هو أيديولوجى ، وما هو سياسى .

العنصر الأول : يشير إلى وجود استعداد عام لدى الشخص يدفعه إلى تأييد التمييز الطبقي ، وتمجيد من هو أقوى ، والاستخفاف بمن هو أضعف .

العنصر الثانى : أيديولوجى يشير إلى منظومة المعتقدات والاتجاهات التى يتبناها الفرد، والتى تتميز فى معظم الأحيان بتمجيد القوة ، والسلوك الاستبدادى ومناصرة حكم الفرد القوى .

العنصر الثالث : سياسى ، حيث تشير التسلطية الى نمط من الحكام أو القادة أو الرؤساء ، الذين يميلون إلى اتخاذ القرارات الفردية والتهديد بالعقاب، وفرض الرأى الواحد بصورة مستبدة وفردية (ص ١٥) .

وقد حاول ميرفى Murphy ، (١٩٤٧) أن يربط التسلطية بعملية التطبيع الاجتماعى ، وأن يبين أن المتسلط نبت اجتماعى لتنشئته الاجتماعية التى قد تجعل من الفرد شخصاً يتسم بالجمود العقلى . والخضوع المطلق لمن هم أعلى منه فى مراكز القوة والسلطة ، ويتصرف مع الآخرين وفقاً لما تمليه نظريته الضيقة للواقع والقائمة على الطبقية .

وفى محاولة لإخضاع ظاهرة التسلطية للبحث العلمى ، قام إيزنك (١٩٥٦) بانتقاء ٥٠٠ عبارة من مقاييس التسلطية المختلفة ، وإخضاعها للتحليل العاملى الذى أسفرت نتائجه عن عاملين متعامدين ، هما : (التطرف ، المحافظة - Radicalism - conservatism التشدد فى الرأى فى مقابل المرونة - Toughmindedness - Tendermindedness .

وقد أسفرت نتائجه عن أن التسلطية ظاهرة واسعة الانتشار بين الشباب المتطرف واليسارى واليمين المحافظ ، (ص ٤٣١ - ٤٣٨) .

والمتتبع لمفهوم التسلطية يجد أن هناك تعريفات تستخدم هذا المفهوم مرادفاً لمعنى التعصب وتمجيد القوة ، والحض على العدوان (أدورنو ، (١٩٥٠) ، ليفنسون ، هوفمان ، Levinson , Huffman (١٩٥٥) كوفمان Kaufman (١٩٥٧) ، بندر Bunder (١٩٦٢) ، إبراهيم عبد الستار ، (١٩٨٤) ، وبعضها الآخر ينظر إلى التسلطية بوصفها تعنى التوحد مع مراكز القوة والسلطة ، وتمجيد الذات ، والجمود في التفاعل مع الواقع ، والتركيز على المركز الاجتماعي (فروم ، ١٩٧١ ، ميرفي ١٩٤٧ ستاجر Stagner ١٩٦١) ، وبعضها الثالث ينظر إلى التسلطية بوصفها ظاهرة عامة تكمن في البناء المعرفي للإنسان ، وأن جذور التسلطية تكمن في كافة مناشط الإنسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية وما إلى ذلك من مناشط (ريتش Reich ، ١٩٣٥ - ١٩٧٠ ، روكيتش ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ ، شيلز ١٩٥٤) .

ومما سبق يتضح أن التسلطية ظاهرة مركبة ، يختلف القصد من تعريفها باختلاف الباحثين واختلاف أطرها المرجعية - ولكن رغم ذلك ثمة أرضية مشتركة بين معظم تعريفات التسلطية تفيد أنها تشير إلى التعصب والجمود العقلي ، والعدوان ، وتمجيد الذات ، والتعلق بما هو اجتماعي مرموق والتوحد مع نماذج تجعله يتقبل الأفكار والأحكام والمعايير التسلطية .

وتبرز قيمة تعريف أدورنو وزملائه (١٩٥٠) الذي تبناه الباحث للتسلطية في إبرازهم للدافع النفسي ، الذي يكمن وراء التسلطية وإعدادهم لأداة لقياس التسلطية وهي مقياس F الذي يعتبر إلى - حد كبير - القاسم المشترك لكافة المقاييس التي تتخذ من التسلطية موضوعاً لها .

ثانياً : الدوجماتيقية : Dogmation :

حظى مفهوم الدوجماتيقية باهتمام الباحثين من علماء النفس والاجتماع والتربية في الخمسينيات والستينيات من هذا القرن ، أي في الحقبة التي أطلق عليها اصطلاح « الحرب الباردة » بين القوتين العظميتين ، وذلك إثر الحرب العالمية الثانية ، وهي حقبة معبئة بالقلق والخوف من عودة العالم إلى ما كان عليه في الثلاثينيات والأربعينيات من هيمنة مطلقة للأيديولوجيات ، ومعاداة للسامية ، وتعصب عنصري وتمجيد للقوة ، ومناهضة للأفكار والأيديولوجيات الأخرى ، ومن ثم راح العلماء والباحثون - تحت ضغط وضع عالمي يوشك أن يسفر عن أزمة عالمية - يبحثون في جذور التعصب والتسلط في الفكر والسلوك والمواقف .

ويرجع الفضل إلى روكيتش Rokeach (١٩٥٤ - ١٩٦٠) في تأصيل مصطلح

الدوجماطيقية بوصفه منظومة معرفية مغلقة .

وقد بلور روكيتش مفهومه عن الدوجماطيقية من خلال بحوثه المتعددة عن الجمود العقلي ، وضيق الأفق ، وطبيعة التفكير القطعي ومعنى وطبيعة الدوجماطيقية في الفكر والسلوك والمواقف ، ولهذا أصبحت الدوجماطيقية مفهوماً فسيحاً يشير إلى «التسلطية العامة» (شيلز ، Shills ١٩٥٤ ، روكيتش ، ١٩٦٠) ، وتمتد لتستوعب كافة مناشط الإنسان في السياسة والدين ، والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والأسرة حيث علاقات الآباء بالأبناء ، ولا تقتصر على جانب واحد هو تسلطية اليمين بمضمونها الأيديولوجي الفاشي كما عبر عن ذلك أدورنو ، وزملاؤه (١٩٥٠) .

وتصور روكيتش (١٩٥٤ - ١٩٦٠) عن الدوجماطيقية يقوم على تصويره عن طبيعة الإنسان ؛ فكل إنسان « بناء معرفي » ، ويقوم هذا البناء المعرفي على فكرة المعتقد ، فكل منا له معتقداته الخاصة عن الله وعن النفس وعن الوجود وعن السلطة وعن العلاقات الاجتماعية والثقافية والسياسية ، وتنظيم هذه المعتقدات في نسق كلي من المعتقدات يكون خصوصية البناء المعرفي للفرد ، ويترتب على هذا البناء المعرفي أساليب تفكير وسلوك واتجاهات شتى .. قد توصف بأنها مغلقة وجامدة ومتعصبة ، وقد توصف بأنها اتجاهات وسلوكيات وتفكير منفتح ومرن وقادر على التعايش والتواصل مع أفكار الآخرين ، وما يعتقدون .

وعلى هذا .. فإن الشخص الدوجماطيقى - كما يقول روكيتش (١٩٦٠) - شخص مغلق ، جامد يتسم بتفكير قطعي ، تتحول بمقتضاه أكثر الأفكار تفتحاً إلى منظومة مغلقة من الأفكار لا تقبل الجدل أو النقاش ، وإن الدوجماطيقية تكمن في طريقة تناول الفرد للأفكار وللآخرين وللسلطة ، وليس في مضمون الفكرة أو الأيديولوجية ، حيث يتوافر البناء المعرفي للناس جميعاً ، ولكن بدرجات تمتد عبر متصل في أحد طرفيه يكون الانفتاح العقلي حيث تعايش الفرد مع ما يؤمن به الآخرون ، وتقبله للمعايير المناهضة لتفكيره ، وقدرته على إيجاد قنوات اتصال والتقاء بين ما يعتقد وما يعتقد الآخرون وفي الطرف الآخر يكون الانغلاق الفكري حيث التعصب والجمود العقلي وثنائية التفكير القطعي ، ولهذا .. فإن الدوجماطيقى كما يشير روكيتش (١٩٦٠) يتسم بالاستجابة المتطرفة ، فهو إما أن يقبل الشيء قبولاً مطلقاً أو يرفضه رفضاً مطلقاً بغض النظر عن محتوى الشيء ومعقوليته .

ويفترض روكيتش (١٩٦٠) أن الدوجماطيقية نسق معرفي مغلق من المعتقدات التي تأخذ اتجاهات متأصلة لدى الفرد ، وتتميز بالعناصر الثلاثة الآتية :

١ - إن كل فرد له معتقداته الخاصة عن الله والوجود ومناشط الحياة المختلفة ، وعلى الرغم من خصوصية معتقدات كل فرد ، والتي قد تختلف عما يعتقده الآخرون .. فإنه توجد بعض جوانب الالتقاء ، التي من خلالها يمكن تعايش الفرد مع أفكار ومعتقدات الآخرين وأن الشخص الذي يرفض التعايش مع معتقدات الآخرين شخص مغلق فكرياً وعقائدياً ويدرك معتقداته بوصفها مطلقة ومعزولة عن غيرها من المعتقدات .

٢ - إن الدوجماتيقي شخص تسلطى يؤمن بالقوة ، ويرى أنها العنصر الحاكم في تغيير الواقع ، وأن التطور رهين بوجود شخصيات فذة في مجالات الحياة المختلفة .

٣ - يتسم الدوجماتيقي بالرفض والعداء والنفور من الآخرين ، الذين يؤمنون بعكس ما يؤمن ويعتقد ويصفهم ، بأنهم من الحمقى ، بسطاء العقول ، (روكيتش ، ١٩٦٠ ، ص ٧٧ ، ٨١) .

وتكاد تتفق سمات الدوجماتيقي - كما حددها روكيتش (١٩٦٠) مع ما يقول به نوتا Nouta (١٩٨٤) عن سمات الفاشي كما تحددها مدرسة فرنكفورت للبحوث الاجتماعية ، حيث يقول نوتا : « يتسم الفاشي بسمات أربع : على المستوى الأيديولوجي يفرق الفاشي تفرقة حاسمة بين الخير والشر ، الأعمال المنزلية وتربية الأطفال وعلى المستوى الاجتماعي يدعو الفاشي إلى الأخذ بالقيم المتعارف عليها ، وإلى عدم التمرد عليها ، وعلى المستوى السياسي يدعو الفاشي إلى طاعة الدولة وجميع أشكال السلطة ، وهذه السمات الأربع ملازمة للفاشي ، وهي في مجملتها تدفع الفاشي إلى الجمود العقلي وعدم المرونة ، ولا يقف هذا الجمود عند حد المستوى العقلي بل يتعداه إلى الحركات الجسمية ، فالفاشي يعشق الأسلوب العسكري ، (ص ٣٥) .

ويخلص نوتا (١٩٨٤) إلى أن البروفيل الفاشي بسماته الأربع تعبير عن العنف ؛ لأنه ضحية للعنف ، ولهذا يريد أن يجعل من الآخر ضحية له ، ووسيلته إلى ذلك العنف .

كذلك يقرر أتريا Atreya (١٩٨٤) أن الدوجماتيقي يتميز بالجمود والعجز عن مواكبة الأنشطة الجديدة وانغلاق الذهن (ص ٥٤) .

ويرى سويف (١٩٨٤) أن الدوجماتيكية تعني ثنائية التفكير القطعي ، وأن

الدوجماتيقي يرى الأمور على أنها إما بيضاء ، وإما سوداء ولا ظلال بينهما (ص ٧٥).

وقد أوضح ماسلو Masolo (١٩٨٤) أن الدوجماتيكية هي أقوال مطلقة من غير سند أو برهان ، فهي سلطوية ؛ لأنها مرتبطة بالسلطة ، ومرتبطة كذلك بالذات الإنسانية وانحيازاتها . ومن هذه الزاوية .. فإن الأيديولوجية دوجماتيكية ، وحيث تكون الدوجماتيكية يكون جمود العقل وانغلاقه (ص ٢٥٤) .

هذا ، وقد أكدت بعض البحوث وجود علاقة موجبة بين الاغتراب والدوجماتيكية ، بوصفه انفصال الإنسان عن ثرائه الداخلي ، وعن قدراته الخلاقة ، وعن مناشط العقل في توجهه الإبداعي ، ومرونته وتفتحته على الأفكار والمواقف يرتبط ارتباطاً موجباً والدوجماتيكية .. من حيث هي تعبير عن الجمود والانغلاق والتعصب وثنائية التفكير القطعي ، ولهذا أسفرت دراسة كينستون (١٩٦٨) عن الراديكاليين الجدد ، عن وجود علاقة موجبة بين الاغتراب والتطرف ، كذلك أسفرت دراسة أشوك Ashok (١٩٧٨) عن الشباب الهندي ، وأسفرت دراسة مراد وهبة (١٩٨٤) عن الكهف والدوجما واغتراب الإنسان .

ويتضح مما سبق أن الدوجماتيكية ظاهرة إنسانية وأنها تعبير عن أزمة عصر ، وأن البحث في مظاهرها يعنى البحث في جذور التعصب ، والانغلاق ، وجمود العقل وثنائية التفكير القطعي ، والعدوان والتسلط وتآليه السلطة الواحدة ، والجماعة الواحدة ، والرأى الواحد ، والغاية الواحدة ، وأنها ظاهرة عالمية (ريتش ، ١٩٣٥ - ١٩٧٠ نوتا ، ١٩٨٤) ، ليس لها وطن معين ، فلم تكن ألمانيا وإيطاليا وطنها الوحيد ، بل ممتدة إلى المكارثية وجماعات كلوكلاكس في الولايات المتحدة ، وأيضاً في السلفادور ، وشيلي ولبنان وإيران وجنوب أفريقيا . وهي تعبير عن التسلطية العامة (روكيتش ، ١٩٦٠ ، شيلز ١٩٥٤) ومن ثم يمكن دراستها بمعزل عن الأيديولوجية السياسية .. في حياة الإنسان العادي ، وفي أسلوب تفكيره وكيفية تناوله للموضوعات والأفكار ، فالإنسان المغلق على نفسه وعلى ما يعتقده والذي يرى في أسرته عالمة الأوحاد ، والذي يحيا نهباً لمشاعر الخوف وفقدان الأمن ، ويرى في أفكاره قيمة قصوى ، ولا يستطيع أن يتعايش مع أفكار الآخرين ، ولا يجد بين أفكاره ، وأفكار الآخرين تواصلاً والتقاء ، هو شخص دوجماتيقي يدافع عما يعتقده بعدوان وخوف وتسلط .

وقد أكد ميرفى (١٩٤٧) - من قبل روكيتش - بأن الانغلاق والجمود العقلي قد يظهران بين أبناء الليبراليين بالدرجة نفسها بين أبناء المحافظين وهذا راجع إلى

طبيعة التنشئة الاجتماعية الأولى ، ومعاملة الآباء لأبنائهم ، والتي قد تجنب نحو فرض القواعد الصارمة والنواهي والأوامر والتوحد الجامد بمعايير الآباء. أما بروان (١٩٦٥) فقد بين أن التسلطية مفهوم واسع ، وأن تسلطية اليسار لا تختلف عن تسلطية اليمين الفاشي .

وتتبنى هذه الدراسة تعريف روكيتش (١٩٦٠) الذي يفيد بأن الدوجماتيقية نسق مغلق من المعتقدات الخاصة بالواقع والحياة ، الذي ينتظم حوله مجموعة من الأفكار الخاصة بقوة السلطة المطلقة ، وتتحول هذه بدورها إلى معايير تنظم سلوك الفرد نحو الآخرين .

وطبقاً لمفهوم روكيتش عن الدوجماتيقية ، فإن هذا التعريف يتضمن ثلاثة متغيرات أساسية :

١ - وجود نسق معرفي من المعتقدات والآراء لدى الدوجماتيقى يتسم بالجمود والانغلاق على دائرة ما يعتقد ، والاعتقاد الكامل في هذه المعتقدات ، والنظر إلى ما يخالفها على أنه باطل .

٢ - تأليه السلطة واعتبارها مطلقة ، وقد تكون هذه السلطة : سلطة الدولة أو سلطة الحزب الواحد ، أو الرأي الواحد ، أو الغاية الواحدة ، أو المؤسسة الواحدة أو النقابة الواحدة ، أو الجماعة الواحدة أو الأسرة الواحدة أو سلطة الأبوين ، هو الاعتقاد المطلق بالسلطة أيا كان نوعها ، وتمجيدها والدفاع عنها واعتبار الأفكار التي تصدر عنها وكأنها تمثل صفوة الفكر وامتيازه ولا يجوز تناولها بالنقد أو الجدل أو النقاش .. إنها تمثل حقيقة مطلقة بذاتها .

٣ - النفور من المعارضين ، والشعور بالخوف الذي يؤدي إلى العدوان والتسلط تجاه من لا يؤمنون بأفكاره ، وما يعتقد .

قياسات الاتجاهات

في عام ١٩٢٩ ، ظهر أول وصف لقياس الاتجاهات صممه العالم النفسي الشهير ثرستون بالاشتراك مع شيف Chave وكان الهدف من محاولتهما هو وضع مقياس (وحداته متساوية الظهور) . ثم انطلق بعد ذلك ثرستون بالاشتراك مع تلاميذه يصممون مقاييس اتجاهات الناس نحو الوطنية والرقابة والكتاب المقدس والاعتماد على الله ، وحرية المرأة ، وهجرة الأفراد والشيوعية والزواج والطلاق وما إلى ذلك من موضوعات تكشف عن اتجاهات الناس نحوها .

(١) طريقة ثرستون Thurston

اقترح ثرستون طريقة لقياس اتجاهات الناس نحو موضوعات متعددة ، من خلال عدد من المقاييس المتساوية البعد والظهور Equal Appearing Interval Scale .

وقد أعد المقياس من خلال تقدير أوزان للعبارات ، معتمداً في هذا التقدير على المحكمين والخبراء في الميدان ، وكان يطلب منهم أن يصنفوا العبارات حسب الإيجابية والسلبية في (١١) خانة بحيث تكون أكثر العبارات إيجابية في الخانة رقم (١) وأكثرها سلبية في الخانة رقم (١١) ثم المتوسطة في الخانة رقم (٦) . ثم يستبعد العبارات الغامضة وغير الواضحة بذاتها ، ومن ثم يتم تخفيض عبارات المقياس من مائة عبارة أو يزيد إلى حوالي ٢٠ - ٥٠ عبارة .

نقد طريقة ثرستون :

(١) تتطلب هذه الطريقة عناءً وجهداً كبيراً حتى يصبح المقياس صالحاً للاستعمال .

(٢) قد تفتقر الأوزان التي يعطيها المحكمون إلى الموضوعية .

(٢) طريقة بوجاردس Bogardus

تعتبر أول محاولة ، تلك التي قام بها بوجاردس لقياس البعد الاجتماعي أو المسافة الاجتماعية بين الجماعات العنصرية أو القومية .

ويحتوى مقياس البعد الاجتماعي على وحدات أو عبارات تمثل بعض المواقف الحقيقية في الحياة .

ويتمثل الهدف من تصميم هذا المقياس في قياس مدى تسامح الفرد أو تعصبه ، تقبله أو نفوره ، قربه أو بعده بالنسبة لجماعة معينة أو عنصر معين أو جنس معين أو شعب معين كقياس اتجاه الأمريكيان من الزوج أو اليهود أو الإنجليز .. إلخ.

وفيما يلي مقياس البعد الاجتماعي كما صاغه بوجاردس :

أحب أن:

| | | | | | | |
|------------------------|----------------------------|-------------------------------|------------------------|---------|---------|---------------|
| أستبعدهم من وطنى | أقبلهم كزائرين لوطنى | أقبلهم كمواطنين فى بلدى | أزاملهم فى العمل | أجاورهم | أصادقهم | أتزوج منهم |
| (٧) | (٦) | (٥) | (٤) | (٣) | (٢) | (١) |

وتوضع علامة أمام الوحدة التى تمثل اتجاه الفرد .

وهكذا .. يتضح أن الاستجابات تتحرك فوق متصل من سبع درجات الاستجابة الأولى تمثل أقصى الاتجاه من الزاوية الموجبة حيث القرب الاجتماعى ، فى حين أن الاستجابة الأخيرة تمثل أقصى الاتجاه من الزاوية السلبية حيث البعد الاجتماعى .
ويلاحظ أن المقياس سهل التطبيق بيد أن وحداته لا تتدرج بطريقة متساوية.

٣) طريقة ليكرت Likert

ابتكر ليكرت (١٩٣٢) طريقة جديدة لقياس الاتجاه نحو مختلف الموضوعات مثل المرأة والتقدم والزوج وما إلى ذلك ، ويتكون المقياس من أربع رتب بينها مركز محايد ، على النحو التالى :

| | | | | |
|-----------------|------------|------------|------------|-----------------|
| موافق جداً ١ | موافق ٢ | محايد ٣ | معارض ٤ | معارض جداً ٥ |
|-----------------|------------|------------|------------|-----------------|

يجب أن يتمتع الزوج بكافة الحقوق التى يتمتع بها الرجل الأبيض .

ويطلب من الفحوص أن يضع علامة فى المكان الذى يدل عليه هذا ، وقد استخدم طريقة ليكرت كثير من الباحثين وعلماء النفس لقياس اتجاهات الناس نحو التعصب والجمود الفكرى ، على النحو التالى :

أولاً : مقياس أدورنو للتسلطية :

صمم أدورنو وزملاؤه (١٩٥٠) مقياس التسلطية ، وأطلقوا عليه اسم F. Scale

بهدف توفير أداة تقيس بشكل غير مباشر السمات النفسية ، التي تجعل الفرد مهيباً لتقبل التعصب والتسلط والعدوان ، وأطلقوا على مجموع هذه السمات اسم : الشخصية التسلطية .

وقد استند مصممو المقياس إلى ثلاثة أسس في صياغة عبارات المقياس ومتغيراته التسعة . وهذه الأسس هي :

١ - أن تكون عبارات المقياس غير مباشرة ، بمعنى ألا تشير العبارات إلى أى مضمون أيديولوجي أو أى معنى من معاني التعصب ، وهذا لا يعنى أن تكون عبارات المقياس غامضة وغير واضحة بذاتها .

٢ - أن تتوافر لكل عبارة درجة من التوازن بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي ؛ حتى يتوافر لعبارات المقياس قوة تمييز للأفراد واتجاهاتهم وميولهم نحو التسلطية .

٣ - أن تسهم كل عبارة في الوحدة البنائية للمقياس ككل ؛ بمعنى أن توجد عبارات ممثلة لكل متغير من متغيرات المقياس التسعة ، حتى تشارك كل عبارة بنصيب في تغطية سمات الشخصية التسلطية .

هذا ، وقد استند مصممو المقياس إلى إطار مرجعي مستمد من نظرية التحليل النفسي ، ودراسة اتجاهات بعض الأفراد المتعصبين ، والسمات المشتركة بينهم بتطبيق فنيات التحليل النفسي وبعض الاختبارات النفسية كاختبار T.A.T. ويتكون المقياس من ٢٩ عبارة تدرج تحت تسعة متغيرات ، يذكرها عبد الستار إبراهيم (١٩٨٤) على النحو التالي (ص ٣٩ - ٤٠) :

١ - الامتثالية Conventionalism : أى الانصياع والتقبل الشكلي لمعايير الطبقة الوسطى وقيمها ، على أساس أن التسلطية تتشكل في البيئات المحيطة بالطبقات الوسطى .

٢ - الخضوع التسلطي Authoritarian Submission ويقصد به الخضوع المطلق لمعايير واتجاهات السلطة .

٣ - العدوان التسلطي Authoritarian Aggression ويظهر في الميل لرفض وإدانة من يحاول الخروج عن القواعد ، أو القيم التي يؤمن بها الفرد التسلطي .

٤ - معارضة الجوانب التأملية أو النظرية من النشاط الإنساني ويقصد بها تأييد

الموضوعات العلمية والمجسمة والمحسوسة كالعلوم الطبيعية ، والنفور من الجوانب التى تتطلب معالجة فنية ، أو أدبية أو نظرية أو خيالية .

٥ - النزعة الخرافية والنمطية Superstition and Stereotype ، وتظهر فى شكل الميل إلى الإيمان بحلول ومحددات غيبية للسلوك والمصير، والاستعداد للتمسك بالآراء العامة السائدة، بغض النظر عما تحمله من خطأ أو صواب .

٦ - التعلق بالقوة والميول الصارمة Power and Toughness ؛ أى الانشغال بالقوة والتعامل مع الواقع وفق نماذج سلطوية متقابلة كالخضوع فى مقابل السيطرة ، والتبعية فى مقابل القيادة والضعف فى مقابل القوة .

٧ - النزعة التدميرية والاستخفافىة Destructiveness and Synicism ، وتظهر فى شكل عنوان عام ضد الجنس البشرى ، ومحاولة النيل منه والتحذير من الانتصارات البشرية ، والاستخفافات بالإمكانات الإنسانية .

٨ - الميول الإسقاطية Projectivity : بتحويل المشكلات والصراعات والعدوان والضعف الداخلى نحو الخارج ، فيتصور التسلطى أن العالم ملئ بالمخاطر والوحشية ، والصراعات ، والعدوان ، والانحلال .

٩ - الانشغال الزائد بالجنس : إذ يحول التسلطى قلقه الجنسى إلى تصور أن العالم ملئ بالانحلال والانحرافات ، وأنه لهذا يجب إدانة الانحلال الجنسى وعقاب المنحرفين .

تصحيح المقياس وحساب الدرجات :

وقد اتبع مصممو المقياس طريقة ليكرت فى قياس الاتجاهات فى تصحيح المقياس ، فهناك ثلاث رتب للموافقة ، وثلاث أخرى للمعارضة وبينهم مركز محايد .

وتندرج الإجابة عبر متصل يمتد من موافقة تامة (٧) سبع درجات إلى معارضة تامة (درجة واحدة) .

صدق المقياس :

قام أحمد عبد العزيز سلامة (١٩٧٢) بتعريب هذا الاختبار ونقل عباراته إلى اللغة العربية . وقام عبد الستار إبراهيم (١٩٨٤) بالتأكد من صلاحية المقياس فى البيئة المصرية ، وبحساب معامل القدرة الفارقة لكل عبارة ، والهدف من هذا العامل هو تقدير صدق كل عبارة فى قياس ما وضعت لقياسه ، وقد بلغ متوسط القوى الفارقة للعبارات ١,٠٩ ، ولعينة قوامها ٨٠ طالباً .

ثبات المقياس :

يذكر عبد الستار إبراهيم (١٩٨٤) أن معامل هذا المقياس في الدراسات الأمريكية المختلفة يتراوح بين ٠,٥٦ : ٠,٨٨ بمتوسط قدره ٠,٧٤ (ص ٤٢ - ٤٣) .
وقد قام الباحث الحالي بحساب معامل ثبات المقياس بطريقة إعادة الإجراء بفواصل زمنية قدره (٢١) يوماً ، على عينة قوامها (١٠٠) طالب من كلية التربية ، جامعة عين شمس ، وكان معامل الثبات قدره ٠,٦٦ .

ثانياً : مقياس الدوجماتيقية D. Scale

- صمم روكيتش (١٩٥٦ - ١٩٦٠) هذا المقياس كمحاولة نقدية لمقياس F.Scale ؛ إذ رأى روكيتش (١٩٦٠) أن التسلطية ينبغي دراستها بمعزل عن المعتقدات السياسية (الأيديولوجية) ، وقدم تصوراً عن طبيعة الإنسان يقوم على أساس البناء المعرفي ، الذي قد يتسم لدى الفرد إما بالجمود العقلي والعائدي ، أو بالانفتاح العقلي ومرونته ، وركز في هذا التصور على تعبير التسلطية العامة ، في الفكر والسلوك والمواقف ، التي قد تنفصل عن الأيديولوجية ، وتكمن في طريقة تناول الأفراد للأفكار والموضوعات والمعتقدات والمواقف .

ولهذا اهتم روكيتش (١٩٦٠) بتعريف التسلطية من خلال البناء المعرفي للفرد ، وطريقة تناوله للأفكار والمعتقدات بغض النظر عن محتوى الفكرة أو الأيديولوجية .

وافترض روكيتش (١٩٦٠) أن الدوجماتيقية ، تنظيم مغلق من المعتقدات الخاصة بالواقع والحياة ، ينتظم حول مجموعة من الأفكار الخاصة بقوة السلطة المطلقة ، وهذه بدورها تتحول إلى معايير تنظم سلوك الفرد نحو الآخرين من حيث التسامح أو النفور ، (ص ١٩٥) .

وعلى هذا .. فإن روكيتش (١٩٦٠) قد اهتم بالجانب المعرفي لدى الفرد ، ووضع مقياسه ليقاس الدوجماتيقية من خلال ثلاثة أبعاد رئيسية .

ويعرض علاء كفاي (١٩٧٥) لهذه الأبعاد (ص ١٠٣ - ١٠٦) .

البعد الأول : المعتقدات واللامعتقدات Belief - Disbelief Dimension

يرى روكيتش أن كل فرد لديه مجموعة من الآراء والأفكار يؤمن بها ويعتقدها تمثل المعتقدات ، ومجموعة أخرى من الآراء والأفكار لا يؤمن بها وتمثل اللامعتقدات ، وكلما كانت الأفكار والآراء أقرب إلى دائرة اعتقاد الفرد ، زاد احتمال

تقبله لها كجزء من معتقداته ، وكلما كانت أقرب إلى دائرة اللامعتقدات زاد احتمال رفضه لها .

ويفترض روكيتش أن تنظيم المعتقدات واللامعتقدات يتميز بصفيتين ، هما :

الانعزال والتمايز :

أ - الانعزال :

قد يوجد الانعزال بين تنظيم المعتقدات وتنظيم اللامعتقدات، كعدم رؤية أى شبه بين فلسفتين أو اتجاهين فى الفكر السياسى أو الاقتصادى ، كما يوجد الانعزال على صورة تناقض بين الأفكار ، مثل : إيمان الفرد بالديمقراطية مع إيمانه بحق الصفوة الممتازة فى تولى السلطة . ويرى روكيتش أن نقص الاتساق الفكرى من الملامح المميزة للدوجماتيقي .

ب - التمايز :

ويقصد به أن الأفراد لديهم من المعرفة عن «المعتقدات» الخاصة بهم أكثر مما لديهم عن «اللامعتقدات» الخاصة بهم ، ويظهر هذا بصورة أكبر عند الدوجماتيقي فهو يبحث عن كل معرفة تتعلق بمعتقداته ، وقد يجهل كل شىء بالنسبة للامعتقدات .

البعد الثانى : البعد المركزى - السطحى :

يرى روكيتش أن معتقدات الفرد تتفاوت فى موقعها بالنسبة لتنظيم الفرد المعرفى ، وكأنها تمتد عبر متصل ، أو على قطر من دائرة ، يبدأ من مركز الدائرة ، ويمتد حتى يلمس محيط الدائرة . وكلما كانت المعتقدات فى مكان قريب من المركز عدت معتقدات أقرب إلى «المركزية» ، وكلما اقتربت من محيط الدائرة كانت معتقدات هامشية أو سطحية . وعلى هذا .. يقسم روكيتش إلى أنواع بحسب المنطقة التى تقع فيها المعتقدات :

أ - المنطقة المركزية Central Region

وهى تكون أساس النظام الاعتقادى لدى الفرد ، وهى المعتقدات التى تتصل بأصل الكون وخصائصه ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه الفرد ، وبذات الفرد نفسه وارتباطه مع الآخرين ، ونوع علاقته بهم . وتدور المعتقدات المركزية عند من يحصلون على درجة مرتفعة فى مقياس الدوجماتيقي حول غربة الإنسان ووحده فى هذا العالم الموحش والأفكار المتشائمة بشأن المستقبل ، وتبنى الفرد اتجاه بارانوى نحو الحياة كرد فعل لإحساسه بالعزلة والوحدة .

ب - المنطقة الوسطى بين المركزية والسطحية Intermediate region

وتتعلق بالسلطة التي يخضع لها الفرد ، وموقف الفرد من الآخرين وفي حالة الدوجماتيقي ، فإن الذي يحدد مواقفه من الآخرين هو درجة التشابه بين التنظيم الاعتقادي للآخرين ونظامه الاعتقادي . فكلما زادت درجة التشابه بين النظامين ، زادت درجة تقبله لهما ، والعكس صحيح .

ج - المنطقة السطحية Perpheral region

وهي تمثل القضايا الهامشية بالنسبة للفرد ، وهي قضايا ليس لها كيان خاص ، وإنما هي متفرعة ومشتقة من القضايا المركزية والقضايا المتوسطة بين المركزية والسطحية ، ولا يوجه الدوجماتيقيون اهتماماً يذكر إلى هذا النوع من القضايا الهامشية ؛ لأنها بعيدة عن مركز اعتقاد الفرد .

البعد الثالث : بعد إدراك الزمن Time perspective Dimension

يدرك الأفراد العاديون وحدات الزمن من ماضي وحاضر ومستقبل بطريقة منطقية متسلسلة ، فالماضي يؤدي إلى الحاضر ، ومعطيات الحاضر هي التي تصنع المستقبل ، ولكن الدوجماتيقي لا يدرك الزمن على هذا النحو .. إنما يبالغ في تجسيم إحدى وحداته ، فقد يركز على الحاضر فقط ويقطع كل صلة له بالمستقبل ، ولا يدرك الصلة بين الحاضر والماضي ، كما قد يغفل الحاضر ويعيش في الماضي معتقداً أن الحاضر فاسد ، وأن المستقبل مظلم ، وأن الماضي هو الذي يستحق التمجيد ، وأن من يحاول الإصلاح فعليه أن يعود إلى الماضي ، وقد لا يرى الدوجماتيقي في الحاضر إلا التعاسة فيخضع كل أمله في المستقبل ، دون أن يدرك منطق العلاقة بين الحاضر والمستقبل .

ويتكون المقياس من ٦٥ عبارة ، وقد قام أحمد عبد العزيز سلامة (١٩٧٢) بتعريبه ، ويتشابه مقياس الدوجماتيكية مع مقياس التسلطية (أدورنو ، ١٩٥٠) في أن كلا منهما يتبع طريقة ليكرت في قياس الاتجاهات .. فهناك ثلاث رتب للموافقة ، وثلاث أخرى للمعارضة . وتندرج الإجابة عبر هذا المتصل من موافقة تامة (سبع درجات) إلى معارضة تامة (درجة واحدة) .

صدق المقياس :

قام روكيتش (١٩٦٠) بحساب صدق المقياس ، عن طريق حساب الصدق التلازمي باتفاق نتائج مقياسه عن الدوجماتيكية مع مقاييس أخرى ، ثبت صدقها من

قبل ، مثل : مقياس التسلطية F.Scale ومقياس التمرکز السلالی E. Ethnocentrism على عينات مختلفة من طلبة بعض الجامعات الأمريكية والإنجليزية ، بالإضافة إلى بعض العمال الإنجليز .

ويوضح الجدول التالي الارتباط بين مقياس الدوجماتيقية والتسلطية والتمرکز السلالی على عينات من الطلبة الجامعيين وبعض العمال .

جدول (٢) : معاملات ارتباط الدوجماتيقية D والتسلطية F والتمرکز السلالی E.

| م | العينة والكلية | D , F | F . F . | D, E. | (E.F) E |
|---|--------------------|-------|---------|-------|---------|
| ١ | ٢٠٢ طالب امريكى | ٠,٦٧ | ٠,٥٦ | ٠,٣٦ | ٠,٦١ |
| ٢ | ١٣١ طالبا يهودياً | ٠,٦١ | ٠,٦٠ | ٠,٤٩ | ٠,٤٢ |
| ٣ | ١٥٣ طالبا أمريكيا | ٠,٦١ | ٠,٥٨ | ٠,٣٣ | ٠,٥٤ |
| ٤ | ١٨٦ طالبا أمريكيا | ٠,٥٤ | ٠,٦٤ | ٠,٣١ | ٠,٤٧ |
| ٥ | ١٣٧ طالبا إنجليزيا | ٠,٥٧ | ٠,٥٨ | ٠,٣٩ | ٠,٤٦ |
| ٦ | ٨٠ طالبا إنجليزيا | ٠,٦٢ | ٠,٦٢ | ٠,٣٢ | ٠,٥٧ |
| ٧ | ٦٠ عاملا انجليزيا | ٠,٧٧ | ٠,٥٦ | ٠,٥٣ | ٠,٦٧ |

ومن هذا الجدول يتضح صدق مقياس الدوجماتيقية لقياس ظاهرة الدوجماتيقية (ص ٤٢٢) .

وقد قامت عدة دراسات عربية للتأكد من صدق مقياس روكيتش عن الدوجماتيقية لقياس موضوع البحث ، ومن بين هذه الدراسات دراسة أحمد عمر روى (١٩٨١) ، الذى اعتمد فى التعريف على صدق المقياس بحساب الصدق الذاتى (٠,٨٨) (ص ١٤٥ - ١٤٦) .

وقام صلاح أبو ناهية (١٩٨٤) بتعرف صدق المقياس بواسطة صدق عباراته التى كانت دالة ما بين ٠,٢٦ : ٠,٧٥ فى حين تعرف عبد العال حامد (١٩٨٦) صدق المقياس بطريقة المقارنة الطرفية لقيمة النسبة المئوية الحرجة = ٢٠,٧ هى قيمة دالة عند مستوى ٠,٠١ .

ثبات المقياس :

استخدم روكيتش طريقتى إعادة الإجراء والاتساق الداخلى فى حساب معامل ثبات المقياس ، الذى وجد أنه يتراوح ما بين ٠,٦٨ و ٠,٩٣ بمتوسط قدره ٠,٨٠ .
وقد قام أحمد عمر روى (١٩٨١) بحساب معامل ثبات للمقياس بطريقة إعادة الإجراء بفواصل زمنى قدره (١٥) يوماً على عينة قوامها ٦٤ طالباً و ٦٩ طالبة من التعليم الثانوى .

وقد تراوح معامل الثبات ما بين ٠,٣٨ إلى ٠,٧٩ بالنسبة للذكور، أما الإناث فكان ما بين ٠,٤٨ إلى ٠,٨٠ .

وقام صلاح أبو ناهية (١٩٨٤) بحساب ثبات المقياس بطريقة التجزئة التصفية على عينة قوامها ٦٠ طالباً من المرحلة الثانوية ، وكان معامل الثبات ٠,٨٤ .

وقام عبد العال حامد (١٩٨٦) أيضاً بحساب معامل الثبات بطريقة إعادة الإجراء بفواصل زمنى قدره (٢١) يوماً على عينة قوامها (٢٤) طالبة من كلية التربية، جامعة المنوفية ، وكان معامل الثبات ٠,٧٦ .

طريق تغيير الاتجاهات

ولئن كانت الاتجاهات تتصف بالاستمرارية والثبات النسبى .. فإن عملية تغييرها أو تعديلها تعد عملية عسيرة ؛ لأن الاتجاهات تتحول بمرور الوقت إلى مكون من مكونات الفرد الشخصية ، ومن ثم يتعذر تغييرها أو تعديلها بسهولة .

ومع ذلك .. فقد أجريت دراسات عديدة لبحث وسائل تعديل الاتجاهات ، تبين منها أن هناك عدة طرق لتغيير اتجاهات الفرد بعضها يرجع إلى انتقال الفرد من جماعة إلى جماعة ، وبعضها يرجع إلى التغيير فى المواقف التى يمر بها الفرد ، كما أن بعضها قد يرجع إلى التأثير الذى تحدثه جهود المربين ووسائل الإعلام والدعاية .

ولعل من بين الأسباب التى تجعل الاتجاه سهل التعديل أو التغيير :

أن يكون الاتجاه ضعيفاً ، غير واضح ، هامشياً بالنسبة لأفراد الجماعة ، يختلف الأفراد كثيراً فى شأنه .

(١) أحمد عبد العزيز سلامة ، عبد السلام عبد الغفار : علم النفس الاجتماعى ، دار النهضة العربية،

١٩٨٢ .

(٢) Hoffer, E., The true believe, New York, 1962.

(٣) Ferrero, G., Principle of Tower, New York Putnam, 1942.

وهناك عوامل تجعل تغيير الاتجاه أمراً عسيراً ، من أهمها :

- (١) قوة الاتجاه ورسوخه وزيادة درجة وضوحه عند الفرد .
 - (٢) تحوله - بمرور الوقت - إلى مكون من مكونات شخصية الفرد ، والجماعة التي ينتمى إليها ، وهنا تلعب دفاعات الفرد دوراً كبيراً في تثبيت الاتجاه .
 - (٣) ضيق الأفق والانغلاق العقلي عند بعض الأفراد يجعل من تغيير أو تعديل الاتجاه مسألة شبه مستحيلة ؛ لأن الشخص الدوجماطيقي تتحول عنده الأفكار إلى ثنائية قطعية ، ليس فيها مساواة أو التقاء بين ما يؤمن به من اتجاهات ، وما يؤمن به الآخرون من اتجاهات .
 - (٤) محاولة استخدام العنف أو القهر في تغيير الاتجاهات يزيد من ثبات الاتجاهات ورسوخها .. ولهذا يؤكد أريك هوفر Hoffer ، إن العنف يولد التطرف ، وإن التطرف يشجع على العنف ، وأن من الصعب تحديد أيهما أولاً : وقد بين فيرار Ferrero بوضوح شديد أن مبادئ القوة تشجع على التطرف ، وأن التطرف يشجع على اعتناق مبادئ القوة ، فالثوار في الثورة الفرنسية كانوا كلما سفكوا مزيداً من الدماء ، زاد احتياجهم إلى اعتناق مبادئهم على أنها نتائج مطلقة ، .
- وثمة طرائق قد يمكن من خلالها تعديل اتجاهات الأفراد ، ولعل من أهمها :
- (١) تغيير الفرد للجماعة التي ينتمى إليها .
 - (٢) تغيير المواقف .
 - (٣) التغيير القسرى في السلوك .
 - (٤) الاتصال المباشر بموضوع الاتجاه .
 - (٥) التغيرات التكنولوجية التي تكتسح كل جمود أمامها .
 - (٦) التغيرات الاجتماعية التي تهز ثوابت المجتمع .
 - (٧) وسائل الإعلام بأدواتها المتعددة .
 - (٨) تأثير الدعاية المضادة في الاتجاه .

الفصل الرابع

- * فى معنى التنشئة الاجتماعية
- * فى معنى الثقافة
- * الوراثة والبيئة
- * التعلم والتنشئة الاجتماعية
- * وسائل التنشئة الاجتماعية

التنشئة الاجتماعية

الفصل الرابع

التنشئة الاجتماعية Socialization



تُعد عملية التنشئة الاجتماعية من العوامل التي تحدد سلوك الفرد وتشكله اجتماعياً ونفسياً وثقافياً وحضارياً ..

وتتلخص عملية التنشئة الاجتماعية في تلك الوثبة الكيفية التي تنقل الإنسان من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان ؛ فالإنسان يولد مزوداً بعتاد غرائزي محض ، بيد أنه يولد أيضاً وهو مزود بإمكانات الطبيعة الإنسانية في أرقى مراتبها ؛ لأنه مزود بتنظيم عقلي وخيال خصب وضمير أخلاقي ، ومن ثم .. فإن الغرائز عند الإنسان تعمل في هامش ضيق محدود بينما تحتل المقدمة لديه إمكانات لا حصر لها وليس لها وجود عند سائر عالم الحيوان .

وإنسانية الإنسان ، لا تتحقق بغير تربية وتطبيع اجتماعي ، وعن طريقها تتفجر إمكاناته وقدراته ومواهبه ، ويستطيع أن يعي ذاته ، وأن يبحث لنفسه عن هوية ، وعن موقع في صميم العالم .

يقول فروم (١٩٦٩) إن الإنسان يمكن تعريفه بأنه الحيوان الذي يستطيع أن يقول ، أنا ، فالحيوان موجود في باطن الطبيعة لا يتجاوزها وليس له وعي بذاته ، وليست به حاجة إلى الإحساس بهويته ، بيد أن الإنسان - بما أوتي من عقل وخيال- يستطيع الانفصال عن الطبيعة وأن يكون تصوراً عن نفسه ، وأن يشعر ويقول (I am I) .

وهذا الشعور بالكينونة يفجر إمكانات الإنسان ، ويحقق له الحرية والتقدم والمستقبل .

تفسير ذلك :

إن الحيوان يولد مكبلاً بمسارات الغريزة وقيودها ، غير أن الإنسان يولد حراً .. ومن ثم يكون عليه أن يكتشف المعرفة من جديد وأن يصوغ ويشكل حياته في سياق من عملية التطبيع الاجتماعي ، وعليه .. فإن مسارات الغريزة تولد مع الحيوان ، وتكون مفروضة عليه فرضاً لا يستطيع تجنبها ولا أن يحيد عنها ولا أن يبدل منها أو يغير فيها ولا أن يجدد في جوهرها أو مظهرها فأجيال الحمير تتعاقب جيلاً بعد جيل

بغير تغير ، وخلايا النحل منذ وجد النحل وإلى أن ينقرض النحل لا تتحول ولا تتبدل .
والأمر نفسه ينسحب على كافة أنواع الحيوان ، فليس في مقدور النحل أن يصنع خلية
على صورة أخرى ، أو يمتنع عن صنعها عامداً أو يعيش ليصنع شيئاً آخر .

ولكن الأمر يكون مختلفاً كل الاختلاف بالنسبة لعالم الإنسان ، فمن مكوناته أنه
يستطيع أن يغير ويشكل ويصوغ حياته من جديد في سياق من عملية التطبيع
الاجتماعي ويعبر فروم Fromm في كتابه المجتمع السليم The Sane Society عن
هذا المعنى ، فيرى أن الإنسان من ناحيته العضوية ووظائفه الفسيولوجية يعتبر جزءاً
من مملكة الحيوان ، والحيوان يؤدي وظائفه بما لديه من غرائز وما عنده من اتجاهات
عملية معينة يحددها جهاز عصبي موروث ، وكلما ارتقى الحيوان في سلم التطور
ازداد مرونة في اتجاهاته العملية ، وقل جموداً في تكوينه البدني وجهازه العصبي
الموروث ، بيد أن هناك عناصر وجودية ثابتة في جميع أنواع الحيوان برغم ارتفاع
بعضها في سلم التطور .. ويستطرد فروم فيبين أن العناصر الوجودية الثابتة التي
تلازم الحيوان في جميع مراتب تطوره خاضعة لقوانين الطبيعة البيولوجية ، فهو جزء
من الطبيعة لا يتجاوزها إلى ما وراءها ليس له ضمير اخلاقي ولا يدرك نفسه أو
وجوده وليس له عقل . ولا يعرف ما الحقيقة وإن كان ربما يدرك ما ينفعه .

وباختصار .. فإن الوجود الحيواني توفيق بين الحيوان والطبيعة ، في حين أن
الوضع جد مختلف عند الإنسان ، فعندما يولد الإنسان جنساً ، أو يولد فرداً ولا أقصد
به خروجه من حالة محددة مرسومة تحتلها الغرائز إلى صورة الوجود الإنساني ، وأن
الفرد في جميع مراحل النماية يتنازع في كل مرحلة اتجاهان متنازعان ، أولهما:
الخروج من الرحم من صورة الوجود الحيواني إلى صورة الوجود الإنساني . من
العبودية إلى الحرية . وثانيهما: العودة إلى الرحم ، إلى الطبيعة ، إلى حالة الأمن
والثبات ، حيث يدل تاريخ الفرد وتاريخ الجنس البشري على أن الاتجاه النماي أقوى
في الإنسان دائماً ، وأن أقوى نزوع في الإنسان كإنسان ، وأشد حاجاته إلحاحاً على
نفسه لا تتصل بحاجاته العضوية وإنما تمتد إلى كيانه الإنساني ومشكلة وجوده . وأن
أقوى دوافع الإنسان التي توجه سلوكه تنبثق من ظروف وجوده أو من موقفه
الإنساني ، من خروج الإنسان من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان .

وهنا نتساءل ! كيف يمكن لهذه الطفرة الكيفية أن تتحقق للإنسان ؟ إنها تتحقق
كمحصلة ، تتواصل بغير انتهاء لصراع ضرورات بيئة ، ومحددات وراثية ،
ومكونات نفسية من عملية التطبيع الاجتماعي .

ومعنى ذلك أن حياة الإنسان تنطوى على صراع ، وأن الصراع يكون بين أصدقاء ، وأن المحصلة هي ذلك الائتلاف الذى يشكل هوية الإنسان وشخصيته النفسية والاجتماعية والحضارية والثقافية .

وهنا يثور سؤالان :

الأول : ما المقصود بالثقافة فى عملية التنشئة الاجتماعية ؟

الثانى : ما المقصود بالبيئة والوراثة فى عملية التنشئة الاجتماعية ؟

أولاً : الثقافة :

لا يخلو مجتمع إنسانى - بدائيا كان أم متقدماً - من ثقافة خاصة تبلور اعتقادات الناس ونظم حياتهم وتشكل شخصياتهم ، وما يؤمنون به من عادات وتقاليد ومعايير قيمية ، وما ينتجونه من أعمال ، وما يبدعونه من فنون وآداب وعلوم . فاخترع ، الصفر ، فى الرياضيات قد يبدو اليوم اختراعا بسيطاً ، غير أن اختراع الصفر قد ساعد على الإقلال من رموز الأعداد وأتاح للإنسانية أن تنطلق كيميئاً إلى الأمام .

وأول من اخترع الصفر هم هنود المايا بهوندوراس جنوب جواتيمالا بأمريكا الجنوبية ، ونقل هذا الاختراع إلى الهند بعد خمسة قرون ، ثم نقله العرب الذين نقلوه بدورهم إلى أوروبا .

فالثقافة - إذاً - قاسم مشترك بين مجتمعات الإنسان جميعاً ، ودراسة مجتمعات الإنسان على اختلاف درجات ثقافتها أمر لا مناص منه لفهم طبيعة الإنسان وعوامل التنشئة الاجتماعية .

ويختلف العلماء فى وضع تحديد لما يمكن أن تكون عليه معنى كلمة ثقافة Culture ، وهذا الاختلاف مردود إلى ثراء مفهوم الثقافة وتعدد معانيه .

يعرف كروبير Kroeber الثقافة بأنها مجموع ما يتعلم وينقل من نشاط حركى وعادات وتكنولوجيا وأفكار وقيم وما ينشأ عنها من سلوك (عبد السلام عبد الغفار وآخر : ص ٨٣) .

ومعنى هذا أن المفهوم يتصف بالعمومية والشمول ، ويتسع ليستوعب كافة مناشط الإنسان حيث إنتاج الأفراد وعلاقاتهم الاجتماعية واتجاهاتهم ومشاعرهم وما يؤمنون به من قيم ومعتقدات .

وتعتبر المؤسسات والمنظمات كالأسرة ودور العبارة ونظم الدولة والمعتقدات وفكرة الصواب والخطأ .. كل هذا جزء من الثقافة ، كما أن مفهوم الثقافة يشير - كما يذكر سارجينت ووليامسون - إلى طرق التفكير والمشاعر التي يشترك فيها غالبية أفراد المجتمع الواحد ، .

ويؤصل فؤاد زكريا القصد من معنى الثقافة في استخداماتها المتعددة ، فيقول: «إن كلمة الثقافة من أكبر الكلمات تداولاً وهي في الوقت نفسه من أشدها غموضاً ، بحيث أن هناك احتمالاً كبيراً في أن يكون أى جدل حول الثقافة ، هو في حقيقته جدل بين أشخاص لا يتحدثون جميعاً عن شيء واحد ، ومع ذلك ففي استطاعتنا أن نهتدى ، ضمن المعاني المتعددة التي يستخدم لها هذا اللفظ ، الى معنيين رئيسيين، هما :

(١) الثقافة كما يستخدمها علماء الاجتماع ، ويمكن تعريفها بأنها: « ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة ، والاعتقاد والفن ، والقانون ، والأخلاق والعرف ، وأية قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه فرداً في المجتمع ، . ويقترب من ذلك التعريف الوارد في قاموس أكسفورد من أنها ، الاتجاهات والقيم السائدة في مجتمع معين ، كما تعبر عنها الرموز اللغوية والأساطير والطقوس وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية ، .

(٢) الثقافة بالمعنى الإنساني الرفيع ، ويمكن تعريفها بأنها صقل الذهن والسلوك وتنميته وتهذيبه ، أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال البشري لتحقيق هذا الهدف . ويلاحظ أن هذا المعنى يرتبط بالأصل اللغوي لكلمة Culture في اللغات الأجنبية وهي كلمة تعني تعهد النباتات وحرثه ورعايته حتى يثمر (منها جاءت كلمة زراعة Agriculture) ؛ بل إنه يرتبط بهذا المعنى نفسه في اللغة العربية ؛ لأن الأصل «ثقف» يحمل معنى التهذيب والصقل والإعداد . وهنا تكون الثقافة عملية رعاية وإعداد مستمر للعقل والروح البشرية ، أما معناها بوصفها منتجاً يؤدي هذه الوظيفة فلم تكتسبه إلا فيما بعد .

والمثل الأعلى للثقافة - إذاً - هي العلو إلى أقصى حد بالتكوين العقلي والروحي والأخلاقى للإنسان ، وبطريقته في التفكير وتأمل العالم وتدوقه ، أى إن الثقافة تصبح تكويناً ، تلقائياً في الإنسان ، لا يعود معه محتاجاً إلى عون خارجي . وقد ذهب

هربرت ريد ، إلى حد القول إن المثل الأعلى للثقافة هو أن تختفى الثقافة ، بمعنى أن تصبح مندمجة في شخصية الإنسان ، حتى دون أن تعرض على مسرح أو تقدم في كتاب .

ولا تعود الثقافة واعية بل ، صامتة ، تكون جزءاً من كيان الإنسان .

وعلى أية حال .. فلدينا الآن معنيان محددان للثقافة ، وعن طريق المقارنة بينهما يمكننا أن نلقى مزيداً من الضوء على كل منهما ، وإدراك العلاقات وأوجه الاختلاف بينهما .

إن المعنى الأول اجتماعي أو جمعي بطبيعته ؛ لأن الثقافة هنا توصف بأنها سمة للمجتمع نفسه ، أو صفة لا يكتسبها الفرد إلا بحكم انتمائه لمجتمع معين ، ويكاد علماء الاجتماع يقولون إن الثقافة هي ما يميز الجماعة البشرية عن أي تجمع حيواني ؛ لأن الإنسان وحده هو الذي يضع رموزاً وأنظمة ، تنعكس عليها قيمه واتجاهاته أما المعنى الثاني فهو فردي بطبيعته ؛ لأن عملية الصقل والتهديب تتعلق بفرد معين ، أو مجموعة من الأفراد يتسم كل منهم بطبيعة مستقلة ، كما أن الناتج الثقافي في معناه الرفيع ، مرتبط ارتباطاً عضوياً بالفرد الذي أبدعه ، على عكس الناتج العلمي الذي يفقد ارتباطه بشخصية مكتشفه بمجرد أن يشبع ويعترف به على نطاق واسع .

ومن ناحية أخرى .. فإن الثقافة بالمعنى الذي يستخدمه الاجتماعيون تمثل الحد الذي يكتسبه الفرد بحكم انتمائه إلى المجتمع ؛ فهي تمثل نقطة البداية في حياة الإنسان الواعية ، لأن كل فرد يبدأ بقبول ثقافة مجتمعه ، أي بقبول القيم والاتجاهات التي تسود في ذلك المجتمع عن طريق التنشئة الاجتماعية . أما الثقافة بالمعنى الثاني فتمثل الحد الأقصى الذي لا يصل إليه إلا القليلون ، ومن هنا كانت نقطة نهاية ، أو هدفا يسعى الفرد طوال حياته إلى تحقيقه .

ومن ناحية ثالثة .. فإن الثقافة بالمعنى الأول بطيئة الحركة ، تعتمد على التطور الآلي ، بل إنها تكاد تكون ساكنة راكدة ، وبخاصة في المجتمعات التقليدية ، أما الثقافة الرفيعة ، أو النواتج العليا للثقافة ، فهي سريعة الحركة ؛ لأن قوامها هو صقل الذات وسعيها الدائم إلى التنقل إلى مستويات أعلى .

ويترتب على هذا كله فارق أخير مهم ، هو أن الثقافة بالمعنى الأول شاملة ، توجد حيثما يوجد أي مجتمع إنساني ، أي أن أشد المجتمعات بدائية له «ثقافة» بهذا المعنى ، أما في معناها الثاني فهي محدودة النطاق ، انتقائية ، لا يتسنى بلوغها إلا لخبذة مختارة .

ولعل فيما قام به علماء الأنثروبولوجيا من بحوث ودراسات على المجتمعات البدائية ما يؤكد أن لكل مجتمع ثقافته ، وأن هذه الثقافة تتحول إلى مكون من مكونات ، تساهم فى تشكيل شخصيته وطريقة تفكيره ونظامه القيمى ومسالكه الحياتية وتصوره لنفسه ولواقعه وللعالم المحيط به .

ويخبرنا ول ديورانت فى كتابه الفذ « تاريخ الحضارة » عن أخلاق الجنس ودور التنشئة الاجتماعية فى تشكيل شخصية الفرد فى المجتمع القديم فيقول :

« إن أهم مهمة تقوم بها الأخلاق هى دائماً تنظيم العلاقة الجنسية ؛ لأن غريزة التناسلية تخلق مشكلات قبل الزواج وبعد الزواج وإبان الزواج ، وهى تهدد فى كل لحظة بإحداث اضطرابات فى النظام الاجتماعى لإلحاحها وشدتها وازدراءها للقانون وانحرافاتهما عن جادة الطبيعة ، وأولى مشكلاتها تقع قبل الزواج . أ تكون العلاقات الجنسية عندئذ مقيدة أم طليقة ؟ وليست الحياة الجنسية بالطليقة من كل قيد حتى فى عالم الحيوان . فرفض الانثى للذكر إلا فى فترات التهييج ، يحصر الحياة الجنسية عند الحيوان فى دائرة أضيق جداً من مثيلتها عند الإنسان ذى الشهوة العارمة ؛ فالإنسان يختلف عن الحيوان - كما يقول بومارشيه Beaumarchais فى أنه يأكل بغير جوع ، ويشرب بغير ظمأ ، ويتصل بالجنس الآخر فى فصول السنة وأنتك لتجد بين الشعوب البدائية ما يشبه قيود الحيوان أو ما يضادها . فى تحريم الاتصال بالنساء فى أيام حيضهن ، ولو استثنيت هذا القيد العام ، وجدت الاتصال الجنىسى قبل الزواج طليقاً إلى حد كبير فى الجماعات البدائية الأولى ، فعند هنود أمريكا الشمالية ، يتصل الشباب بالشابات اتصالاً حراً دون أن يكون ذلك عائقاً للزواج ، هى الشيوعية الجنسية وكذلك توجد مثل هذه الحرية قبل الزواج فى قبيلة « السويوت » Soyots فى سيبيريا ، وفى « ايجورت » Igorotst فى الفلبين ، وأهالى بورما العليا والبوشمن فى أفريقيا ، وقبائل نيجيريا وأوغندا وجورجيا الجديدة وجزر اندمان وتاهيتى وبرلينديا وأسام وغيرها .

فى مثل هذه الظروف لا ينتظر أن يجد عهراً كثيراً فى المجتمع فهذه المهنة التى هى « أقدم المهن » حديثة نسبياً ؛ لأنها لم تنشأ إلا مع ظهور الملكية واختفاء الحرية الجنسية قبل الزواج ، نعم لقد تجد فتيات يبعن أنفسهن حيناً ليجمعن مهورهن أو ليحصلن مبلغاً للمعابد ، لكن ذلك لا يحدث إلا إذا كان التشريع الخلقى فى الإقليم باعتباره تضحية تعبدية لمساعدة أبوين مقتصدين أو لإشباع آلهة جائعة .

وأما العفة فهى الأخرى مرحلة جاءت متأخرة فى سير التقدم ، فالذى كانت تخشاه العذراء البدائية لم يكن فقدان بكارتها ، بل أن يشيع عنها أنها عاقر ، فالمرأة إذا

ما حملت قبل زواجها كان ذلك في معظم الحالات معيناً لها على الزواج أكثر منه عائقاً لها في هذا السبيل ؛ لأن ذلك الحمل يقضى على كل شك في عقمها ، ويبشر بأطفال يكسبون لوالدهم المال ، بل إن الجماعات البدائية التي قامت قبل ظهور الملكية ، كانت تنظر إلى بكاره الفتاة نظرة ازدراء ؛ لأن معناها عدم إقبال الرجال عليها ، حتى كان العريس من قبيلة ، كامشادل ، Kamchadel إذا ما وجد عروسه بكرة ثارت ثورته و ، طفق يسب أمها سباً صريحاً لهذه الطريقة المهمة التي قدمت بها ابنتها إليه ، وفي حالات كثيرة كانت البكاره حائلاً دون الزواج ، لأنها تلقى على الزوج عبئاً ثقيلاً على النفس ، وهو أن يخالف أمر التحريم الذي يقضى عليه بالألا يريق أحد دم من أعضاء قبيلته ، فكان يحدث أحياناً أن تسلم البنات أنفسهن لغريب عن القبيلة ليزيل عنهن هذا العائق الذي يحول بينهم وبين الزواج ، ففي التبت تبحث الأمهات ، في جد عن رجال يفضون بكاره بناتهن ، وفي ، مليار ، ترى الفتيات أنفسهن يرجون المارة في الطريق أن يؤدوا لهن هذه المكرمة ؛ لأنهن مادم أبكاراً فهن لا يستطعن الزواج . وعند بعض القبائل تضطر العروس أن تسلم نفسها لأضياف العريس قبل دخولها إلى زوجها ، وعند بعضهم يستأجر العريس رجلاً ليفض له بكاره عروسه ، و قبائل أخرى في الفلبين يقوم موظف خاص يتقاضى راتباً ضخماً تكون مهمته أن يؤدي هذا العمل نيابة عن اعترموا الزواج من الرجال .

ومما سبق يتضح لنا نسبية الأخلاق ، وأن الثقافة نبت اجتماعي وحضاري للمجتمع ، وأن الأفراد هم التعبير الحقيقي عن ثقافة المجتمع من خلال ما يقومون به من أدوار متعددة وأن تقسيم الأدوار قائم في كل جماعة وكل مجتمع . فكل شخص مكانة من ثبت الأعمار والأعمال والقرباة والجنس ، بل إن عدم انتساب الفرد إلى جماعة يتضمن وضعاً خاصاً ودوراً خاصاً .

الأدوار الاجتماعية Social Roles

ونسأل ما الدور Role : يجيب لنتون Linion بأنه جملة النماذج الثقافية المرتبطة بوضع اجتماعي معين ، وتشتمل هذه النماذج على اتجاهات وقيم ، وسبل سلوك معينة ، تصدر عن الشخص مرتبطة بوضعه الاجتماعي ، كما تشتمل على اتجاهات ، وأنواع سلوك معينة ، يتوقعها الشخص من جانب غير المنتمين إلى جهازه نفسه وثمة علاقة بين التصورين ، تتحدد في ارتباط كل وضع اجتماعي ، بدور ، وارتباط كل دور ، بوضع ولكن الارتباط لا يبلغ حد الاندماج ، فبينما يستند الوضع الاجتماعي إلى شروط تتعلق بالسن والجنس والعمل والمركز ... إلخ ، يستند الدور إلى

الوضع ، فالدور هو الوجه الدينامي للوضع ، فهو الدليل والإثبات الواضح على وجوده وقيامه .

وفي دراستها عن قبيلة المانوس Manus في شمال غينيا الجديدة توضح مرجريت ميد Mead طبيعة الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها أفراد هذه القبيلة ، فهم يسكنون أكواخاً من البوص ترتكز على دعائم أقيمت في أعماق البحيرة الخضراء ، وهم يعيشون بالطريقة نفسها التي عاش بها أجدادهم منذ آلاف السنين ، والنشاط الأساسي عندهم التجارة ، ومن ثم يتحتم على كل فرد في القبيلة أن يتصف بكفاية تجارية كبيرة . ويتميز أهل هذه القبيلة بالصرامة والجد في عقدهم الصفقات والأعمال شأنهم في ذلك - كما تذكر الباحثة - رجال الأعمال الأمريكيين ، وهنا يكون بمقدورنا أن نتنبأ بالكثير من سلوكيات أهل هذه القبيلة ، فهم لا يعترفون بأوقات الفراغ وما يتخللها من أحاديث أو قصص أو موسيقى أو رقص أو مطارحة الغرام ، فالأحاديث جادة تتمركز حول موضوعات محددة غالباً ما تكون تجارية ، والغناء لايسمح به إلا في أوقات الملل ، أما الرقص فيقام احتفالاً بنجاح الصفقات التجارية ، والصداقة من وسائل الثقافة ، ولا يعرف الأهالي من أنواع الحب إلا الحب الجنسي بأساليبه البدائية .

وفي هذا المجتمع الممتلئ جداً وكفاحاً ، نجد أن الأطفال بغير دور فهم يعيشون طفولتهم بحرية مطلقة ، ويشاكسون الآباء بعناد صرف ، والأم في هذا المجتمع تقوم بدور الأم كاملاً من حيث إرشاد الأبناء والعناية بهم .

وقد أتاحت هذه المجتمعات وغيرها أمام العلماء والباحثين الفرصة لدراسة بعض جوانب الطبيعة الإنسانية ، وما يستند إليها من تقسيم للعمل وتعدد للأدوار وتنشئة اجتماعية هي في صميمها نسبية تختلف من مجتمع لآخر ، ففي المجتمع البدائي والمتحضر الفرد يقوم بعدد من الأدوار ، ومن ثم يتغير سلوكه نتيجة لأوضاعه ومواقفه الاجتماعية المختلفة ، فالطالب الذي يجلس أمامي الآن يقوم بدوره كطالب عليه أن يتمثل القيم الجامعية ، وأن يستمع وأن يحاور وأن يسعى لتحقيق ذاته كطالب علم ومعرفة وحينما يجلس مع رفاقه فإن دوره يختلف ، وإذا ما اختلى بصديق له أو صديقة له فإنه سيقوم بدور ثالث ، وإذا عاد من كليته إلى منزله فعليه أن يقوم بدور الابن وبدور الأخ أو الأخت ، وهكذا . عليه إذاً أن يقوم بعدة أدوار متباينة ، ونفس هذا الطالب قد تحتم عليه الظروف أن يعمل عملاً إضافياً وأن يقوم بدور جديد، كأن يشتغل بحرفة لها تقاليد وأسلوب أفرادها في التعامل ، وقد يتعارض هذا الدور الجديد مع

كونه ابناً وطالبا في الجامعة ، وقد يتمخض عن هذا التعارض ما يسمى « بصراع الدور » ، الذي قد يسهم في نشأة « العصاب » ، ومن هنا كان احتمال الصراع والتعارض بين الأدوار قائماً ، ومن ثم فإن فهم الشخصية يتحتم علينا أن نضع في اعتبارنا دينامية السلوك الفردي ، بمعنى أن ندخل في حسابنا ما يقوم به الفرد من جهد للمصالحة بين الأدوار المتعددة كي يتجاوز الصراع بين الأدوار ، وقد يخفق في تحقيق هذه المصالحة فينشأ العصاب النفسي ، ويسهم الدور في تحديد بعض جوانب الشخصية ، فقل لى ماذا تفعل أقل لك من أنت ! وما الإنسان إلا مجموع أفعاله التي يحققها ، والتي يتوق أيضاً إلى تحقيقها في المستقبل .

ثانياً : الوراثة والبيئة :

١ - الوراثة :

يبدأ تأثير الوراثة منذ الإخصاب في رحم الأم ، وتحتوى بويضة الأم المخصبة تحتوى على ٢٣ من الصبغيات التي تسمى كروموزومات Chromosomes ، ويحتوى الحيوان المنوى للذكر على ٢٣ من الصبغيات التي تسمى أيضاً كروموزومات ، وتحتوى هذه الكروموزومات على الجينات Genes وهذه الجينات هي التي تحمل الاستعدادات الوراثة . ويحتوى كل كروموزوم على ١٠٠٠ جين ، ومعنى ذلك أن كل الخصائص البدنية التي يأخذها الطفل عن أبيه وأمه توجد ضمن هذه الكروموزومات الستة والأربعين بعد الجماع الجنسي بين الرجل والمرأة ؛ بمعنى أن الجينات الوراثة هي التي تحدد لكل كائن ما سيكون عليه من حيث طول القامة ولون البشرة ولون العينين ووزن البدن .

ولكن ينبغي التنبيه إلى أن هذه الجينات الوراثة لا تكون فعالة إلا عند توافر شروط بيئية معينة .

٢ - البيئة :

ثمة تفاعل بين ما هو وراثي وما هو بيئي ، وهذا التفاعل من شأنه أن يحدد ما يمكن أن يكون عليه الكائن الحي إلى حد كبير ؛ فالجينات الوراثة لا تتفاعل مع بعضها فحسب ، بل تتأثر بمؤثرات البيئة الخارجية .

وعلى هذا .. فالبيئة تدخل في تفاعل مع الكائن الحي من حيث هي وسط جغرافي لا تستطيع يد الإنسان أن تناله بالتغير كالحر والبرد ، البيئة الجبلية ، والاستوائية ، الساحلية وما إلى ذلك من بيئات جغرافية ، تتحكم فيها عوامل الطبيعة من طقس ومناخ وتضاريس وكثافة سكانية وموارد اقتصادية .

وهناك البيئة الاجتماعية ، وما تمثله بالنسبة للفرد من معايير وقيم الأديان ، ومعايير ومبادئ المجتمع وعرفه وعاداته وتقاليده وثقافته وما تنطوي عليه من توجهات في الفكر والسلوك والمواقف ، تدخل ضمن عملية التطبيع الاجتماعي وتؤثر على نمو الأفراد .

والإنسان في مسيرته الحياتية ائتلاف من تفاعلات عوامل الوراثة ومتغيرات البيئة ، ولهذا يأمل علماء الوراثة تحسين الاستعدادات الوراثية بتوفير كل العوامل التي تساعد على ذلك ، وكذلك يأمل علماء البيئة بتحسين البيئة - طبيعياً واقتصادياً واجتماعياً وحضارياً - حتى يتسنى تحسين المؤثرات البيئية لتسهم بشكل إيجابي في تهيئة الاستعدادات الوراثية لتحقيق التنشئة الاجتماعية السليمة .

وعند الحديث عن عوامل الوراثة ومؤثرات البيئة ، ينبغي أن تتجه الأهمية إلى تأثير الغدد أيضاً في عملية النمو والتنشئة الاجتماعية .

٣ - الغدد :

يحتوى الجسم على ثلاثة أنواع من الغدد : غدد ذات قنوات تفرز إفرازاً خارجياً ، وغدد صماء تفرز إفرازاً داخلياً ، وأخيراً الغدد المشتركة .

تصب الغدد الأولى إفرازاتها داخل تجاويف في الجسم أو على سطح الجسم ؛ يشترك بعضها في عمليات الهضم والتغذية مثل الغدد اللعابية والمعدية والمعوية ، وبعضها الآخر يقوم بعمليات الإخراج والتخلص من الفضلات كالكليتين والغدد العرقية والغدد الدهنية والغدد الدرقية .

ومن الغدد المشتركة التي تفرز إفرازاً داخلياً وخارجياً معاً البنكرياس الذى يساهم بإفرازه الخارجى في عمليات الهضم والتمثيل وداخلياً الأنسولين والغدد الجنسية التى تكون الخلايا التناسلية : البويضات لدى الأنثى ، والحيوانات المنوية لدى الذكر ، كذلك تفرز داخلياً فى الدم الهرمونات الجنسية .

أما الغدد الصماء فليست لها قنوات ، بل هى تصب إفرازها الداخلى مباشرة فى الدم .

وتقوم الغدد الصماء بدور العوامل المساعدة والمعدلة فى العمليات وأوجه النشاط التالية :

نمو الجسم ، عمليات الهدم والبناء ، والنمو العقلى ، والسلوك الانفعالى ، ونمو الخصائص الجنسية الثانوية ، وتحقيق التكامل الكيميائى .

ومن أهم الغدد الصماء :

- ١ - الغدة النخامية .
- ٢ - الغدة الدرقية .
- ٣ - الغدة جارات الدرقية أو الكظرية .
- ٤ - الغدة الإدرينالية أو فوق الكلوية .
- ٥ - البنكرياس .
- ٦ - الغدة الجنسية (المبيضان عند الانثى والخصيتان عند الذكر) .

الغذاء :

يلعب الغذاء دوراً مهماً في النمو البدني والعقلي والانفعالي والاجتماعي لدى الفرد ؛ فسوء التغذية يعوق القدرة على التحصيل والإدراك والتذكر وما إلى ذلك من عمليات معرفية ، بالإضافة إلى إعاقته نمو الخلايا وإمداد الطفل بالطاقة اللازمة للحركة والنماء .

ومن الزاوية الوجدانية .. فإن الرضاعة الطبيعية لدى الطفل تمنحه شعوراً بأنه منتم إلى أمه ، وأنه طفل آمن وسعيد ويشعر بالتواصل والدفء والحنان ، وبأنه مرغوب فيه .

واتساع المطالب البيولوجية للفرد ومن بينها الغذاء - كمّاً وكيفاً - من شأنه أن يجعل الفرد يشعر بأنه بدأ يخرج من مملكة الحيوان ؛ حيث الرغبة الملحة للإشباع إلى مملكة الإنسان حيث الابتكار والإبداع .

ومن هنا .. فإن الغذاء يعتبر أحد العوامل الرئيسية ، التي تؤثر في نمو الفرد وتشكيل شخصيته اجتماعياً .

وللغذاء ثلاث وظائف رئيسية :

- ١ - تزويد الفرد بالطاقة .
- ٢ - تجديد بناء الخلايا التي تلفت .
- ٣ - وقاية الجسم من الأمراض .

ومما سبق .. يتضح أن الوراثة تؤثر في نمو الفرد ، وأن عوامل الوراثة تبدأ منذ الإخصاب في رحم الأم ، وأن هناك تفاعلاً بين عوامل الوراثة ومؤثرات البيئة ، وأن البيئة هي جماع ما هو طبيعي وحضاري واجتماعي وتاريخي ، وأن الغدد بوظائفها

تقيم فى نمو الإنسان وفى ارتقائه ، وقيامه بكافة مناشطه الحياتية ، وأن الغذاء هو العامل الضرورى والرئيسى لاستمرار النمو .

فالإنسان نتاج ما هو نفسى ، وما هو اجتماعى ، حضارى ، ثقافى ، باختصار هو كل نفس عضوى اجتماعى لا يتجزأ .. تمضى حياته بوصفه « صيرورة نمائية » تتجه صوب تحقيق الذات حيث التحقق الخلاق لإمكاناته وقدراته فى الواقع .

التعلم والتنشئة الاجتماعية :

يؤكد علماء النفس دور التعلم فى التنشئة الاجتماعية ، فالنقلة الكيفية فى حياة الإنسان من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسان يستحيل لها أن تتحقق بغير تعلم ، والتعلم لا يتحقق إلا على أرضية من النضج ، والنضج يشير فى علم النفس إلى جملة العوامل الوراثية الفطرية التى يخرج بها الكائن إلى الحياة ، والتى تتفتح من تلقاء ذاتها فى اتجاه بعينه شريطة أن تتوافر لها شروط بيئية بعينها ، أما مصطلح التعلم فيشير إلى جملة التأثيرات البيئية ، ويعتبر مرادفاً للاكتساب والخبرة والتطبيع .. ،

وبهذا يتضح أن التعلم هنا اجتماعياً يعنى اكتساب الفرد مهارات سلوكية وقيم ومعايير اجتماعية وخبرة فى سياق من عملية التنشئة الاجتماعية .

وطبقاً لما يقوله فؤاد البهى (١٩٨١) ، فإن روتر Rotter فى نظريته قد أكد ستة حاجات حققها التعلم الاجتماعى ، وهى : تأكيد المكانة الاجتماعية ، والحماية الناتجة عن التعلق ، والسيطرة ، والاستقلال والحب ، والراحة البدنية ، والتعلم الاجتماعى الذى يحقق هذه الحاجات ينحوب بالتنشئة الاجتماعية إلى وجهتها الصحيحة ، (ص ١٥٩) .

وطبقاً لما تقوله نظرية التحليل النفسى .. فإن الجهاز النفسى للفرد يتكون من الهى ، الأنا ، والأنا العليا .. الهى تعتبر الجزء اللاشعورى الذى يولد الإنسان مزوداً به ، فهى مستودع الغرائز والمكبوتات وكل ما هو مستهجن ، وغير أخلاقى وغير منطقى ، ولها مبدأ واحد تسعى إلى تحقيق إشباعه هو مبدأ الواقع ، بيد أن « الأنا » يتشكل من المؤثرات الاجتماعية ويتقوى بفعل التنشئة الاجتماعية ، ويسعى إلى إشباع رغبات الهى فى إطار اجتماعى ، ولذا فهو لا يكون إلا ضمن « مبدأ الواقع » ، وأن شخصية الفرد تتحدد قوتها أو ضعفها طبقاً لقوة الأنا أو ضعفها .

أما الأنا العليا فتمثل « الضمير » وتتشكل طبقاً لقيم ومعايير المجتمع ، التى يكتسبها الطفل من الأسرة .

وعليه .. فإن التنشئة الاجتماعية ترتبط فى نشأتها وفى تطورها بعمليتين ، هما: تشكيل ، الأنا ، وتشكيل وتكوين الأنا العليا .

وتنحو المدرسة السلوكية منحى آخر فى تفسير التعلم من حيث ارتباطه بعملية التنشئة الاجتماعية ، ويتحدد هذا المنحى فى رفضها ما يسمى باللاشعور ، وإنكارها له ، ومن ثم لا يبقى للإنسان إلا شعوره ومساكنه الشعورية ، وما يكتسبه من خبرات وسلوكيات عن طريق العادة ويتأثر من البيئة ، وما الشخصية إلا تنظيم من عادات ، وأن هذا التنظيم هو الذى يحدد سلوك الفرد ويميزه عن غيره من الأفراد .

وسواء كان التعليم عن طريق التوحد وتكوين الأنا ، والأنا العليا ، أو كان نتاجا لذلك الانتظام الفريد من عادات يكتسبها الفرد عن طريق استجابته لمثيرات البيئة .. فإن التعلم يمثل العصب الرئيسى فى عملية التنشئة الاجتماعية ، والتي من خلالها يتحول الفرد من كائن عضوى إلى كائن إنسانى ينتمى إلى عالم الإنسان الفريد .

وسائل التنشئة الاجتماعية :

تعد الأسرة الوسيلة الرئيسية فى عملية التنشئة الاجتماعية ، فمنها يخرج الطفل إلى الوجود ، وفى كنفها ينمو وتشكل الجذور الجنسية لما يمكن أن تكون عليه شخصيته فى المستقبل ، فعن طريق الأسرة يتشكل نفسياً واجتماعياً ، وتتأثر مكوناته النفسية والاجتماعية بالمستوى الاجتماعى والاقتصادى الذى تعيشه الأسرة وبوضعه فى الأسرة ، من حيث الذكورة أو الأنوثة ، ومن حيث ترتيب الأبناء أيضاً .

وعن طريق الأسرة يكتسب معايير وقيمه الاجتماعية ، تنفجر طاقاته وإمكاناته ومواهبه ، متأثراً بالعلاقة بين الوالدين .

ولعل فيما كتبه أريكسون عن مراحل عمرية من خلالها يتشكل الطفل ، وتتكون ذاتيته النفسية والاجتماعية ما يلقي الضوء على أهمية الأسرة ودورها المهم فى عملية التنشئة الاجتماعية ولاسيما فى المراحل الأربع الأولى من حياة الطفل والتي تتمثل فى :

١ - الشعور بالثقة فى مقابل عدم الثقة Trust VS. Mistrust

وتحتل السنة الأولى من عمر الإنسان ، وتتميز بشعور الطفل بالثقة فى نفسه وفى غيره من الناس وفى العالم بوجه عام ، وقد يبلغ فى ثقته حداً لا نهاية له ، وقد يفقدها فقداً تاماً ، ويتوقف ذلك على نوع الرعاية التى يتلقاها داخل الأسرة ، فالطفل الذى تلبي حاجاته ، ويجد من يدله ومن يتحدث إليه ويشاركه اللعب والضحك ،

ويتصور العالم مكاناً آمناً ، والناس أهلاً للثقة ، أما إذا لم تتوافر الرعاية النفسية والاجتماعية والعضوية للطفل داخل أسرته .. فإنه يشعر بأن الناس غير جديرين بالثقة، وأن حياته غير آمنة ، ويتكون لديه شعور بالخوف والشك وفقدان الثقة في نفسه، وفي الآخرين وفي العالم المحيط به .

ويؤكد أريكسون أن الشعور بالثقة أو فقدانها لا يتكون في السنة الأولى من حياة الطفل بدرجة من الثبات يتعذر معها تغيير الاتجاه ، ويضرب بذلك مثلاً ، أن الطفل الذي يلتحق بالمدرسة يشعر بفقدان الثقة ، قد يتعلم على يد معلم أو معلمة تمنحه ما فقده من شعور بفقدان الثقة في أسرته كما أن الطفل الذي يجد في سنته الأولى ما يقيم دعائم الثقة بالنفس وبالناس والعالم ، قد يفقد هذه الثقة إذا ما تصدع كيان الأسرة بالخلافات بين الوالدين أو وقع الانفصال بينهما .

فئة حركة دينامية بين الداخل والخارج ، بين ذات الطفل والعالم المحيط به ، من شأنها أن تحقق له الأمن والثقة ، أو تفقده هذا الشعور بالأمن ، ومن ثم الثقة بنفسه وبالأخرين .

٢ - الشعور بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك :

Autonomy Vs. Shame and Doubt

وتحتل السنة الثانية والثالثة من عمر الطفل ، وفيها يتحدد مدى قدرة الطفل على الاعتماد على نفسه ، ويرجع ذلك إلى القدرات الحسية والحركية والعقلية التي تنمو وتعبر عن نفسها عند الطفل ، وفي هذه المرحلة يستطيع الطفل أن يمشي وأن يتسلق ، وأن يفتش عن حاجاته ، وأن يفتح المغلق ويغلق المفتوح ، وأن يجذب الأشياء وأن يدفع ، ويمسك بقبضته ، والطفل بهذه القوات الجديدة فخور بنفسه ، يجب أن يعمل بنفسه كل شيء ويأكل ويرتدى ملابسه ، ونحو ذلك .. أي أن يتخلق كموجود مستقل من خلال قدراته في كل منشط من مناشط الحياة ، ونموه كموجود مستقل يتوقف على طبيعة التنشئة الاجتماعية التي يحيا في كنفها داخل الأسرة ، والتي قد تنمي لديه الاعتقاد بأنه قادر على التحكم في عضلاته ، وفي دوافعه وفي بيئته ، أو قد تسلبه الشعور بالاستقلالية ومن ثم الخجل والشك .

وكل من الرعاية الزائدة أو الرعاية المتسلطة يسلب الطفل الشعور بالاستقلالية ويهيئ المسرح النفسي للطفل لدخول الشعور بالخجل من نفسه ، والشك في قدراته وفي الواقع الخارجي . على أن هذا التوازن بين الاستقلالية من ناحية أو الشك والخجل

من ناحية أخرى قد يتغير سلباً أو إيجاباً ؛ وفقاً لما يعيشه الطفل من مراحل نمائية لاحقة في سياق التنشئة الاجتماعية .

٣ - الشعور بالمبادأة مقابل الشعور بالذنب : Initiative Vs. Guilt

وتحتل السنة الرابعة والخامسة من عمر الطفل ، حيث يدخل إلى المرحلة الثالثة ، والتي تتميز قدراته الحسية ، والحركية ، والعقلية ، والوجدانية ، واللغوية ، فهو يستطيع أن يجرى ، وأن يركب دراجة ، وأن يبادر بأنشطة حركية يقوم بها من تلقاء نفسه ، محاولاً السيطرة على البيئة المحيطة ، مخترقاً حجب المجهول ، منقياً ومتفرداً في تصرفاته ، لا يكتفى بتقليد الآخرين ، بل يقوم بكل ما من شأنه أن يقوى سيطرته على ما يحيط به ، وفي هذه المرحلة تتمايز قدراته اللغوية والتصويرية في هيئة حوارات وتصورات يتخذ فيها فعل المبادأة بكل تلقائية الحركة ، وينمو لديه الضمير الخلقى ويستطيع إلى حد كبير أن يميز بين الصواب والخطأ ، وما هو خير وما هو شر ونحو ذلك .

ويؤكد أريكسون في هذه المرحلة - شأنها شأن غيرها من المراحل - ديناميكية الحركة بين الطفل وبين المحيط الأسرى الذي ينشأ فيه ، ويرى أن الطفل في هذه المرحلة يتذبذب بين طرفين : المبادأة في طرف والشعور بالذنب في الطرف الآخر .

وكيما تتغلب روح المبادأة على الشعور بالذنب ، يجب على الوالدين أن يستجيبا لحركة الحياة للطفل بتشجيعه على الأنشطة التي تنمى فيه المبادأة كالجرى وركوب الدراجات وممارسة الرياضة واقتحام المجهول وركوب الخطر ، ومن ثم لا يسخر من نشاطاته ولا يصدانه عن التساؤل ؛ حتى لا ينمي لديه الشعور المستمر بالذنب ، وأنه غير مستطيع بنفسه بل بمساعدة الآخرين ، محاصراً في تصرفاته بترسانة من الأوامر والنواهي ، أن افعل ولا تفعل .. كل ذلك من شأنه أن يسلبه روح المبادأة الجسورة ، وينمى في أعماقه الشعور بالذنب والخوف والشك في قدراته وفي إمكاناته ودوافعه وتساؤلاته ، وما إلى ذلك .

٤ - الشعور بالعمل مقابل الشعور بالدونية : Industry Vs. Inferiority

تمتد هذه المرحلة من السادسة حتى البلوغ ، وتأتى هذه المرحلة متممة للمرحلة السابقة وتسمى بالتعبير الفرويدي بمرحلة الكمون ، تلك التي يضمحل فيها الطفل الحب لأمه ومنافسة لأبيه تلك المنافسة الأديبية ، التي تحدث عنها فرويد ويتفق معه فيها أريكسون .

وفي هذه المرحلة تتفتح قدرات الطفل العقلية والتصورية ، ويستطيع استنتاج النتائج من المقدمات ، ويستطيع أن يمارس مناشط اللعب والتعلم وفقاً لقواعد اللعب والعمل والتعلم .

ويؤكد أريكسون دينامية التفاعل النفسي والاجتماعي ، الذي تتم به هذه المرحلة فوق متصل في إحداث طرفيه ، يكون الاجتهاد والمثابرة وفي الطرف الآخر يكون الشعور بالنقص والدونية .

والعامل المميز في هذه المرحلة هو الاهتمام بالكيف على حساب الكم ؛ فالطفل يهتم بالكيفية التي تصنع بها الأشياء ، وجوهر حركتها ، والوظيفة التي تؤديها . ومن ثم كان الاجتهاد والمثابرة وإطلاق العنان للتصورات العقلية سمة مميزة لهذه المرحلة . ويدعونا أريكسون إلى تشجيع الأطفال على الجهد والمثابرة في صنع أدوات الواقع الذي يعيشه بطريقة عملية (كنماذج الطائرات وبناء المنازل أو الطهو أو التطريز ونحو ذلك) ، وإذا نحن شجعنا الطفل على ذلك نمت قدراته وأحب العمل كقيمة وتفتحت قدراته وتعلم كيف يكون الجهد ويكون الإصرار لبلوغ الهدف وتعلم الكيفية ، أما إذا سخرنا من قدراته ، وصورنا له كل ما يفعله على أنه عبث في عبث وأنه لا يتمتع بأي قدرة وليس وراء ما يفعله فائدة أو قيمة انتابه شعور عميق بالخزي من قدراته والإحساس بالدونية والعجز واللامبالاة ، وما إلى ذلك من أعراض نفسية تستمر معه إلى المراهقة وما بعدها من سنوات العمر .

وتلعب المدرسة في هذه المرحلة دوراً كبيراً في تشكيل وصياغة مكونات الطفل النفسية بوصفها عالماً أكبر من أسرته ، غنى وثرى بدينامياته الاجتماعية والنفسية ، ومن ثم قد تؤكد في داخله خصائص المثابرة والعمل أو تسلبه ذلك ، وتتيح لمشاعر الدونية كي تستولي على الشخصية ومعها العجز والإحساس بأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ، والملل من كل شيء وفقدان الثقة في النفس وفي الآخرين .

٥ - الهوية مقابل عدم تعيين الهوية Identity Vs. Identity Diffusion

يعتبر أريكسون المراهقة ، مرحلة أزمة الشخصية ، فهي قمة الدراما النمائية في الوجود الإنساني ، ففيها تظهر التوحيات ويتشكل إلى حد كبير بناء الثقة ، والشعور بالاستقلال والإحساس بالمبادأة ، وأن الحياة تستمد مقوماتها من الاجتهاد والمثابرة . في مقابل فقدان الثقة ، والشعور بالخزي والخل ، والشعور بالذنب والإحساس بالدونية والعجز ، وما إلى ذلك من عدة أعراض مرضية ، تصاحب فقدان الثقة بالنفس . وفي الآخرين ، والشعور بالخوف والقلق والعدوان .

والمراهقة ، ذروة الوجود الحقيقي للشخصية تقع ما بين (١٢ - ١٨ سنة) ، وهي مرحلة أزمة ، أزمة هوية ، تمضي بالشخصية كمحصلة دينامية للصراعات ، التي عاشها المراهق وهو صغير إلى الشعور بالهوية أو إلى ، عدم تعين الهوية ، حيث الشعور بالاغتراب ، وذوبان المراهق في الآخرين ، وعدم قدرته على اكتشاف موقع في صميم الواقع والعيش نهباً لمشاعر الإثم والقلق وفقدان الثقة ... وما إلى ذلك .

ويزيد من حدة ، الأزمة ، في هذه المرحلة ما يحدث في داخل المراهق من تغيرات عضوية ونفسية واجتماعية ، حيث يتم تشبيك العالم من حوله جنسياً ، ويتحول عنده الارتباط الأسرى من صلته بوالديه وإخوته إلى رغبة في مصاحبة رفيق من الجنس نفسه أو من الجنس الآخر ، ويبدأ مرحلة الصدام مع الكبار داخل الأسرة وخارج الأسرة ، حيث يكون لنفسه وجهات نظر جديدة في النظر إلى العالم والتفكير فيه ، فيتصور أسراً مثالية ، ومجتمعات أفضل من مجتمعه ، ويختار لنفسه أشخاصاً وفلسفات يتوحد معها ويقبل من الأشياء ما يراه متفقاً معه ويرفض ما لا يجده متفقاً مع مكوناته النفسية ، فيتساءل أين هو ؟ وإلى أين يمضي وما هو واقعه ؟ وإلى متى يستمر وهكذا ويعيش ، المطلق ، في كل شيء .. فالصحيح هو ما يراه ، والخطأ هو ما يرفضه ، والتوازن النفسي في هذه المرحلة يأتي نتيجة للصراع الدينامي بين ما هو نفسي واجتماعي وعضوي ، ومن ثم .. فإن المراحل النمائية السابقة تحدد للمراهق معنى للهوية أو عدم تعين للهوية ، ومن ثم فإن الإعداد لمراهقة ناجحة وبلوغ الشعور بالهوية النفسية والاجتماعية يجب أن يكون والطفل ما يزال في المهد صبيّاً .

٦ - الألفة مقابل العزلة : Intimacy Vs. Isolation

تستند الألفة إلى الشعور بالهوية ، وبأن الفرد قادر على تحقيق التواصل بينه وبين نفسه ، وبينه وبين الآخرين ، وأن يكون قادراً على إقامة علاقة إنسانية مع الجنس الآخر ، يتعمق فيها الوجدان بالجنس بمعناه السوي ، وللألفة عند أريكسون معنى واسع يحتوي كافة مظاهر تواصل الفرد مع نفسه ومع الآخرين ، فليس بالجنس وحده تكون الألفة ، فهناك علاقات التواصل بين الأصدقاء ، والشعور بالالتزام مع الأصدقاء ، والشعور بالالتزام تجاه الآخرين ، فالجنود الذين يقفون في خندق واحد تتواصل بينهم مشاعر الألفة الحميمة ، وتقوم التفاعلات الاجتماعية من أواصر الألفة . وعلى الطرف الآخر تكون العزلة ، فالفرد إذا ما فقد الثقة بنفسه ، فإن الألفة مع الآخرين تصبح مستحيلة ، وتظهر عليه أعراض الشعور بالشك والحزن والشعور

العميق بالدونية وعدم القدرة على المبادأة ، والخوف من فقدان الهوية .. ومن ثم العيش نهبا لمشاعر العزلة الاجتماعية والنفسية .

الإنتاجية مقابل استغراق الذات : Generativity Vs. Self Absorption

وتستند شأنها شأن المرحلة السابقة إلى مراحل النمو السابقة ، وتمتد فوق متصل ، فى طرف منه الإنتاجية حيث الرغبة فى العطاء ، والاهتمام بما هو قادم والاهتمام بمصلحة الأجيال القادمة ، والشعور بأن الحياة تتقدم وتزدهر بجهود أبنائها ، وفى الطرف الآخر من المتصل يكون استغراق الذات والاهتمام بالمصلحة الشخصية غير مبالين بما يصيب المجتمع والآخرين من أضرار. وهذه المرحلة باختصار تعنى إما أن تكون موضوعياً منفتحاً على الآخرين أو مستغرقاً داخل نفسك ، متشرباً فى داخلها ، ذاتى المطلب والنزوع ، وفى هذا ارتداد إلى المرحلة الطفلية على المستوى الفردى ومستوى المجتمع أيضاً .

٨ - التكامل مقابل الشعور باليأس : Integrity Vs. Disgust

وتحتل هذه المرحلة ما يمكن أن يسمى بخريف العمر ، وتأتى متممة لما سبقتها من مراحل ، ومن ثم فآثار المراحل النمائية السابقة التى تمثل منظومة بدينامية صراعاتها النفسية والاجتماعية تتجلى فى هذه المرحلة كمرحلة متممة ، تحقق للفرد الشعور بالرضا عن نفسه وتقبله لماضى حياته أو الشعور باليأس والقنوط ؛ لأنه لم يستطع أن يستفد من حياته على نحو فعال وإيجابى .

يقدم أريكسون تصوراً كاملاً عن الارتقاء النمائى للإنسان منذ أن يكون فى المهد صبيّاً إلى أن يبلغ أرذل العمر ، ويحتوى هذا التصور النمائى على ثمان مراحل نمائية ، لكل مرحلة إيجابياتها وأزماتها ، وتتواصل هذه المراحل بغير انقطاع مكونة صورة نمائية هى الإنسان ، ذلك الكل الدينامى الذى يعتبر محصلة للصراع بين ما هو نفسى وما هو اجتماعى ، وما هو عضوى .

وبيلغ هذا الصراع ذروته فى مرحلة المراهقة ، تلك التى يسميها أريكسون «مرحلة الهوية» ، أو مرحلة «أزمة الشخصية» ، ويتركز الصراع فى هذه المرحلة بين الشعور بالهوية ، ومن ثم المضى فى الحياة على نحو إيجابى سوى أو عدم تعيين الهوية ، ومن ثم العيش بها لمشاعر فقدان الثقة والشعور بالخزي والإحساس بالدونية والعجز واللامبالاة ، والشعور بأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ، ونحو ذلك من زملة أعراض نفسية تصاحب الشعور بعدم تعيين الهوية .

ثمة تفاؤل بصحة نفسية أفضل للإنسان تترجمه نظرية أريكسون ، يتركز فى أن أزمات الطفولة يمكن حلها وتجاوزها وتخطيها ، إذا توافرت التفاعلات النفسية

والاجتماعية التي تتيح للفرد أن يتخطى حدود الأزمة ؛ ولذا يتعين على الآباء والمربين أن يساعدوا الطفل على تجاوز أزمات النمو النفسي والاجتماعي ؛ إذ أريد لهذا الطفل أن يكون مراهقاً سوياً ممثلاً شعوراً بالهوية والثقة بالنفس .

ويعطى أريكسون للمرحلة الأولى أهمية كبرى ، فالثقة بالنفس الأساس الذي يقوم عليه نمو الإنسان كله ، وهو قاعدة لكل مراحل النمو ، ومن ثم يتعين أزمات الطفولة قبل بلوغ مرحلة الهوية ، من حيث هي مرحلة للوجود الحقيقي للإنسان .

هذا .. وقد شغلت المرحلة الأولى من عمر الطفل كثيراً من العلماء ، من بينهم الدكتور عبد العزيز القوصي الذي يرى أن عالم الأطفال عالم الحس ، سريع التأثير ، شديد الانفعال ، قليل الإدراك ، نادر الخبرة ، ضئيل الجدية ، ويؤكد بناء شخصيته في جميع أطوار الحياة ، والثقة بالنفس عنده مرادفة للشعور بالأمن ، والشعور بالأمن - عند القوصي - قاعدة الحاجات الإنسانية جميعاً ، وفقدان الأمن يترتب عليه القلق والخوف وعدم الاستقرار ، وقد يترتب عليه تكوين الكراهية لمصدر الفقدان وتوجيه نزعات العدوان إليه ؛ ذلك أن الخوف هو ينبوع العدوان .

ويترتب على الشعور بالأمن النزوع للمخاطرة ، والنجاح في هذا يكسب الشخص ثقة في نفسه ؛ مما يزيد من ميله إلى المخاطرة وتأكيد ذاته .

فالحاجات الأساسية اثنتان : الحاجة إلى الأمن والحاجة إلى المخاطرة ، وهاتان النزعتان ظاهرتان في المجتمع ، فالمجتمع يبدو وكأن فيه قوة للمحافظة ، وصون التقاليد ، وأخرى للتجديد والابتكار والإبداع والمخاطرة ، وهاتان القوتان تتنازعان

* الدكتور عبد العزيز القوصي علم من أعلام علم النفس والتربية في عالمنا المعاصر ، تكشف عبقريته العلمية منذ الثلاثينيات بحصوله على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٣٢ ، حين وصل إلى كشف العامل المكاني ، وهذا كان كشفاً علمياً أساسياً أكد - وما زال - يؤكد أصالة المصري . وقد توجت الدولة جهوده بمنحه جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية عام ١٩٨٠ طاف الدكتور القوصي بجامعات مصر جميعاً معلماً وأستاذاً ومشرفاً ، ألقى محاضرات في التربية وعلم النفس في جامعات لندن وأدنبرة والسويد والنرويج وهولندا وواشنطن وميتشجان ، وجينزفيل وفلوريدا ، وبيركلي ، ومونتفيدو ، والأرجواي ونيودلهي وبانجوك .. أسهم في تحرير عدد من المجلات العلمية التي صدرت في لندن وأمريكا وألمانيا . ونشر مئات المقالات والبحوث في مجلات عربية وأجنبية ، وألف تسعة عشر كتاباً في علم النفس ، وترجم أحد عشر كتاباً في علم نفس المجال ، واشترك في ترجمة عديد من الكتب ، وأدلى هو ومن حوله بألاف الأحاديث الإذاعية ما بين عام ١٩٥٤ - ١٩٦٠ ، وأشرف وراجع وقدم لسلسلة دراسات سيكولوجية ، واشترك في مئات البحوث الميدانية كمعلم ومعالج نفسي ، ومستشار لوزارة التربية والتعليم وخبير في هيئة اليونسكو ، وأنشأ أول عيادة نفسية في العالم العربي عام ١٩٣٤ .

المجتمعات والأفراد ؛ فبحث الطفل عن الطعام والتصاقه بوالديه وهربه من الخطر ، واجتماعه بزملائه ، إنما هو اتجاه نحو الأمن ، أما اتجاه الطفل إلى المقاتلة وحل الأشياء وتركيبها ، والتجروء فإنه اتجاه نحو المخاطرة ، ويرى بعض الباحثين أنه يمكن الاستغناء عن التفسير المبني على الحاجة إلى المخاطرة ، واعتبارها نتيجة للشعور بالأمن ، فالميل للمخاطرة يزداد إذا توافر الشعور بالأمن ، فالطفل الذي يهاجم غيره إنما يفعل ذلك لثقتته من قوته ، ولا يجروء على الاتصال الاجتماعي الناجح ، إلا إذا كان مطمئناً إلى قدرته على ذلك اطمئناناً مشتقاً من فكرته عن نفسه في المواقف الاجتماعية المختلفة .

ولكن كيف يتم بناء الثقة لدى الطفل وهو لا يزال في المهد صبيماً ؟ إن أول ما نلاحظه أن الطفل الصغير العادى يعيش فى جو كله أمن واطمئنان ، فحاجات الطفل كلها مشبعة ورغباته مجابة .. فإذا صرخ ، فإن الأم تهرع إليه لترضعه أو لتغير له ملابسه ، أو لتدفعه من حالة البرودة إلى غير ذلك مما يحتاج إليه .

ولكن يلاحظ أن الطفل قرب السنة الثانية يتعلم المشى والكلام ويزداد نشاطه وتكثر حركته ، ويكون مملوءاً ثقة بنفسه ، وتزداد رغبته فى اللعب والصياح والحركة ، ويتضاعف شوقه للمس الأشياء وفحصها ، خصوصاً إن كانت مما يملكه الكبار ويقدرونه - تجد معارضة ومقاومة - وكلما لمس شيئاً منعه الكبار ، وكلما صاح ضربه ، وكلما فعل ما لا يروقهم زجروه ، والمنع والزجر والضرب كلها أمور جديدة بالنسبة للطفل فى هذه السن ، فلم يكن يألف منها شيئاً من قبل ، ولم يكن يعرف غير السعادة والرضا والطمأنينة ، أما الآن فهذا كله يقل أو ينعدم ويحل محله اضطراب نفسى ، وقلق داخلى وشعور بفقد السند ، وفقد ما كان عنده من قوة يسخر بها من حوله لقضاء مصالحه وإجابة مطالبه .

فكأن هذا الانتقال المفاجىء فى المعاملة .. وهو يحدث حوالى السنة الثانية من حياة الطفل ، ويحدث دون قصد سيىء من الوالدين ، بل قد يحدث وفيه قضاء التوجيه والتأديب والتربية - هو الذى ينقل الطفل من الامتلاء بالثقة إلى فقدها ، ومن الإيمان بالقوة الشخصية إلى التشكك فى وجودها ، فيجب أن تكون القاعدة الأساسية أن الانتقال فى المعاملة من السنتين الأوليين إلى ما بعدهما - بنوع خاص - يجب أن يكون انتقالاً تدريجياً ، وأن يعطى الطفل الفرصة الكافية ؛ لتصريف ما عنده من النشاط فى جو تتوافر فيه العوامل المحققة لحاجات الطفل النفسية من تقدير وعطف ونجاح وحرية وشعور بالأمن والاستقرار .

ولعل من أكبر أخطاء الآباء - حسبما يوضح القوصى - أنهم لا يتركون الأطفال يفكرون لأنفسهم أو يعملون لأنفسهم ، فبعض الآباء يتدخلون في تفكير الطفل وحديثه وعمله بمناسبة وبغير مناسبة ، وهذا ما يقتل روح المبادأة والثقة بالنفس عند الطفل ، ومن ثم .. فإن الواجب أن نترك الطفل يكسب كثيراً من خبراته بنفسه ، ومعرفة أن الطفل تشواق نفسه للعب أو استعمال بعض الأدوات مثل المقص أو الشاكوش ، ولكن منع الآباء للصغير من إجراء تجاربه ، وكسب خبراته بنفسه ، خوفاً عليه من أن يجرح نفسه يسلب الطفل ثقته بنفسه . وحتى إذا جرح الطفل نفسه ، فهذا يكون مدعاة لتعليمه الطرق الصحيحة لاستعمال هذه الأدوات ، وجرح صغير في الأصبع يستمر أثره يومين أو ثلاثة أو أقل أثراً من جرح كبير دائم ، يتناول ثقة الطفل بنفسه ويضعف أهم ركن من أركان شخصيته .

ومن مظاهر ضعف الثقة بالنفس : الشعور بالقلق وتوقع الشر ، وعدم الاهتمام بالعمل والخوف منه ، واتهام الظروف عند الإخفاق فيه ، وكأنه مستهدف من الأقدار ، وأحياناً يكون من مظاهره التشدد ، والرغبة في الإتقان للوصول إلى درجة من الكمال ، والوقوع في أسر أحلام اليقظة ، وسوء السلوك والإحساس بالدونية والعجز ، وأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ، وتقرير المصير والاختيار السليم . وقد تظهر أعراض ضعف الثقة في زملة أعراض مرضية يتمثل بعضها في التهتهة ، والتبول ، وبعض حالات الشلل . باختصار .. فإن الشعور بفقدان الثقة يمثل متغيراً أولياً في زملة الأعراض المرضية الخاصة باغتراب الفرد عن نفسه ، عن ثرائه الداخلي في وحدة نفسية موحشة ، أو وحدة اجتماعية انسحابية ، وكلاهما يؤدي إلى الأعراض السالفة الذكر .

المدرسة وعملية التنشئة الاجتماعية :

ليس بالأسرة وحدها تكون التنشئة الاجتماعية ! فالمدرسة دورها الفعال حيث تلعب دوراً كبيراً في التشكيل وصياغة مكونات الطفل النفسية كعالم غنى بدنيماياته النفسية والاجتماعية .

ويعرف أحمد سلامة وعبد السلام عبد الغفار المدرسة بأنها مؤسسة اجتماعية ، اتفق المجتمع على إنشائها بقصد المحافظة على ثقافته ونقل هذه الثقة من جيل إلى جيل ، كما أنها تقوم بتوفير الفرص المناسبة للطفل كي ينمو جسمانياً وعقلياً وانفعالياً واجتماعياً إلى المستوى المناسب ، الذي يتفق مع ما يتوقعه المجتمع من مستويات وما يستطيعه الفرد .

ويتضح من هذا التعريف أن المدرسة تقوم بوظيفتين :

الوظيفة الأولى : نقل الثقة والمحافظة على التراث الثقافي وما يطرأ عليه من تعديلات ونمو .

الوظيفة الثانية : توفير الظروف المناسبة للنمو ، وأن تزود وتعرض أطفالها للخبرات المناسبة التي تؤدي إلى نموهم جسمانياً وعقلياً وانفعالياً واجتماعياً ، والطفل حينما ينتقل من الأسرة إلى المدرسة .. فإنما ينتقل بزيادة نفسية واجتماعية استمدته من الأسرة ؛ أي إنه ينتقل إلى المدرسة بمكونات نفسية واتجاهات وقيم ومعايير اجتماعية ، بعضها سوى يحتاج إلى تأصيل ، والبعض الآخر قد يكون غير سوى يحتاج إلى تعديل وتوجيه وإرشاد وعلاج .. فبالإضافة إلى كون المدرسة أحد الوسائل الجيدة لثقافة المجتمع وقيمه ومعاييره .. فإنه مسئولية إلى حد كبير - عن المساهمة الفعالة في تكوين إنسان يستطيع أن يعبر عن إمكاناته وقدراته حسياً وعقلياً وانفعالياً وجسمانياً عن طريق المناشط المختلفة (كالأنشطة الرياضية مثلاً) ، التي يشارك فيها الطفل فيتعلم كيف ينتمي إلى الآخرين وكيف ينتظم ضمن جماعات معينة ، وكيف يتسلح بقوة الفريق في عمله فالإنسان ضعيف بنفسه قوى بالآخرين ، ويتعلم كيف يؤدي واجباته ويدافع عن حقوقه ومن ثم تتحدد عنده إذا ما ساعدته المدرسة على ذلك - فكرة الحقوق والواجبات ، فالحق ينبغى الدفاع عنه والواجب ينبغى تأييده على أدق نحو مستطاع وفقاً لإمكاناته ، ويتعلم من المدرسة كيف يكون الانتماء للمجتمع خارج حدود المدرسة ، كيف يكون الانتماء إلى مبادئ وقيم ، يلتف حولها الجميع ويتمركزون ، وتكون لهم بوصلة توجيه وإرشاد إلى غايات ومثل عليا ومستقبل أفضل . فالأهم تتقدم كلما عمقت روح الانتماء عند الطفل الصغير وربطت هذا الطفل بقيم مجتمعه ومبادئه وجعلته يشارك مع الآخرين في حلم اجتماعي كبير ، فلا تقدم بغير حلم اجتماعي ، يستوعب آمال وأحلام وطموحات الناس في مستقبل اجتماعي أفضل .

والمدرسة هي الاختبار الوحيد لمكونات الطفل النفسية ، ففي المدرسة يتعلم كيف يشبع ما يمكن إشباعه من حاجات في إطار تنظيمي وثقافي واجتماعي ، ويرجى ما لا يمكن إشباعه ضمن هذا الإطار ، ويتعلم كيف يتجاوز الشعور بالإحباط وكيف يعلو على إلحاح الحاجة والرغبة ، وما السوية في الحياة إلا القدرة على تحمل الإحباط وغدر الأيام وتباريح الزمان !

وهذه القدرة يتعلمها الطفل في مجتمع المدرسة .. فليس كل ما يطلبه الطفل يتحقق ، وليس كل ما يتمناه يشبع ، وهنا تتشكل مكونات نفسية واجتماعية أشد مرونة

وارتباطاً بالواقع الاجتماعي ، ويكون عليه أن يتحرك ضمن المجموع ، ضمن الانتظام ، الذي يشكل مجتمع المدرسة كانعكاس حقيقي لثقافة المجتمع .

وثمة جوانب تعتبر من صميم واجبات المدرسة ، الحقبة ، نحو تلاميذها ، يتحدد بعضها في :

أولاً : إبراز الإمكانيات الخبيثة لطلابها ، فكل طفل يولد وهو مزود بإمكانات وقدرات ومواهب ، هي أعدل الأشياء قسمة بين الناس جميعاً ، وعلى المدرسة أن تساعد على إبراز هذا الثراء الإنساني في الطفل من حيز الكمون إلى حيز التحقق الخلاق في الواقع .

ثانياً : على المدرسة الحقبة أن تهتم ، بثقافة الإبداع ، لا أن تركز جل اهتمامها على ، ثقافة الذاكرة ، عن طريق استظهار المعلومات وحفظها وتكرارها ؛ لأن الإبداع هو الشرط الضروري لكون الإنسان إنساناً ، فالإنسان مزود بتنظيم عقلي فريد ، وخيال خصب .. ومن ثم عليه أن يحسن توظيف عقله وخياله في طريق الإبداع ، فبغير إبداع يحمل الواقع خطوات إلى الأمام تصبح صلاة الغائب على روح المصري .

ثالثاً : وهذا يستلزم من المدرسة ، الحقبة ، أن تهتم بالمتفوقين عقلياً ، وبأصحاب المواهب المتميزة ؛ لأنهم قاطرة المسيرة نحو التقدم وحينما تكون هناك قاطرة واحدة .. فإنها تكفي لجر عربات القطار إلى الأمام .

رابعاً : على المدرسة أن تنمي النواحي الجسمانية ، فالطفل كائن نمائي ونموه محصلة لما هو جسمي ونفسي واجتماعي ، ويقدر ما تهتم المدرسة بالنواحي الذهنية ، عليها أن تهتم أيضاً بالنواحي البدنية التي أصبحت معياراً يقاس عليه تقدم الأمم وازدهارها اليوم .

خامساً : وعلى المدرسة تأصيل قيم الديمقراطية ، فنحن نعيش في عصر تسويات كبيرة .. عصر يتشكل من جديد ، وعلى نحو ديمقراطي يتشكل ، فبغير ديمقراطية لا تقدم ولا ازدهار ، والمدرسة كمؤسسة اجتماعية عليها واجب النظر إلى الطفل كقيمة إنسانية لا كشيء أو مجرد موجود في ذاته ، ينتمي إلى عالم الأشياء .. ومن هنا عليها أن تؤصل روح المشاركة في صنع قرار الفصل والمدرسة ، وأن تتيح للتلميذ فرص إبداء الرأي والنقد والشعور بالحرية والاستقلالية ضمن قيم واتجاهات مجتمع المدرسة كانعكاس ثقافي واجتماعي للمجتمع .

سادساً : على المدرسة أن تنمى وبغير حدود قيم ، التسامح الثقافى ، Cutlural To-
lerance ، فالكل سواء فى وطن واحد وأرض واحدة وقيم واحدة متوارثة
عبر آلاف السنين ، وبالتسامح الثقافى يتحقق الانتماء والوحدة والتقدم .

سابعاً : على المدرسة أن تهتم بأطفالها الذين يعانون من تأخر دراسى وتخلف
عقلى واضطرابات انفعالية وانحرافات سلوكية بإنشاء مدارس للتربية
الخاصة ، وعيادات نفسية للعلاج والإرشاد والتوجيه وفى القاهرة يوجد عدد
غير قليل من هذه المدارس والعيادات النفسية من أشهرها العيادة النفسية
التابعة لجامعة عين شمس .

وإذا لم تهتم المدرسة بهذه النواحي .. فهناك احتمال كبير لنمو الطفل نمواً غير
سليم ، لا يحقق له التوافق الإيجابى مع مجتمعه ، ولا يتيح لقدراته فرص التعبير عن
إمكاناتها ، ولا يؤصل فيه معانى السعى والاستمرارية والدافعية ولا يمكنه من تجاوز
الإحباط والارتفاع فوقه ، وهذا مردود إلى أن المدرسة على الرغم من دورها فى نقل
المعرفة وثقافة المجتمع والتعريف بقيم المجتمع .. فإن لها دوراً كبيراً فى تشكيل
سمات شخصية الطفل .

الفصل الخامس

- * فى معنى القيادة
- * نظريات القيادة
- * السمات والفروق الفردية
- * الدوافع وطبيعتها
- * القدرة على إدارة الغير
- * القدرة على إدارة المواقف
- * القدرة على ضبط الذات
- * الكفاءة الشخصية
- * الخلاصة
- * أنواع القيادة

القيادة

الفصل الخامس القيادة



القيادة ظاهرة ذات أهمية قصوى فى حياة الجماعة ، فالجماعة يستحيل أن تكون بغير قيادة تنظم عملها وترهص لمستقبلها وتدفع بإمكانات الجماعة إلى الأمام . وهذا يتطلب أن تكون الجماعة ذات استجابة واعية لمطالب أفرادها فى الحياة والمستقبل والتماسك وقوة الانتماء .

تعد ظاهرة القيادة مشكلة ذات أهمية قصوى فى حياة المجتمع ، ومن ثم ينبغى التمييز بين القيادة كأعلى درجة فى انتظام هرمى ، ضمن جهاز اجتماعى مستقر ، وبين قيادة الغير كظاهرة دينامية من الظواهر السيكولوجية الاجتماعية ، أو قل كظاهرة دائبة التغير يصعب الإمساك بها ؛ من حيث إنها تعكس وتحكم الأفعال البينية داخل الجماعة ، فى لحظة معينة من لحظات حياتها ، فالقائد فى الحالة الأولى هو الزعيم ، ينبثق من صميم الجماعة ، بينما هو قائد يفرض على الجماعة فى الحالة الثانية .

القيادة تنبثق من صميم الجماعة وتكون استجابة لمطالب أفرادها وسلطة القائد فيها نابعة بشكل تلقائى من أفراد الجماعة الذين يختارونه قائدا لهم .

الرئاسة، ضرورة تحتمها استمرارية الجماعة ، وتقوم نتيجة لنظام وليس نتيجة لاعتراف تلقائى ، ويمكن أن يختار الرئيس الهدف ولا تحدده الجماعة نفسها ، وتتميز الجماعة بمشاعر مشتركة أو عمل مشترك ضئيل وهى تسعى لتحقيق هدف الجماعة .
(لويس مليك، ص ٧٠) .

وتتعدد النظريات الخاصة بالقيادة بتعدد النظريات النفسية والأطر المرجعية للباحثين وعلماء النفس والاجتماع ، ومن أهم هذه النظريات :

نظرية السمات Traits Theory

الفكرة الأساسية فى هذه النظرية أن للقادة سمات شخصية متميزة تؤهلهم لأن يكونوا قادة ، وأن القادة من الآحاد من البشر الذين يتمتعون بتفرد فى مكوناتهم النفسية ، وتركز هذه النظرية على تحديد السمات الخاصة بالقادة ، ويعتبر كارليل من

علماء التاريخ الذين أُرهِصوا لعلم النفس لدراسة سمات العظماء من القادة والأبطال التاريخيين والبطولة عنده هي العروة المقدسة التي تعقد بين الرجل العظيم وسائر الناس . وفي كتابه عن الأبطال اتخذ من الرسول «محمد بن عبد الله» رمزا للبطولة الفذة ، وعلى قمة أبطال التاريخ جميعاً .

وثمة خصائص مشتركة للمكونات النفسية والجسمية والعقلية والوجدانية للقادة حيث وجد استودجـل Stodgill ١٩٤٨ ما لا يقل عن عشرين سمة تمت دراستها وتتضمن هذه السمات العمر الزمني والتكوين الجسمي ، والثقة بالنفس ، والقدرة على التحكم الذاتي وما إلى ذلك من سمات تميز القادة ، وأسفرت النتائج عن أن الشخص الذي يشغل مركزاً قيادياً يزيد عن متوسط الجماعة في الذكاء والمسئولية والمشاركة الاجتماعية والقدرة على المثابرة والمبادأة ... وأشارت بعض الدراسات إلى أن المواقف هي التي تحدد أي السمات تكون مهمة بالنسبة للقيادة .

ويقرر استودجـل أن هناك قاسماً مشتركاً بين الأفراد الذين يتسمون بالقيادة دون غيرهم ، يتحدد في المكانة الاجتماعية والاقتصادية والذكاء والعلم والاعتماد على النفس وتحمل المسئولية والمشاركة الاجتماعية .

ويقدم بكـي Bucky مجموعة من السمات تضع في اعتبارها العلاقة بين القائد ومن يقودهم كالقدرة على التعاون ، والتعبير عن الهدف ، والقدرة على أن ينوب عن الجماعة وأن يعكس تقدمها . ويذهب تردجـول Tredgoil في كتابه «العلاقات الإنسانية في الصناعة الحديثة» ، إلى أن بعض هذه السمات لا توجد في أكثر القادة نجاحاً في التاريخ أو الذين كان نجاحهم مؤقتاً . فمن غير المجدى أن يقول : إن القائد لابد وأن يكون متزناً ؛ لأن معظم القادة الناجحين في التاريخ كانوا مرضى نفسيين وضيقى الأفق والإدراك ولديهم هذات اضطهادية كهتلر .

وهذا يعنى أن سمات القيادة نسبية وليست مطلقة ، وأن القيادة الحقة تلك التي تنبثق من إرادة الجماهير ، وتكون استجابة لها ومحركاً لها أيضاً ، وتنشأ نتيجة للتفاعل الدينامي بين القائد والجماهير .

نظرية الرجل الكارزمي : (الملمه)

وهذه نظرية مستمدة من كتابات ماكس فيبر Weber عن القيادة ؛ حيث يشير هذا المصطلح Charisma كارزما عند الإغريق إلى النعمة الإلهية ، واستخدمه لأول مرة ارنست ترولتش Troeltsch ويقصد بالكاريزما سمة خارقة تتميز بها شخصية فرد معين ، تجعل صاحبها كأنه يمتلك قدرات ومواهب تفوق ما هو إنسانى وما هو

طبيعي، ولهذا فإن المصطلح في نطاق الأدب يستخدم للإشارة إلى الهبة الإلهية Gift of Grace . وقد انتقل هذا المصطلح إلى علم الاجتماع ؛ ليشير إلى مجموعة صفات تتحقق عند أولئك الذين يملكون قوة القيادة ويمارسونها بصورة خارقة للعادة . ولقد كان فيبر أول من استخدم هذا المصطلح في العلوم الاجتماعية ، حيث يعتقد أن القيادة الملهمة تعمل على فرض النظام والصمة والالتزام خلال فترة معينة من الزمن . غير أنه يقرر أن الكاريزما تستحيل إلى روتين حينما تنتهي حياة القائد الملهم ولا يجد أتباعه من طريق أمامهم ، سوى الالتزام بالتنظيم البيروقراطي المستند إلى قواعد محكمة وبناء رئاسي للسلطة .

ويؤكد ديكمبيان في كتابه «مصر في ظل ناصر» أن القائد الكاريزمي هو صانع أساطير Myth - maker أو خرافات، والأسطورة (أو الخرافة) لا تخضع للتحليل العقلاني ؛ لأنها تعتمد على الحدس والغريزة والعقيدة ، سواء في أصلها أو في استخداماتها السياسية ؛ فالقيادة الملهمة والأسطورة متشابكتان بكثافة وتشتركان في أصولهما غير العقلانية ، وفي أبعادهما الحدسية والعقيدية والوجدانية .

ومعنى هذه العبارة أن القائد الملهم يستند إلى قدرة فائقة على صنع الأساطير ، وأن هذه الأساطير والقيادة الملهمة ذاتها هما من الظواهر التي لا يمكن تحليلها عقليا . وهذا معناه التوقف عن الحكم أو التحليل أو التفسير العلمي . وعندما تتحول الزعامة الحقبة إلى دوجما Dogma أى إلى شيء ثابت وقطعي ، تصح صلاة الغائب على روح العلم وروح التطور .

وهذه النظرية تتفق ونظرية أخرى هي نظرية الرجل العظيم ، تلك التي دعا إليها عالم النفس جالتون Galton ، والتي تشير إلى أن القائد يبرز بوصفه يتسم بقدرات ومواهب وإمكانات فائقة وغير عادية تجعل منه قائداً ، مهما كانت الظروف والأسباب .

النظرية الموقفية Situational Theory :

وتركز هذه النظرية على حقيقة مؤاها إلى أن الإنسان يتلخص في مواقف ، وأن المواقف هي التي تبرز السمات القيادية في الأفراد وأن السمات القيادية تبرز استجابة للمواقف ؛ ولهذا يرى ميرفي Murphy أن سمات الفرد تتغير بتغير المواقف ، فالفرد المسيطر قد يصبح خجولا إذا وضع في موقف غير ملائم . ولقد تدعمت وجهة النظر الموقفية خلال الحرب العالمية الثانية ، فلقد قامت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية Central Intelligence Agency (CIA) بتدريب الأفراد الذين يقومون

بمهمات سرية فى أرض العدو على المواقف الصعبة وملاحظة استجاباتهم فى هذه المواقف .

النظرية التفاعلية : Interactional Theory

ويرى أصحاب هذه النظرية أن القيادة تنشأ نتيجة لتفاعل القائد والأتباع والجماعة ضمن مواقف معينة ، ومن ثم فالقائد ينبثق من صميم الجماعة ، مدركاً لتوجهاتها وأهدافها ، والجماعة تكون على وعى بقدراته وإمكاناته التى يحددها تفاعله معها ضمن الموقف الاجتماعى ، وهكذا تقوم النظرية فى أساسها على أن القيادة عملية تفاعل اجتماعى ، فالقائد يجب أن يكون عضواً فى الجماعة يشاركها معاييرها وقيمها واتجاهاتها وأهدافها وآمالها ومشكلاتها وسلوكها الاجتماعى (زهران ٣٠٦) .

النظرية الوظيفية :

وقد ظهرت هذه النظرية كرد فعل نقدى لنظرية السمات ، حيث يؤكد أصحاب هذه النظرية أن القيادة عبارة عن مجموعة من الوظائف التى تتحدد بخصائص داخلية وخصائص خارجية . وتتضمن هذه النظرية جانبين أولهما وأهمهما يشير إلى أن سمات القائد الضرورية لفاعلية عمل الجماعة سوف تختلف أو تتغير حسب خصائص الجماعة ، كذلك فإن الجماعة تتطلب قيادة تتفق ونوعية أهدافها ومصالحها ، وأن هذه الأهداف تختلف باختلاف الظروف ، أما الثانى فيتعلق بمدى تعاون الفرد مع الجماعة على الاستمرارية فى تحقيق أهدافها .

القيادة طبقاً لهذه النظرية وظيفية تتحدد بقدرة القائد على وضع الخطط والسياسات وصياغة الإطار الأيديولوجى للجماعة .

وتتلخص أهم وظائف القائد فى الجماعة فيما يلى :

- (١) التخطيط : للأهداف القريبة المدى والبعيدة المدى .
- (٢) وضع السياسة : والقائد هنا يتحرك فى إطار تحدد فيه الأهداف من ثلاثة مصادر «فوقية» من السلطات العليا للجماعة (كما فى الجماعات العسكرية) ومصادر «تحتية» نابعة من قرار أعضاء الجماعة ككل ، ومن القائد نفسه حيث تفوضه السلطة العليا أو الجماعة نفسها - فى حالة الثقة فيه - فينفرد بوضع السياسة .

- (٣) الأيديولوجية : وهنا ينظر إلى القائد كأيديولوجى ، فهو فى كثير من الأحيان قد يعمل كمصدر لأفكار ومعتقدات وقيم الأعضاء .

(٤) الإدارة والتنفيذ : أى تحريك التفاعل الاجتماعى وتنسيق سياسة وأهداف الجماعة ومراقبة تنفيذ السياسة وتحقيق الأهداف.

وطبقاً لهذه النظرية فإن القائد يكون مصدراً للسلطات وللثواب والعقاب ، ووجهاً أبوياً يمثل القدوة لأفراد الجماعة بما يتصف به من سلوك يدفع بالجماعة إلى الاستمرارية .

السمات والفروق الفردية للقادة :

لئن اختلفت النظريات النفسية والاجتماعية وتعددت فى وضع تصور محدد لمعنى القيادة ، فإنها تتفق فيما بينها فى أن القيادة ظاهرة من ظواهر التفاعل بين الفرد والجماعة فلا يكفى أن يجتمع الأفراد فى مكان وزمان معينين كيما تكون جماعة ، فمثل هذا التجمع لا يعدو مستوى الجمهرة ، فلكى تتخذ الجماعة بنية لها ، ينبغى أن يتواجد الأفراد فى موقف مشكل ، يتطلب وسائل مشتركة لبلوغ هدف بعينه ، فأثر الدوافع والأهداف واضح لا ينكر فى نظمه لبنية الجماعة . وبالإضافة إلى ذلك فإن القائد يعد شرطاً أساسياً لانتظام بنية الجماعة . إذ هو النواة التى تتيح للأفراد الالتفاف والتمركز حوله ، ولا شك أن السمات الشخصية للأفراد تلعب دوراً واضحاً فى القيادة ، إذ يصبح بعض الأشخاص قادة دون سواهم ، ومعنى هذا أن الجماعة بإزاء موقف معين يكشف عن رغبات معينة ، وأن السمات الشخصية للفرد التى تستطيع أن ترضى الحاجات هى وحدها التى يمكن أن تصبح سمات للقائد . باختصار .. فإن الشخص الذى يصبح قائداً فى وقت ما ، هو ذلك الشخص الذى يستطيع أن يقدم للجماعة الحل لتوتراتها أو لحاجاتها ودوافعها ومطالبها . ومن ثم فإن هناك سمات ثلاث تعتبر قاسماً مشتركاً لسمات وخصائص القادة ، تتمثل فى :

١- المبادأة فى الصلات الاجتماعية .

٢- القدرة على التنظيم .

٣- التشابه من حيث هو مجارة للجماعة .

وفيما يتعلق بالتشابه من حيث هو مجارة للجماعة ، يذكر مخيمر دراسة هولنجورث Hollingworth ، وتعلق بدراسة طفل عمره عشر سنوات منعزل فى فصله عن سائر زملائه . كان الطفل متفوقاً تفوقاً كبيراً على أقرانه من حيث العمر العقلى ، وكانت عزلته بالتالى ترجع إلى هذا الاختلاف وعندما نقل إلى فصل دراسى أعلى ، وصل بسرعة إلى القيادة نظراً لتحقيق التشابه بينه وبين أقرانه من ناحية

العمر العقلى ومن ثم يتضح أنه لابد من قدر من التشابه بين القائد والأفراد . وفى عزلة العلماء والفلاسفة ما قد يوضح ذلك .

ورغم ذلك فليس هناك طبيعة قبلية ثابتة لما يمكن أن يكون عليه القائد ؛ أى لاتوجد قدرة خاصة بالقيادة تصلح فى كل زمان ومكان ، فى غير ما اعتبار للمواقف العيانية الخاصة ، ومن ثم فالقائد لا يكون إلا ضمن مواقف ، فالمواقف هى المحك الذى تقاس عليه سمات القائد وخصائص زعامته ، وانتقاء القائد من حيث هو زعيم إنما يكون ضمن ما يتمتع من إدارة للصراع وللمواقف وما يتسلح به من قدرات وظيفية معينة .

والآن ، هل لنا مع ذلك أن نتساءل عن أكثر السمات قابلية للتحول فى المواقف العيانية إلى صفات لازمة لدور القيادة ؟ إن بوسعنا أن نذكر كثيرا من السمات الشخصية ، وإن تعذر علينا أن نرصدها من حيث الأهمية . ومما يكن من أمر .. فإن السمات الأساسية التى تميز شخصية القائد رغم تباين المواقف ، يمكن أن تنحصر فى طبيعة دوافعه ، وقدرته على إدارة الغير ، وعلى إدارة المواقف والسيطرة على ذاته ، بالإضافة إلى قدرته من حيث كفاءة التخصص .

١ - طبيعة الدوافع :

لابد لكل قائد من دافع انفعالى ، ويختلف هذا الدافع من اهتمام القائد بحاجته إلى تأكيد ذاته وتحقيق إمكانياته ، إلى اهتمامه بحاجة الغير والمساهمة معهم فى قيم مشتركة والظفر بتقديرهم ، ومعنى هذا أن القائد ، من هذا الوجه ، تابع للغير ومعتمد عليهم . وينظر البعض إلى موقف التابع نظرة تسيئ إليه بالقياس إلى موقف المستقل عن كل تبعية ، ومع ذلك فلا بد لنا من الاعتراف بأن قدرا كبيرا من التبعية لابد وأن يتوافر فى كل شخص يبلغ مرتبة القيادة .

٢ - القدرة على إدارة الغير :

لابد لإدارة الغير بصورة فعالة من النظر إليهم كقيمة إنسانية فليس الأفراد فى واقع الحياة مجرد أشياء خالية من الإرادة .. وإنما هم أشخاص بمعنى أشياء تتميز أكثر ما تتميز بحرصها على القيم ؛ فالرغبة فى التسلط لا تكفى لإدارة الغير ، إذ إن تغلب هذه الرغبة يتمخض عن إنكار الغير كأشخاص ، لما تنطوى عليه هذه الرغبة فى التسلط من إحباط للغير ، وتهديد لذواتهم . ومن هنا فإن القيادة التسلطية تثير عدائية الأفراد على نحو صريح أو ضمني ، ويتخذ العدوان صورة المقاومة الإيجابية أو السلبية ، اللهم إلا أن يطبع الخضوع بنية الأفراد .

أما فيما عدا هذه الحالات العارضة فإنه يستحيل على المتسلط المستبد أن يحيا بغير قوة تسنده ، وخوف يدعمه . وحتى في جماعات الأطفال يضطر المستبد إلى أن يعدل سريعا عن محاولاته لفرض نفسه على الغير ، وإلا ذهبت عنه القيادة . وبديهي أن القيادة التسلطية ، إذ تثير سخط الأفراد ، وتسيئ إلى معنوية الجماعة ، وليس معنى ذلك أن القيادة الفوضوية التي تترك الحبل على الغارب لا تسيئ إلى الروح المعنوية للجماعة ، بل إنها تحرم الأفراد مما يطمحون إليه من الشعور بالأمن .

فلئن كان الاستبداد بغیضا إلى النفس ، فإن الأفراد مع ذلك في حاجة إلى شيء من السلطة التي يركنون إليها في أمن ، مما يستلزم وجود القائد كضرورة ملحة للجماعة . وباختصار ، فإن القيادة الفعالة هي تلك التي تضع حاجات الغير موضع الاعتبار . وبديهي من الناحية النظرية أن القيادة تتخذ واحداً من مسلكين : هي إما أن تميل إلى إكراه الواقع أو فرض حل جاهز عليه ، وإما أن تميل إلى التكيف في مرونة تجاه الواقع . ففي الحالة الأولى ينظر القائد إلى المواقف الحالية نظرتة إلى المواقف السابقة ، بحسبانها مماثلة مما نجده في القيادة التسلطية ، وفي الحالة الثانية تسمح القدرة على التكيف باحترام فردية الموقف الجديد ، مما يتضح في القيادة الديمقراطية . ولعل خير قيادة هي تلك التي تقوم على تكامل عمليتي المماثلة والتوفيق بالنسبة إلى المواقف ، وتضع موضع الاعتبار حاجة الأفراد أن تغفل حاجة القائد *

٣- القدرة على إدارة المواقف :

يعد قيام الحاجات والأهداف من العوامل الأساسية لانتظام بنية الجماعة ، فلا بد من موقف مشكل كيما تكون جماعة ، وقد رأينا أن الشخص الذي يجد الحل للمشكل يتحول إلى قائد ، ومن هنا تبدو أهمية الذكاء بالمعنى الوظيفي للكلمة ، أي من حيث هو قدرة على تحقيق التكيف مع المواقف الجديدة : وهي قدرة تنكشف في السلوك العادي .

ويؤيد ذلك ما نجده من تفوق الأفراد ، الذين ينتقون للقيادة على أقرانهم من حيث الذكاء والاستعداد الاجتماعي والقدرة على التكيف .

٤- السيطرة على الذات :

ليس من شك في أن الشخص الذي تتحقق له السيطرة على ذاته يعد أكثر صلاحية لقيادة الغير . فكلما عظم حظ الفرد من السيطرة على ذاته ازداد حظه من السيطرة على المواقف المادية والاجتماعية . ويتطلب فهم السيطرة على الذات فهم

(*) لمزيد من التفاصيل ، اقرأ المدخل إلى علم النفس الاجتماعي (صلاح مخيمر) .

الدافع ، من حيث هو توتر يطرأ على وحدة الشخص فينالها بالتفكك .. حتى يتم إرضاء هذا الدافع . ومعنى هذا أن الدافع حين ينطوى على توتر شديد فإنه يهدد تبعاً لهذه الشدة وحدة الشخصية ، وتكشف مثل هذه الاعتبارات الخاصة بدينامية الشخصية عن أن قدرة الشخص على التكيف الخارجى تتوقف على ما يتمتع به من حرية داخلية ، بمعنى الاتزان الداخلى ، أضف إلى هذا إن للسلوك أثراً ذاتية التعديل، autoplatic وأخرى «غيرية التعديل» alloptastic؛ بمعنى أن السلوك يتمخض عن تغيرات تعمل على تشكيل الشخصية من ناحية ، وتشكيل البيئة من ناحية أخرى .

ويمكن بالنظر إلى التغيرات الذاتية أن نميز بين تغيرات مباشرة تتصف بأنها التوتر وأخرى غير مباشرة أى بعيدة تأخذ صورة التعلم . وخلاصة هذا كله أن هناك إحالة متبادلة بين الشخص والموقف ، فكلما عظمت الوحدة الداخلية للشخص زادت قدرته على إدارة المواقف الخارجية ، وكلما عظمت القدرة على إدارة المواقف الخارجية ازدادت الوحدة الداخلية للشخصية ، وعلى النقيض من ذلك الموقف الغامر الذى يمثل الوجه المرضى لظاهرة القيادة . ويكفى لفهم هذا الموقف أن نتذكر خصائص الموقف الصدمى traumatisante فبوسعنا أن نتصور موقفاً يغمر القائد أو يثير فيه التوتر والقلق ، بل بوسعنا أن نتصور موقفاً غاية فى التعقيد يستعصى حله حتى على القائد السوى «وقد اضطلع «لاجاش» بأبحاث كLINIكية مستخدماً اختبار الأداء ليبلغ بهذه الأبحاث إلى تشخيص الشخصية دون أن يحفل بقياس القدرة الحركية . وكان فى دراسة سلوك الأفراد أثناء أدائهم للاختبار ، كموقف معين ، ما يسمح بالتشخيص ، الأمر الذى تم بالرجوع إلى معيار السيطرة على الذات . ومعنى هذا أن الملاحظة الكLINIكية قد حاولت تبين حظ الفرد من الاندفاعية ، أو السيطرة المعتدلة ، أو السيطرة المسرفة التى تبلغ حد الكبت ومن هنا كان تقسيم الأفراد إلى اندفاعى ومتزن ومتردد .

٥- القدرة الخاصة أو المقدرة أو الكفاءة : Competence

لو أخذنا جماعة فى موقف مشكل ، فتساوت دوافع الأفراد وقدراتهم أو قل السمات الأربع التى عرضنا لها ، لوجدنا أن أكثر الأفراد كفاءة من حيث القدرة هو أعظمهم فرصة للوصول إلى القيادة ولكن كيف لنا أن نفهم دلالة «المقدرة» فى شيء من الدقة ؟

ذلك أن اللفظة تشمل دلالة واسعة تجعل منها مرادفة للثقافة العامة ، فالثقافة العامة للقائد ينبغى أن تعدل ، إن لم تزد عن متوسط ثقافة الأفراد . وغنى عن البيان

أن الثقافة العامة تنقلب إلى عائق في سبيل القيادة ، حين تسرف في غزارتها أو ضعفها . ولكن للمقدرة في الواقع دلالة ضيقة تنصب على القدرة الفنية ، فكما تعقد نشاط الجماعة ازداد الالتجاء إلى الفنيين من الإخصائيين . ومعنى هذا أن الفرصة تسنح أمام الإخصائي لبلوغ القيادة بقدر ما يمعن نشاط جماعته في التخصص الفني ومعنى هذا بعبارة أخرى ، أن المشكل حين يصعب من جانبه الفني يسهل من ناحيته الاجتماعية ؛ أى من حيث اختيار القائد فالمقدرة المهنية تجعل من صاحبها في هذا الموقف زعيماً لجماعته .

وبالإضافة إلى الدالتين السابقتين .. فإن اللفظة تشتمل على دلالة اجتماعية تشير إلى ما للشخص من زاوية بحياة الجماعات ؛ فالشخص الذى سبقت له المساهمة في حياة جماعة ما ، وتمخضت تجاربه السابقة عن خبرات في هذا الميدان ، يعد أقدر وأصلح من غيره للاضطلاع بأعباء القيادة .

ومما سبق يتضح

إن المجتمع انتظام للأفراد في مواجهة الطبيعة ، ومن شأن هذا الانتظام إن يوحد الجماعة صوب هدف بعينه ، ومن الهدف إلى الأيديولوجية (الإطار الفكرى) والقيمي والمرجعى الذى يوحد الجماعة ، ومن ثم يجمع الأفراد نحو إطار يقيم وحدة السلوك . فى تنظيم يتصدى للمشكلة . ومن هنا فالجماعة ابتداء من وحدة المشكلة والحاجة والهدف إلى وحدة الإيديولوجية إلى النمط الموحد للسلوك ، حول «نواة» هو القائد الذى يجسد إمكانية الوصول بالجماعة إلى هدفها .

أنواع القيادة :

ينبغى أن نميز بين قيادة تستند إلى السيطرة والهيمنة وقيادة تستند إلى التكامل ، فى الحالة الأولى تتحقق فى قائد لا يقيم وزناً لحاجات الجماعة ، بينما فى الحالة الثانية فإن القائد يتوجه إلى المقودين بالحرص والعمل على إرضاء حاجات الجماعة . وهذه التفرقة يلزم عنها التمييز بين قيادة الآخرين من حيث هى رئاسة ففى الحالة الأخيرة تستند الرئاسة فى هيمنتها إلى جهاز منظم راسخ ، فسلطة الرئاسة هى التى تحدد للجماعة أهدافها .

وتعتبر دراسة كيرت ليفن Lewin وليبيت Lippit وهوايت White من الدراسات الرائدة فى مجال البحث الاجتماعى وبخاصة فى تحديد أنواع القيادة ؛ حيث انتهى ليفين وزملاؤه إلى ثلاثة أنواع للقيادة : الديمقراطية ، التسلطية (الدكتاتورية) والفوضوية وتعتبر دراسة ليفين وزملائه من الدراسات الرائدة فى

البحث فى مكونات الشخصية التسلطية ، تلك التى تحدد معناها ومكوناتها فى دراسات ادورنو Adorno وريتش Reich وفروم Fromm وغيرهم .

وقد أسفرت دراسة ليفين وزملائه على أن القيادة التسلطية تركز كل القوة والسلطة فى يد قائد واحد ينفرد بالسلطة دون غيره ، وهو الذى يقوم بوضع سياسة الجماعة ويوجه نشاط أفرادها ويرسم لهم أهدافهم ويحدد توجيهاتهم دون مشاركة من أفراد الجماعة .. باختصار هو قائد لا يقيم وزناً لأفراد جماعته . أما القائد الديمقراطى فقيادته تقوم على التكامل ؛ حيث يشرك الجماعة فى اتخاذ القرارات ويرهف السمع لآرائهم وأفكارهم ولمشاكلهم وما يتصورونه من حلول وما يقترحونه من أفكار .. إنه باختصار ينظر إلى أفراد جماعته بوصفهم قيماً إنسانية . أما فى حالة القائد الفوضوى فهو يختلف عن النمطين السابقين من القيادة فى أنه يلتقى بالجماعة دون أن يرسم أهدافاً معينة لهذا اللقاء ، ودون تحديد للأدوار داخل الجماعة ويترك كل شىء يمشى داخل جماعته بشكل فوضوى عشوائى .

ويمكن تحديد الفرق بين القيادة الديمقراطية والقيادة التسلطية فى أن القيادة التسلطية تستند إلى عملية «المماثلة» فالأفراد أشياء ، وبالتالي الأساليب نفسها وهى استبدادية ، سيان عادلة أو ظالمة ، أما القيادة الديمقراطية فتستند إلى المماثلة والملاءمة ، فللأفراد دوافعهم المعينة وبالتالي ضرورة ملاءمة الأساليب مع الأساليب الخاصة للأفراد .

ومع ذلك فإن المسألة ليست بهذه السهولة ؛ فالقيادة تسلطية أو ديمقراطية لا تكون بحسب النظر إليها من خارج بل كما يعيشها الأفراد أى لا من حيث تنظيم هرمى ، بل من حيث إنها تجيب أو لا تجيب عن دوافعهم وحاجاتهم وتطلعاتهم نحو المستقبل ، فالتوتر والإحباط ينتجان من اختلاف الدوافع والتوجيهات بين القائد والأفراد .

الفصل السادس

* الهوية الثقافية
* التسامح الثقافي

دراسات
في
علم النفس الاجتماعي

الفصل السادس

الهوية الثقافية المصرية

مقدمة :

مع نهاية هذا القرن ، وبزوغ قرن جديد ، يتواصل زمنياً مع قرن يوشك أن يسدل ستائره ، أصبحت مشكلة الهوية الثقافية ، المحور الأساسى للأمم والشعوب ، ولتوكيدها انفجرت صراعات عرقية وثقافية فى أنحاء شتى من العالم تبديد وتدمر ، وتقتلع جذوراً كانت راسخة فى دول البلقان ، والصومال ، ورواندا حيث عمليات الإبادة الجماعية على نحو غير مسبوق ، وظهور الحركات الفاشية الجديدة فى أوروبا .

وفى الثمانينيات من هذا القرن ، وبالتحديد فى عام ١٩٨٩ ، سقط حائط برلين ، وكان سقوطه بداية منبئة بأفول الاشتراكية فى الاتحاد السوفيتى ودول شرق ووسط أوروبا ، حيث اندلعت الثورة فى كل مكان من هذه الدول تفشدا الحرية والديمقراطية والفردية والتحول إلى الاقتصاد الحر ، وبدا واضحاً أن العالم فى حاجة إلى رؤية مستقبلية تستهدف إيجاد حلول جديدة لمشكلات غير تقليدية .

ولعل من بين المفكرين - الذين اعتبروا عام ١٩٨٩ بدء تاريخ جديد للإنسانية فى هذا القرن (فوكوياما Fukuyama ، ١٩٩٢ ، هنتنجتون Huntington ، ١٩٩٦ ، برستون Preston ، بينى Penny ، ١٩٩٧ ، فرينك Ferenc ، ١٩٩٨ ، وغيرهم كثيرون) .

ويزغت مفاهيم جديدة تحاول بلورة مظاهر الثورة المعلوماتية ، والتقدم التكنولوجى المتسارع ، وحركة المتغيرات فى عالم اليوم ، تمثلت فى الكوكبية -Glo balism ، الكونية Universalism ، والاعتماد المتبادل Interdependence .

وتفجرت صراعات ثقافية وعرقية كانت مؤجلة بحكم تلك التسويات الكبرى التى صاحبت انتهاء الحرب العالمية الثانية والأولى أيضاً .

وفى التسعينيات من هذا القرن ظهر كتابان : الأول ، نهاية التاريخ وخاتم البشر ، "The End of The History, and The Last Man" ، ومؤلفه فرانسيس فوكوياما (١٩٩٢) ، والثانى ، صدام الحضارات ، The Clash of Civilizations ، ومؤلفه هنتنجتون (١٩٩٤) .

والكتابان دعوة صريحة للقضاء على الهويات الثقافية المباينة للهوية الثقافية الغربية .

يقول فوكوياما فى مفتتح كتابه ملخصاً رؤيته فى هذا الكتاب : « ثمة إجماع بدا واضحاً فى السنوات القليلة الماضية ، فى العالم بأسره حول شرعية الديمقراطية الليبرالية ، بعد أن لحقت الهزيمة بالأيديولوجيات المنافسة ، مثل الملكية الوراثية ، والفاشية والشيوعية ، غير أنى أضيف إلى ذلك قولى : إن الديمقراطية الليبرالية قد تشكل « نقطة النهاية فى التطور الأيديولوجى للإنسانية » والصورة النهائية لنظام الحكم البشرى ، ، ومن ثم فهى تمثل « نهاية التاريخ » (ص ٨) .

ويستند فوكوياما فى رؤيته إلى تصورات هيجلية مؤداها أن الدولة الليبرالية هى نهاية التاريخ ، وذلك مردود إلى سببين : الأول يتصل بالاقتصاد ، والثانى يتصل بالصراع من أجل نيل التقدير والاحترام .

وتمضى هذه الرؤية فى تعصبها وجمودها القطعى ، مصنفة شعوب العالم إلى صنفين : السادة والعبيد ، السادة هم الغرب ، أما العبيد فهم بقية شعوب الدنيا ، وأن « أرض الميعاد » هى الديمقراطية الغربية ، وإن خاتم البشر هو الإنسان الغربى .

أما رؤية هنتنجتون (١٩٩٦) ، فتقوم على أن الثقافة والهويات الثقافية التى هى على المستوى العام هويات حضارية ، هى التى تشكل أنماط التمسك والتفسخ فى عالم ما بعد الحرب الباردة (ص ٣٧٢) .

وتاريخ الصراعات عنده بدأ بين الملوك الأباطرة ، ثم بين الشعوب ، ثم بين الأيديولوجيات فى الحرب الباردة ، والآن هو صدام بين حضارات وثقافات وأن الغلبة ستكون حتماً للثقافة الغربية .

ويستند هنتنجتون فى رؤيته إلى تصورات مستمدة من كتابات هافيل Havel (١٩٩٤) ، وديلورز Delors (١٩٩٣) ، وشبنجلر . يقول هافيل : « إن الصراعات الثقافية تتزايد الآن على نحو غير مسبوق » (٢٧) ، ويقول ديلورز : « إن الصراعات المستقبلية سوف تشكلها عوامل ثقافية أكثر منها أيديولوجية أو اقتصادية » (ص ٢) .

أما شبنجلر فيقول للحضارة نهر واحد هو حضارتنا وعلى الآخرين إما أن يكونوا روافد لهذا النهر ، أو يضيعوا فى رمال الصحراء ، (ص ٩٢) .

وتصورات هنتنجتون وما تستند إليه من آراء تحض على العدوان وتدعو إلى الصدام بين الحضارات وبين الثقافات ، غافلة عن أن التفاعل بين التمايزات الثقافية ،

وليس « الصراع » هو الذى يقدم إبداعاً ينطوى على حلول جديدة ، لمواجهة مشكلات عالمية غير تقليدية ، فكل مجتمع هويته الثقافية ، وإرثه الحضارى الفريد الذى لا يذوب أو يتلاشى بتلاشى المسافات بين الأمم ، وإن للثقافة جاذبيتها القطبية التى تجمع بين الأمم . فما مزقته الأيديولوجيات جمعته الثقافة كما حدث فى الألمانيتين ، الذى كان انهيار حائط الفصل بينهما بدء تاريخ جديد فى عالم الإنسان .

والشعوب فى سعيها لتحديد معنى لهويتها الثقافية ، إنما تعى ذاتها ، وتعى تفرداها ، مدركة أن التباين فى الهويات الثقافية هو الذى يتيح ثراء فى المحتوى الثقافى العالمى ، وأن هذا التباين يستلزم قدراً كبيراً من التسامح للالتقاء والحوار بين الأمم والشعوب .

وها هنا يصبح الكشف عن منابت الهوية الثقافية المصرية ، واستجلاء محتوياتها أمراً لا مناص منه للحفاظ على هذه الهوية الثقافية التى تتمتع بخصائص لصيقة بها ، تميزها عن غيرها من الثقافات ، وهذه الخصائص راسخة ، بيد أنها غير جامدة أو مغلقة ، نسبية غير مطلقة ، وهذا سر قدرتها على التجدد والاستمرارية .

تتسم بحيوية دافقة ووحدة عضوية لا شتات فيها ، قديمة وغائرة فى عمق الزمان ، شكلتها « ثوابت جغرافية » ، سرية التنوع و« متغيرات تاريخية » ، الرجوع إليها يتيح فهماً أعمق للمستقبل ، و« تراث مركب » ، تسيطر عليه قوة الاعتقاد ، ودينامية فى التفاعل بغير جمود أو انغلاق ، وتجانس فى البشر متواصل بتواصل حلقات الزمان ، ووسطية فى السلوك ، تترجم معانى التسامح رغم التباين فى الأعراق والأنساب والمعتقدات ، فأنساق القيم والعادات والتقاليد ظلت راسخة رغم تعدد الغزوات ، ورغم التحول من دين إلى آخر ، ورغم تغير اللغة من هيروغليفية إلى قبطية إلى عربية .

وتمثل الهوية الثقافية المصرية قطباً له جاذبيته ، سواء فى العصور القديمة أم فى عصرنا الحالى .

وهذه الجاذبية القطبية هى التى منحت مصر قيمة « الدور التاريخى » ، عبر عصورها القديمة والحاضرة أيضاً ، فكانت - وما زالت - محركاً للأحداث ومركزاً للعلم والحضارة يؤثر فى الأمم من حوله ، ومطمعاً للغزاة من الشمال والجنوب والشرق والغرب ، بيد أنها كانت - وما زالت - تملك خاصية الاحتواء والامتصاص والتمصير Egyptianizing لدرجة بلغ الوله لهذه الثقافة حد الهوس Egyptomania كما يقول « برنال » ، الذى يوضح فى كتابه « أثينا السوداء » : « إن الحضارة المصرية أصل

الحضارة الإغريقية ، وأن ٢٠ - ٢٥ ٪ من اللغة الإغريقية مستمدة من اللغة الهيروغليفية ، وأن هيرودوت هو أول من أعلن صراحة أن أصل السماء جميع الآلهة الإغريقية مصرى ، وأن الأساطير المصرية هى أصل الأساطير الإغريقية ، وأن الإسكندر نفسه ، وهو الفاتح العظيم جاء ليحج إلى معبد سيوة ، طالباً العون من كهنة أمون الذين لبوا دعوته ولقبوه « ابن الإله » (ص ٤٠ - ٤٧) .

والهوية المصرية الثقافية متعددة الأبعاد ، ثرية المحتوى ، بما تملكه من لغة ودين وآداب وفنون رفيعة المستوى ، وتقدم معمارى وهندسى وفلكى ورياضى ، قد جعل من مصر قبلة لفلاسفة العصور القديمة ولا سيما اليونانيين .

يقول طه حسين (١٩٩٣) : « إن تبادل المنافع بين العقل المصرى والعقل اليونانى فى العصور القديمة قد كان شيئاً يشرف به اليونان ، ويمتدحون به فيما يكتبون من نثر . فمصر مذكورة أحسن الذكر فى شعر القصاص اليونانيين ، وهى مذكورة أحسن الذكر عند هيرودوت وممن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة .

« وكان اليونان فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص » .

« ثم جاء التاريخ فلم يكذب شيئاً من هذا ولم يضعفه ، بل أيده وقواه ، فالتأثير المصرى فى فنون العمارة ، والنحت والتصوير عند اليونان شئ لا يجحد ولا يمارى فيه ، والتأثير المصرى تجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تمس الفنون التطبيقية ، وتمس الحياة العملية اليومية وقد تمس السياسة أيضاً ، (ص ١٦) .

ولم تكن مصر قبلة للعلماء والمفكرين والفلاسفة فحسب ، بل كانت أيضاً قبلة للأنبياء ومسرحاً لعبور رسالات السماء ، فقد أتى إليها إبراهيم أبو الأنبياء ، وخرج منها ومعه هاجر المصرية ، زوجة له ، والتي ولدت له إسماعيل ، والذي من نسله محمد رسول الله ﷺ ومن بعد إبراهيم جاء يعقوب حفيد إسحق ، ثم يوسف بن يعقوب ، ثم رجع إليها يعقوب وأبناؤه الأسباط ، وفيها ولد موسى عليه السلام واحتفى فيها المسيح عيسى عليه السلام ، ومنها تزوج محمد رسول الله ﷺ من السيدة مارية القبطية .

وكانت مصر استثناءً فريداً بين الأمم ، حيث ذكرت فى القرآن خمس مرات وفى أربعة مواضع ، وهذا الاستثناء هو أبلغ ما ظفر به موقع فى الأرض أو موطن

للناس أو بلد في الدنيا * .

ويعبر جمال حمدان (١٩٨١) عن خاصية الاحتواء والتمصير ، مستشهداً بآراء الثقة من المؤرخين أمثال جوستاف لوبون ، بيترى وشانتر ، في مواجهة الغزو الخارجى كانت مصر تمارس « الغزو من الداخل » ، بمعنى أنها كانت دائماً تتمتع بقوة امتصاص نادرة وحيوية بيولوجية تبتلع ، وتهضم بها معظم العناصر الوافدة حتى تصهرها - كأنها البوتقة - فى الجسم الكبير على حد تعبير جوستاف لوبون ، .

وعلى حد تعبير شانتر ، فقد استطاع تراب وادى النيل بصفة خاصة أن يمتص كل الأنواع أو العناصر الأجنبية تقريباً . أو كما يصور بيترى « شعب مجد قوى ، يعتره الضعف كل بضعة مئات من السنين - طبيعة الأشياء - فتتعرض بلاده للغزاة من الجنوب والشرق ، فيتعرض هو لمؤثرات مختلفة ، ولكنه على الرغم منها ظل يحتفظ بطابعه وصفاته القومية وشخصيته البارزة المعالم ، ص (٣١٧ - ٣١٨) .

ولعل من أبرز مقومات الهوية الثقافية المصرية استجابتها للتحدى ، فنهر النيل يمر بتسع دول إفريقية ، ولكن لم تستطع أى دولة من هذه الدول أن تبنى على ضفافه حضارة عظيمة ضاربة بجذورها فى عمق التاريخ ، مثلما فعل المصريون .

ويصور توينبى Toynbee (١٩٦٥) هذه الاستجابة لتحدى النهر بقوله « إن الاستجابة الخلاقة للتحدى هى فقط التى تنبت الحضارات والمدنيات ، وقد كانت الاستجابة الجماعية الخالقة لتحدى نهر عظيم مثل النيل ، هى التى خلقت المجتمع ، ومصر الحضارة . وإن نوعية التفاعل بين البشر وقوى الطبيعة ، وليس قوى الطبيعة وحدها ، هى التى ينبثق عنها المجتمع والحضارة ، فإذا كان النيل هو المسئول الوحيد عن صنع مصر وحضارتها ، لكان قد صنع حضارات أخرى متشابهة على امتداده الطويل ؛ ولكن هذا لم يحدث ، (ص ٧٨) .

* يقول تعالى : (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن توبا لقومكما بمصر بيوتا) (سورة يونس - آية ٨٧) .

ويقول تعالى : (وقال الذى اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه) (سورة يوسف - آية ٢١) .
ويقول تعالى : (فلما دخلوا على يوسف أوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين) (سورة يوسف - آية ٩٩) .

ويقول تعالى : (ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى) (سورة الزخرف - آية ٥١) .

ويقول (اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم) (البقرة - آية ٦١) .

وفى الإنجيل (مبارك شعب مصر)

وفى التوراة (لا تكره مصرىاً فقد كت نزيلاً فى أرضه) (سفر التثنية - الإصحاح ٢٣ - آية ٨)

وكان توينبى فى نظريته عن « التحدى والاستجابة » يرد بذلك على مقولة هيرودوت الشهيرة « إن مصر هبة النيل » ، والحق أنها هبة النيل والعقل المصرى معاً .

وتعيش الهوية المصرية فى عصرها الحالى تحديات يتمثل بعضها فى : تحدى الزمن كشىء نادر يمكن استثماره ، والكوكبية كمفهوم يهيمن على عصرنا ، وينذر بتلاشى الهويات الراسخة فى الهويات الغربية ، والتأصيل الديمقراطى ، والتنمية البشرية والاقتصادية ، والعنف والإرهاب .

ومما سبق ، يتضح أن الهوية الثقافية المصرية ثرية المحتوى ، متعددة الأبعاد ، قائمة فى الزمان متجددة منفتحة وغير منغلقة ، نسبية غير مطلقة ، وذلك سر تطورها وخلودها .

وما هذا البحث إلا محاولة تهدف إلى استجلاء بعض العوامل المعبرة عن البنية العاملة للهوية الثقافية المصرية فى عصرنا الحالى .

وهى محاولة ينبغى أن يصاحبها محاولات للكشف عن مكامن القوة فى هذه الهوية الفريدة فى نوعها .

تحديد المصطلحات :

أولاً : الهوية Identity :

الهوية مفهوم له دلالاته اللغوية ، واستخداماته الفلسفية والاجتماعية والنفسية والثقافية ، فقد استخدم هذا المفهوم على أنحاء شتى للتدليل على الهوية الفردية ، وهوية الأنا ، والهوية الجماعية ، والهوية العرقية والهوية الثقافية .

ولفظ الهوية مشتق من أصل لاتينى ، ويعنى أن الشىء نفسه Sameness أو الشىء الذى هو ما هو عليه ، على نحو يجعله مبايناً لما يمكن أن يكون عليه شىء آخر .

ويؤصل مراد وهبه (١٩٧٩) معنى الهوية بالرجوع إلى اشتقاقات اللفظ فى اللغة العربية واللغات الأجنبية ، حيث يقول إن لفظ « الهوية » فى اللغة العربية مصدر صناعى مركب من « هو » ضمير الغائب المعرف بأداة التعريف « ال » ومن اللاحقة المتمثلة فى الـ « ي » ، المشددة وعلامة التأنيث وفى الفرنسية والإنجليزية واللاتينية يعنى لفظ « id-idem » ضمير الإشارة للغائب بمعنى ذاته ، ويستعمل هذا الضمير للدلالة أحياناً على الاختصار وعدم التكرار عند الإشارة إلى شىء محدد .

ويوضح الاستخدامات الفلسفية لهذا المصطلح في التراث العربى فيقول ، عرفها الجرجاني بأنه الأمر المتعلق من حيث امتيازه عن الاعتبار والهوية عند ابن رشد يقال بالترادف على المعنى الذى يطلق عليه اسم الموجود ، وعند الفارابى هوية الشيء عينه ، وتشخصه وخصوصية وجوده المتفرد الذى لا يقع فى إشراك .

وفى الغرب كان جورج جروديك Grodeck أول من استخدم Id كمصطلح فى التحليل النفسى ليدل على أمر غير شخصى فى الطبيعة الإنسانية ، ويقوم ، مبدأ الهوية، على أن الموجود هو ذاته ، أو هو ما هو عليه كما أن الهوية هى أيضاً : عبارة عن الشخص وقد تطلق على الوجود على الماهية مع التشخص ، وهى جهة ما هو واحد وفلسفة الهوية هى مصطلح يعنى عموماً كل نظرية لا تفرق بين المادة والروح ، ولا بين الذات وموضوعها ، وتنظر إليهما على أنهما وحدة لا تنفصل ، (ص ٤٦٠ - ٤٦١) .

واشتقاق لفظ الهوية فى اللغة الإنجليزية توضح إلى حد كبير ما ينطوى عليه لفظ ، Identity ، من معان ، فكلمة identical ، التماثل ، تعنى - كما يقول دريفر فى معجمه - ، الشيء نفسه أو المشابه من كل النواحي ، (ص ٢٧) .

وقد استخدم هذا اللفظ فى إطار علم الوراثة لتوضيح التصنيف البيولوجى عند وصف التوائم المتماثلة من كافة الجوانب ، والتي تكون مغايرة عن غيره . أما لفظ identification فقد استخدمه بالينت Balint (١٩٤٥) بمعنى ، التقمص ، أو التوحد أو التطابق ، وفى التحليل النفسى يعرف التقمص بأنه : العملية التى يسلك أحد الأفراد أو يتخيل نفسه فى حالة سلوك لا شعورى أو ببعض اللاشعور كما لو أنه الشخص الذى يوجد له ارتباط به ، (دريفر ، ص ١٢٨) .

وينطوى ، التقمص ، أو ، التوحد ، فى التحليل النفسى على أنواع أربعة ، أولى ، وثانوى ، وإسقاطى ، واستدماجى .. وهذه الأنواع تتدرج بتدرج مراحل النمو الإنسانى .

وعلى أية حال ، فإن هوية الشيء تعنى ماهيته essence ، أى جوهره ولبابه الذى يعبر عن حقيقته فى كل متفرد لا إشراك فيه .

وعلى المستوى النفسى يرجع الفضل إلى أريك أريكسون (١٩٥٠ ، ١٩٦٧) فى شيوع استخدام هذا المصطلح على نحو نفسى بوصفه ، هوية أو ذاتية الفرد بحيث يكون للمرء باستمرار كيان متميز عن الآخرين ، (ص ٣٨) .

وقد طور أريكسون هذا المفهوم ، وجعله مفهوماً مركزياً في تصورات النفسانية ، فتحدث عن هوية الأنا ego identity وعرفه بأنها: « ذلك الشعور بالهوية الذي يهيئ القدرة على تجربة ذات المرء كشئ له استمراريته ، وكونه هو هو نفس الشئ نفسه ، ثم التصرف تبعاً لذلك ، (ص ٣٩) .

وأرجع أريكسون نمو الأنا إلى نمو الهوية ، واعتبر المراهقة مرحلة أزمة الهوية identity crisis ، ففيها تتقمم الصراعات وتبلغ حد الذروة . إما إلى تعيين الهوية ، حيث الثقة بالنفس وبالأخرين ، والشعور بالاستقلال والمبادأة ، وأن الحياة تستمد مقوماتها من الاجتهاد والمثابرة ، وإما إلى عدم تعيين الهوية identity diffusion حيث فقدان الثقة ، والشعور بالخزي والخجل والشك ، والعيش نهباً لمشاعر الذنب والدونية والعجز وبأن الحياة لا تؤخذ بالمبادأة ولا تمضى من خلال الثقة والاستقلالية .

ولعل التساؤل الرئيسى الذى يعايشه المراهق - كما يقول أريكسون - " Who - am I " هو تساؤل ينطوى على بحث عن كينونته ، وعن معنى فريد للوجود وعن هوية ، تتمايز عن هوية الآخرين ، وفى استمرارية تجعل من الأنا هوية فريدة ومغايرة لهويات الآخرين .

وقد ركز أريكسون على العلاج النفسى بوصفه تحليلاً نفسياً واجتماعياً لأزمات الهوية التى قد تتمثل فى : عدم تعيين الهوية ، انغلاق الهوية - Identity foreclosure ، والتعليق النفسى والاجتماعى للهوية Psychosocial moratorium .

وقد تأثر ميرشيا Mercia (١٩٦٦) بأوضاع الهوية الأربعة وصاغ استبيان الشهير عن « تشتت الهوية ، Identity confusion Inventory (١٩٦٦) .

وفى مفتتح كتاب « الهوية والقلق ، يبين اشتين وفيدش ، Stein & Vidich (١٩٦٠) ، أن كتابات فرانز كافكا ، وجيمس جويس Joyce . وصمويل بيكيت -Beckett ، وسارتر وغيرهم كثيرون ، كانت فى صميمها عن تحديد هوية للإنسان ، وعن موقع اهتمام له فى صميم العالم ، (ص ٢٥) .

والمأمل لكتابات هؤلاء الأدباء والمفكرين والفلاسفة ، يتبين له بوضوح أن أفكارهم كانت تدور حول البحث عن كينونة وهوية متفردة للإنسان ، فى عصر هيمنت عليه أفكار قطعية ومذاهب فلسفية وأيديولوجيات كبرى حولت جميعاً الإنسان إلى كائن لا وزن له ولا معنى لوجوده إلى « موجود فى ذاته ، كما يقول سارتر .. لاهول ولا معنى ولا هوية حقيقية له .

وعلى نحو أنطولوجي ، يتخذ فروم Fromm من الهوية تصوراً لتفسير مسيرة الإنسان الحضارية ، فيعرف الإنسان بوصفه ، الحيوان الذي يستطيع أن يقول ، أنا ، ، والذي يستطيع أن يكون واعياً بذاته ككيان منفصل Entity عن الطبيعة ، فالحيوان موجود داخل الطبيعة لا يتجاوزها ، فليس له وعى بذاته ، وليست به حاجة إلى الإحساس بهويته ، أما الإنسان فهو مجاوز للطبيعة ، وهذا التجاوز مردود إلى تمتعه بالوعي والعقل والخيال ، ومن ثم فهو في حاجة لتكوين مفهوم عن ذاته ، وبحاجة إلى أن يشعر وأن يقول ، أنا أكون أنا ، ؛ ولأنه فقد وحدته الأولية Original unity مع الطبيعة ، كان عليه أن يتخذ القرارات ، وأن يعي ذاته كشئ مبين عن الآخر ، وأن يكون قادراً على الإحساس بذاته كموضوع لأفعاله ، (ص ٦٢) .

ويفرق بين الوجود الحيواني والوجود الإنساني من خلال الإحساس بالهوية فيقول : « إن الوجود الحيواني قائم على ، التناغم ، Harmony مع الطبيعة ، في حين أن الوجود الإنساني قائم على التنافر مع الطبيعة ؛ الأمر الذي يفقده الانسجام الذي يتصف به الوجود الحيواني ، (ص ٦٣) ، وعنده ترتبط الحاجة إلى الهوية ، بالحاجة إلى الانتماء relatedness والتجذر rootedness والتسامي transcendence كالحاجة إلى الإحساس بالهوية ، حيوية وملازمة للإنسان .

ويؤكد إن إحساس الإنسان بهويته ينمو منذ خروجه من فلك ، الروابط الأولية، التي تربطه بأمه وبالطبيعة ، فالطفل الذي لا يزال يشعر بتوحده مع أمه ، لا يستطيع إطلاقاً أن يقول ، أنا ، فليس به حاجة إلى أن يقول ذلك ، وهو لا يستطيع أن يعي ذاته ، إلا بعد أن يعي أن العالم الخارجي منفصل ومختلف عنه ، ومن الكلمات التي يتعلم الطفل استعمالها متأخراً كلمة ، أنا ، مشيراً إلى نفسه .

ويؤكد فروم أن ، مشكلة الإحساس بالهوية تنبثق من ظروف الوجود الإنساني نفسه ، وهي مصدر أقوى وأعمق ما ييذله الإنسان من نضال في حياته ، (ص ٦٤) .

ورغم شيوع استخدام مفهوم الهوية وفقاً لتصورات أريكسون عنه في الدراسات النفسية ، إلا أن حقبة الثمانينيات ولا سيما بعد سقوط حائط برلين ١٩٨٩ ، قد شهدت تطوراً في استخدام مفهوم الهوية بربطها بالتصورات العرقية والسلالية والقومية والثقافية ، لدرجة تقلصت معها الدراسات التي تتخذ من مفاهيم أريكسون موضوعاً لها عن هوية الأنا ، وعدم تعيين الهوية ، وأزمات الهوية وانغلاقها ، وتعلقها اجتماعياً ونفسياً .

ودليل ذلك أن برنامجاً على الإنترنت (Psyclit) قد عرض ١٠٤٣ دراسة في

سنتي (٩٦ - ١٩٩٨) عن الهوية الثقافية العربية ، والمجتمعات المتعددة الهويات والثقافات .. إلخ ، ولم يعرض لدراسة واحدة عن هوية الأنا أو أزمت الهوية على النحو الفردي .

وهذه الكثرة من البحوث دليل على تجاوز الباحثين لمفهوم الهوية بالمعنى الفردي ، وإلى الهوية بالمعنى القومي والثقافي ، وذلك الذي يمثل القاسم المشترك أو الرمز الذي يلتف حوله جماهير الأمة أو الشعب ، في كل لا اشتراك فيه .. ميادين لغيره من الأمم والشعوب ، في عصر تهيمن عليه مفاهيم الكوكبية والكونية والدعوة إلى انصهار الهويات الإقليمية في هوية عالمية واحدة .

والهوية بالمعنى القومي أو الثقافي ، لا يولد الإنسان وهو مزود بها ، بل يكتسبها ولهذا يعرف بسام طيبي الهوية بأنها: « مفهوم اجتماعي - نفسي يشير إلى كيفية إدراك شعب ما لذاته وكيفية تمايزه عن الآخرين ، وهي تستند إلى مسلمة ثقافية عامة ، مرتبطة تاريخياً بقيمة اجتماعية وسياسية واقتصادية لمجتمع ، .

ومن هذه الزاوية فالهوية الثقافية « نسبية غير مطلقة » قائمة في الزمان ، غير خارجة عن نسيجه ، وأية ثقافة هي قبل كل شيء استثمار متميز للزمان ، (بوغالي ١٣٧) ذلك أن الزمان شيء نادر يمكن استثماره ، قد تتصف بالجمود ، وقد تصف بالحيوية والقدرة على التعايش مع متطلبات العصر ومتغيراته .

وهنا يثور سؤال :

ما الثقافة ؟

ثانياً : الثقافة Culture :

الثقافة من أكثر الكلمات استخداماً ، ومن أشدها غموضاً ، وقد يرجع هذا الغموض إلى تعدد معاني الثقافة وتباينها في كثير من الأحيان .

بيد أن الأمر الذي لا ريب فيه أن لكل مجتمع ثقافة تميزه وتبلور معتقداته وقيمه ومبادئه وعلاقاته الاجتماعية وأنماط سلوكه وتحيزاته الأيديولوجية .

وقد تتشابه بعض المجتمعات في بعض أشكال الثقافة وأنماط السلوك ، غير أنها تتباين عند فحص الخصوصيات المميزة لهذه الثقافة .

ولعل في الكشف عن منابت كلمة « ثقافة » ، في استخداماتها اللغوية ، ما يعين على استجلاء القصد منها ، فكلمة « ثقافة » من ثَقَفَ ثَقْفاً ، بمعنى صار حاذقاً فطنا .

أما ثقف الشيء ، فمعناه أقام المعوج منه وسواه ، وثقف الإنسان ، أدبه وهذبه وعلمه ، ومن ثم فإن الثقافة هي العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها ، واشتقت كلمة Cultura اللاتينية ومشتقاتها في اللغات الأوربية الحديثة من الفعل اللاتيني Colo era ui cultum وهي تعنى فى الأصل الفلاحة Agriculture والعبادة Cults .

وهذان المعنيان من أصل كلمة ثقافة ليسا متناقضين أو متباعيين ، بل هما فى الواقع يمثلان الركنتين الأساسيين لمعنى الثقافة ، ففلاحة الأرض تعنى العناية بها ، وتهذيب تربتها ، وتشذيب أشجارها ورعاية براعمها ، وعلى الجانب الآخر تنهض الثقافة بمهمة صقل العقل ، وتهذيب النفس وتنمية الأخلاق والتنوير ، وشحذ الطاقات الخالقة على الإبداع ، ، وذلك هو المعنى الوارد فى معجم ويبستير Webster ، ١٩٦٥ ، (ص ٢٠٢) .

وتتضمن الثقافة سواء فى أصولها اللغوية العربية وفى اللغات الأخرى مجموعة من القيم ، يتمثل بعضها فى الإيمان ، والطهارة ، والجمال ، والفتنة والتقدم ، والإتقان ، فدون هذه القيم لا يمكن للإنسان أن يفلح فى زراعة الأرض أو العبادة بشعائرها وأماكنها .

ومن هذه الاشتقاقات اللغوية ثقف الثقافة عند المستوى الرفيع من التكوين الإنسانى ، من حيث هى صقل للذهن وتهذيب للسلوك وتنمية أخلاقية وروحية له ، أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال الإنسانى ، وكون وظيفتها إعداد وتهذيب وصقل للروح والعقل معاً .

وهذا المعنى من معانى الثقافة يتصف به الآحاد من الناس الذين يمثلون النخبة الممتازة ، أو القاطرة التى عليها أن تجر بقية العربات إلى أقصى حد ، سموا بالتكوين العقلى والروحي والأخلاقى للإنسان ، ذلك الذى يتمثل فى إبداعاته الخلاقة ، وإشراقاته الروحية ، وصروحته العلمية التفسيرية .

وتظل هذه الجوانب المضيئة قائمة بشخص مبدعها ، مرتبطة بهم ارتباطاً عضوياً بغير افتراق .

والوجه الآخر للثقافة يتمثل فى الجانب الاجتماعى ، والذى يتضح من تعريف تيلور Taylor (١٨٧٠) ، وهو تعريف شائع على المستوى الاجتماعى ، وينص على أن الثقافة ، ذلك الكل المركب الذى يتضمن المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف وأية قدرات أو عادات ، يكتسبها الفرد بوصفه عضواً فى المجتمع ، (ص ٤٦) .

وعلى هذا المنحى قدم بيرستند تعريفه للثقافة باعتبارها ، ذلك الكل المركب الذى يتألف من كل ما نفكر فيه ، أو ننهض بعمله أو نملكه كأعضاء فى المجتمع ، (ص ٢٥) .

وعلى نحو أكثر توضيحاً لعناصر الثقافة فى تكوين الأمة ، يرى (جوكالب) أن العنصر الرابط فى كل أمة هو الدين ، ومن جهة أخرى .. فإن العناصر الموحدة للأمة هى اللغة والأخلاق والقوانين والمؤسسات الاقتصادية والعلوم والفلسفة والتكنولوجيا ، وهذه المجالات فى كل أمة لا بد وأن تكون متسقة وموحدة ، وكلها يطلق عليها لفظ ثقافة (ص ٢٢٢ - ٢٢٤) .

ويركز جوكالب على اللغة بوصفها جوهر الحياة الاجتماعية فى جميع أنحاء ، شأنها فى ذلك شأن الدين والأخلاق والسياسة والاقتصاد والعلم والفنون الجميلة .

وعلى الرغم من عمومية تعريف جوكالب للثقافة وما تنطوى عليه من عناصر ، إلا أنه أغفل الثوابت الجغرافية والمتغيرات التاريخية ، التى تمثل فى تفاعلها مع المكان بوتقة الانصهار لكافة عناصر الثقافة الأخرى فى تميز فريد لا إشراك فيه .

ويقترّب من هذه التعريفات تعريف معجم اكسفورد (١٩٨٢) للثقافة بأنها الاتجاهات والقيم السائدة فى مجتمع معين ، كما تنعكس فى الرموز اللغوية والأساطير وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية ، (ص ٢٣١) .

وهذا الجانب الاجتماعى من الثقافة يمثل نقطة البدء فى حياة الإنسان الواعية ، التى يكتسبها الإنسان بما تنطوى عليه من قيم وأساليب حياة ولغة ورموز وعادات وعرف ، بفضل وجوده داخل المجتمع ، بفعل التنشئة الاجتماعية والتعلم .

وينعكس هذا الكل المركب من المكونات الفريدة لثقافة المجتمع فى سلوكه ، وفى حركته ووجوده وتحيزاته الأيديولوجية وعلاقاته الاجتماعية .

الثقافة - إذاً - هى ذلك الائتلاف الفريد من كل ما هو روحى سام مجاوز للواقع ، ومن كل ما هو مادى لصيق بالأرض وبمعتك الحياة .

الثقافة هى اللغة بوصفها وجداناً يعبر عن مشاعر وآمال ورؤى شعب ، وبوصفها أداة للتفكير والتواصل .

الثقافة هى الكلمة Logos وبالكلمة أصبح الإنسان إنساناً ، والثقافة ثقافة ! الثقافة هى تلك المكونات الفريدة التى تميز شعباً وأمة عن غيرها من الأمم . الثقافة كائن حى اجتماعى نام ومتطور ، لا يعرف الجمود ، ولا يحيا بغير سند من «موروثات

تراكمت عبر العصور ، ، متمتعاً بتلك القابلية للتطور والنماء مع حركة وإيقاع العصر ولا سيما للشعوب التي تتسم بالحيوية والدينامية والعراقة التاريخية .

الثقافة نواة الشخصية بالنسبة للفرد والأمة ، فهي التي تحرك الإنسان في الحقل وفي المصنع والمدرسة والجامعة والمسجد والكنيسة ، وهي التي تتحكم في حركة الحياة في الشارع والأسواق .. بتقدم الثقافة تستقيم الحياة على المستوى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وبالتعمق الثقافى ترقى الآداب والفنون والعلوم والذوق العام .

الثقافة أرض ووطن وكيان له ، ثوابته الجغرافية ، ، و ، متغيراته التاريخية ، .

ومن جميع ما سبق نستخلص بعض الأسس التي يمكن أن يستند إليها تعريف الهوية الثقافية المصرية ، وما تنطوى عليه من عوامل :

أولاً : إن تعريفات الهوية والثقافة ، سواء في أصولهما اللغوية أم المعجمية تكاد تكون نقطة التقاء بين الشرق والغرب .

ثانياً : إن الهوية هي ماهية الشيء essence أى جوهره الذى يعبر عن حقيقته في كل منفرد لا إشراك فيه .

ثالثاً : إن هوية الشيء تتحدد بالصفة التي تنعت عليه ، بحيث تصبح الصفة والموصوف كلاً واحداً ، يدل معناه عن شيء كلى ، يميزه عن غيره من الأكلال .

رابعاً : ومن جماع (٢ ، ٣) فإن الهوية تعنى مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة في الأشياء والأحياء ، فللمكان هويته الخاصة ، كما للإنسان هويته المتفردة عن غيره من الناس ، ومن ثم فإن الثوابت الجغرافية ، والمتغيرات التاريخية ، والموروثات الثقافية ، عناصر مكونة للهوية .

خامساً : إن للهوية الثقافية هي الرمز أو القاسم المشترك ، أو النمط الراسخ - Stereo-type الذى يميز فرداً أو مجموعة من الأفراد أو شعباً من الشعوب عن غيره .

ومن خلال هذه الأسس يمكن تحديد الهوية الثقافية المصرية بأنها : هوية ثقافية متفردة ، شكلتها ، ثوابت جغرافية ، ، ومتغيرات تاريخية ، وتراث ثقافى تراكم عبر السنين ، ووسطية في السلوك والاعتقاد ، ووجود زمنى يتصف بالحيوية والقدرة على التجدد ، . ويعبر عن هذا التعريف عدد من العوامل التي قد تتمثل في :

- ١ - المصرية ٢ - الانتماء ٣ - السلام
٤ - التسامح ٥ - العنف

دراسات سابقة عن الهوية :

إن موضوع الهوية محوري في الدراسات النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، ويمكن تقسيم الدراسات التي تتصل بهذا الموضوع إلى قسمين : ما قبل سقوط حائط برلين ، وما بعد سقوطه .

ما قبل سقوط حائط برلين ، كانت الدراسات الثقافية تدور - إلى حد كبير - حول الهوية من حيث أبعادها ومكوناتها النفسية ، وقوتها وضعفها ، وما يرتبط بها من متغيرات لدى الفرد والجماعة التي ينتمى إليها . وبعد سقوط حائط برلين ، بدأ واضحاً أن عالماً جديداً يتشكل ، تهيم عليه مفاهيم الكوكبية والكونية والاعتماد المتبادل والإبداع لمن أراد أن يكون له موقع متميز في صميم العالم .

وهنا بدأت الدراسات النفسية ، والتي تتخذ من الهوية موضوعاً لها ، تدور حول الهوية العرقية والهوية العنصرية ، والمجتمعات المتعددة الهويات والعرقيات والثقافات ، وكيفية انصهار الهويات الثقافية الإقليمية في هوية ثقافية واحدة ، ذات طابع كوكبي . وانتقل الصراع الماهوي من داخل الذات إلى خارجها ، ومن الأنا إلى الآخر ، ومن الهوية من حيث الضعف أو القوة الفردية إلى الصراع الثقافي .

وقد يرجع ذلك إلى انهيار الأبنية الأيديولوجية الكبرى ، التي كانت تبلغ بالأيديولوجية حد المعتقد والمقدس ، والتي كانت تملك خاصية الاحتواء والاستقطاب الأيديولوجي لما عداها من هويات ثقافية . فبعد أفول الأيديولوجية - الماركسية وانهيارها بتفكك الاتحاد السوفيتي وسقوط حائط برلين ، واندلاع الثورة في دول شرق ووسط أوروبا مطالبة بالحرية والديمقراطية والتحول الاقتصادي ، أصبح لزاماً على إنسان هذه الحقبة أن يعود باحثاً عن هويته الثقافية وهويته العرقية وعن أبعاد التميز الثقافي ومحاولة تحديده .

وفي محاولته هذه ، تفجرت صراعات شتى في أنحاء العالم ، في البوسنة والهرسك وكوسوفا ورواندا والشيستان وغيرها من بلدان العالم ، ففي عام واحد ، وهو عام ١٩٩٣ تفجر ما يقرب من ٤٨ حرباً عرقية في العالم ، ١٦٤ شكوى وصراعاً عرقياً على الحدود في الاتحاد السوفيتي السابق ، كان من بينها ثلاثين حرباً تضمنت شكلاً من أشكال الصراع المسلح ، (هنتنجتون ، ١٩٩٤ ، ١٤٠) .

وهنا بدأت الكتابات على نحو غير مسبوق تتعرض لموضوع الهوية ، فكتب هنتنغتون عن الصراع الثقافي وعن صدام الحضارات ، وكتب فوكوياما عن ضرورة انصهار الثقافات المحلية والإقليمية في ثقافة العالم الغربى حيث الديمقراطية الليبرالية .

ويتخذ أوزيرمان وساكاموتو ، Oyserman & Sakamoto ، (١٩٩٧) من الولايات المتحدة نموذجاً للمجتمع الذى يعيش فى ظل تعدد ثقافى وعرقى منصهر فى بوتقة واحدة بقوله أمريكا مجتمع ، متعدد الثقافات ، متعدد العرقيات ، بيد أنه مجتمع واحد ، (ص ٤٣٥) .

ويحذر فيلبس جيرى Jerry (١٩٩٧) فى كتابه ، مصير الأرض The fate of The Earth ، من وهم التمسك بالهوية الثقافية ، مؤكداً أن ، مصير الأرض مرتبط بتجاوز وهم الهوية الثقافية ، (ص ١٨) .

ويؤكد بيرجر وآخرون ، أن الهوية الحديثة مفتحة وعابرة ومتغيرة على الدوام ، (ص ٣٤) ، وهذا لا يعنى أن تفجر الصراعات الثقافية كان شيئاً ، غائباً ، بل كان كامناً ومتحفظاً للانطلاق ، ولعل هذا ما يفسر هذه الصراعات المتفجرة فى أنحاء شتى من العالم ، ويفسر أيضاً تلك الكثرة من البحوث والدراسات التى تناولت الهوية الثقافية والعرقية .

وهنا تثار عدة أسئلة :

* هل تفجر صراعات الهوية الثقافية راجع إلى الخوف من طبيعة العصر الحالى ؟

* وهل الهويات الثقافية مكونات راسخة تستعصى على الانصهار فى بوتقة عالمية واحدة ذات توجه كوكبى منفرد ؟

* وهل القول بهوية ثقافية عالمية احتوائية ضد طبيعة الإنسان ككائن منفرد ومباين ، وأن تفردته وتباينه هما سر تقدمه ، وأن تقدمه قائم على حوار التباينات الثقافية وليس الصدام بينها ؟

* وهل ما مزقته الأيديولوجية ، تجمعها اليوم الهوية الثقافية ، وما استقطبته الأيديولوجية تمزقه الآن الثقافة كما هو الحال فى ، الألمانيتين ، ودول الاتحاد السوفيتى السابق ؟

* وهل التطور والتفجر المعرفى المتواصل والذى يتجاوز كل قدرة على التنبؤ بما هو قادم ، يلزم عنه تطوراً موازياً فى هويات الأمم والشعوب ، أو كما

يقول نوفلر (١٩٧٤) حينما تتغير الأشياء من حولك فإن تغيراً موازياً يحدث في داخلك ، ؟ (ص ٣٦) .

وتحاول الدراسات التالية الإجابة عن بعض هذه التساؤلات : وهي تنقسم إلى قسمين ، قسم خاص بالهوية الثقافية ، والآخر خاص بالهوية من حيث القوة والضعف ، وما يرتبط بها من متغيرات وما تنطوي عليه من خصائص . وفيما يلي عرض لأهم هذه الدراسات :

قام أوزيرمان وساكوموتو Oyserman & Sakamoto (١٩٩٧) بمحاولة لاستجلاء نوعية التفاعل بين التوجهات الفردية والجماعية والهوية العرقية Ethnic والمعتقدات الخاصة بالنمط الثقافي Stereotype لدى الآسيو أمريكيان .

وقد افترض الباحثان أن للهوية الآسيو أمريكية أربعة مكونات :

الأول : يكمن في مشاعر الاعتماد المتبادل Interdependence بين الفرد وأسرته .

والثاني : يكمن في الإحساس بالانتماء إلى التقاليد والموروثات الثقافية الآسيوية .

والثالث : يكمن في الاعتقاد بأن كل إنجاز يحققه الفرد ينعكس بالضرورة على أسرته بصفة خاصة وجماعته ، التي ينتمي إليها بصفة عامة .

والرابع : يكمن في الوعي بالحدود العنصرية التي تفصل الآسيوى عن الآخرين ، وتؤكد اشتراكه مع جماعته في مصير مشترك واحد .

وفي محاولتهما للتحقق من صحة هذه الفروض ، استخدم الباحثان مجموعة المقاييس على عينة قوامها ١٦٢ آسيو أمريكيا (٨٥ إناثاً ، ٧٥ ذكوراً) ، ينتمون جميعاً إلى شرق وجنوب آسيا (هونج كونج ، الصين ، كوريا ، وفيتنام ، واليابان) واستبعدا من العينة أى آسيوى لا ينتمى إلى هذه البلدان مثل الهند أو باكستان ، وتشكلت عينة الدراسة من ثلاث مجموعات : الأولى ٣٣,٣% من الصينيين ، و٣٥,٨% من اليابانيين والفلبينيين والفيتناميين والتوانيين ، و٢٨,٤% من الكوريين .

واستخدما مجموعة من المقاييس تتمثل في :

مقياس الهوية الآسيو أمريكية ASAMID * :

وهو من إعداد (Oyserman ، ١٩٩٥) وقد أعيدت صياغة عباراته لتلائم عينة البحث ، وأخضع للتحليل العاملى ، فأُسفر عن أربعة عوامل :

- * قوة الترابط ، التواصل ، Connectedness .
- * الاهتمام الأسرى Family focus .
- * الإنجاز القائم على الاعتماد المتبادل Interdependent achievement .
- * الوعي بالنزعة العنصرية Awareness of Racism .
- ثم طبق الباحثان مجموعة أخرى من المقاييس ، تتمثل فى :
- * أخلاق العمل Work ethic ، إعداد Katz and Hass (1988) .
- * الفردية Individualism إعداد Oyserman (١٩٩٣) .
- * النزعة الجماعية Collectivism إعداد Oyserman (١٩٩٣) .
- * تقدير الذات الجمعى Collective Self - Esteem (CSE) إعداد Lutha-
(1992) nen and Crocker
- * العنصر والعرق كحدود للنجاح Race / Ethnicity as Barrier to Suc-
cess إعداد الباحثين .
- * نموذج الأقلية Stereotype and Model Minority
- * النمطيات والاستراتيجيات Stereotypes and Strategies
- للتعبير عن السلوك المفعم بالانفعال ، والذي يبلغ حد التعصب لسلالة معينة أو
توجه عرقى بذاته .
- وقد أسفرت النتائج عن أن الطلبة الآسيو أمريكيان يتصفون بروح جماعية
التوجه ، وأن الروح الجماعية لديهم أشد من الروح الفردية ، وأن الفردية والجماعية
مستقلتان وغير مرتبطتين .
- وأن ثمة ارتباطاً موجباً بين النزعة الجماعية COL وتقدير الذات الاجتماعى
CES ، وأن الفردية IND ترتبط بتقدير الذات الجماعى CES ، وأن النزعة الجماعية
ترتبط ارتباطاً قوياً بالنزعة العرقية والإحساس بالتمييز العنصرى وجميعها مكونات
مميزة للهوية الآسيو أمريكية ، التى تشكل منظومة موحدة من التوجه والسلوك
والاعتماد ، تتكون من ذلك الانتماء الذى يبلغ حد الافتخار Pride Heritage
بالموروث الثقافى الآسيوى ، والارتباط الأسرى البالغ الحميمية ، والإنجاز القائم على
الاعتماد المتبادل ، والوعي بالتمييز العنصرى الذى يميز الآسيو أمريكيان عن غيره من
الأجناس والسلالات .

وأُسفرت النتائج عن ارتباط بين النزعة الفردية والجماعية (٠,٠١) غير أنها لم تسفر عن ارتباط النزعة الفردية بمكونات الهوية الآسيو أمريكية .

وثمة نتيجة أخرى محورية أسفر عنها البحث ، وهى أن هناك ارتباطاً دالاً بين أخلاق العمل والنزعة الجماعية على كافة الأنحاء (عند مستوى دلالة ٠,٠٥) وقد بلغ (٠,٠١) مع مكونات الهوية الآسيو أمريكية ، بيد أنه لم يكن دالاً بين أخلاق العمل والنزعة الفردية ، وتقدير الذات الجماعى ، وأن ثمة ارتباطاً دالاً بين الإنجاز القائم على الاعتماد المتبادل ، والإحساس بالهوية العرقية والارتباط الأسرى وغيرهما من مكونات الهوية الآسيو أمريكية .

وهذه النتائج تعنى أولاً أن هناك نمطاً راسخ التكوين ، شكلته عوامل ثقافية وعرقية وسلالية ، منحت الهوية الآسيو أمريكية طابعها الفريد والتميز ، كهوية ثقافية وعرقية ضاربة بجذورها فى عمق التاريخ ، استمدت مقوماتها من حضارة صينية رائدة ، وأن المكونات الأصيلة لهذه الهوية تتسم بثبات بلغ حد الـ Stereotype مفعم بتمركز عرقى وسلالى وقيمى ، يجعل من الأسرة معنى مرجعياً ، ومن النزعة الجماعية وروح الفريق قيمة قصوى فى العمل ، وأن تحقيق الفردية لا يتم إلا فى إطار الجماعية حتى يبلغ الفرد إلى تقدير الذات ، ليس على المستوى الفردى فحسب ، بل على المستوى الجماعى أيضاً ، وأن الارتباط بالموروث والالتزام القيمى بالتقاليد هما دافعان للتقدم وللحفاظ على الهوية .

وثانياً: إن العينة التى اختارها الباحثان دليل وعى منهما على أن للتقدم معطياته الثقافية ، فأفراد العينة ينتمون إلى حضارة صينية ، لها ثوابتها الجغرافية ومتغيراتها التاريخية ، وتراثها الفكرى والحضارى المتميز فى العالم القديم ، واليوم حققت مجتمعات عينة الدراسة وثبات كيفية فى عالم الاقتصاد والمعرفة والاستخدام الرفيع المستوى للتكنولوجيا المعاصرة ، وإنتاجها وتسويقها ، لدرجة أصبحت هذه المجتمعات المنافس الحقيقى للعالم الغربى ، بل تجاوزت الغرب فى كثير من المجالات .

ثم إن وعى الفرد بأنه يعمل فى إطار من الجماعية يجعله يشعر بأنه مسئول وملتزم ومدفوع بقوة دفع إلى الأمام ، متى تمسك بهويته الثقافية فى إطار من معطيات عصره التكنولوجية والمعرفية والثقافية أيضاً .

وتتفق نتائج دراسة روثرمان Rotherman وآخرون (١٩٩٨) مع دراسة Oy-serman وآخر (١٩٩٧) فى الاعتزاز بالهوية الثقافية والعرقية لدى الآسيويين ، واتخاذهم الأسرة كجماعة مرجعية وتمركزهم حول التقاليد والتمسك بها ، من خلال

دراسة أوزيرمان وآخرين عن الفروق النمائية والعرقية والجنسية Gender من حيث الذكورة والأنوثة ، لدى مجموعة من المراهقين (ن : ٣٢٥) ، تشكلت من خمس مجموعات عرقية متباينة تتمثل في : الأفرو أمريكيان ، والبريطانيين ، والفلبينيين ، ومجموعتين من أمريكا اللاتينية .

وصمم الباحثون مقياساً لقياس الهوية العرقية ، يحتوى على أبعاد تتمثل في :

١ - الاعتزاز العرقى Ethnic pride .

٢ - الجماعة المرجعية .

٣ - التقلوب داخل الجماعات العرقية Stereotyping of ethnic groups .

٤ - القيم والتوقعات الاجتماعية .

وقد كشفت النتائج أن ثمة (انفصالاً) أو استقلالاً بين أبعاد الهوية العرقية ، ولا توجد ارتباطات دالة بين مكونات الهوية العرقية ، بيد أن النتائج كشفت عن وجود ارتباط بين بنية الهوية العرقية كعامل عام وبقية العوامل ، وكانت هذه النتائج متشابهة لدى الجنسين فى المراحل الدراسية (١١ - ١٦) ، غير أنها كانت منخفضة لدى المراحل (٩ - ١٠) .

وأظهرت النتائج أن الإناث أشد تمسكاً بالمعايير القيمية للجماعة العرقية عن الذكور .

وفى بحثهم عن المتغيرات النفسية كمنبئات لإدراك التمييز العرقى لدى الأقليات والمهاجرين من المراهقين ، أوضح فينى Phinney (١٩٩٨) وآخرون ، أن التمييز العرقى قضية مركبة تستعصى على التحديد موضوعياً فى أمريكا ، وهذا مردود إلى أن جزءاً من تعريفها يخضع لنوايا intentions الأفراد ، ومن ثم فإن إدراك التمييز العرقى يتأثر بنوايا الآخرين ، ونظرتهم التى تفتقر إلى الموضوعية إلى هذه الجماعات والموصومة بخصائص خاصة بهم Stigmatized group تنطوى على خصائص عرقية مثل لون الجلد وطول القامة ، وملامح فيزيقية أخرى مميزة ولغة مباينة ، وسمات ثقافية مغايرة للسمات الثقافية للأغلبية الأمريكية .

ويستهل الباحثون دراستهم بتأكيد أن التمييز العرقى ظاهرة موثقة تماماً فى أمريكا ، وتأتى نتيجة ملازمة للكثرة من البحوث الاجتماعية والنفسية التى أكدت نتائجها تدنياً فى الرواتب ونقصاً فى الوظائف التى توفر لهذه الأقليات ، وعلى المستوى النفسى ، ثمة مؤثرات سلبية يحدثها التمييز العرقى تمثل ضغطاً نفسياً فى مجرى حياة هذه الجماعات بخاصة ما يتصل بأدائهم ودافعيتهم للإنجاز .

ولمعرفة المتغيرات النفسية التي تؤثر في إدراك التمييز العرقي لدى عينة قوامها ١٦٤ مراهقاً (٦٠ ذكوراً، ١٠٤ إناث) ، وتوزعت العينة على النحو التالي : ٥٩ مكسيكو أمريكياً ، ٥٥ فيتنامياً ، ٥٠ أرمينيا ، ٦٧ من أفراد العينة ولدوا في أمريكا من آباء مهاجرين ، ٨٨ مكسيكو أمريكيا ولدوا في الولايات المتحدة ، وتتراوح أعمار أفراد العينة (١٤ - ١٩ عاماً) ، (م : ١٦,١ - انحراف معياري ١,٢) .

واستخدم الباحثون بطارية من الاختبارات ، تمثلت في :

* إدراك التمييز العرقي (PD) Perceived Discrimination إعداد الباحثين .

* قياس الهيمنة Mastery Scale .

* الاكتئاب / القلق : إعداد Beiser & Fleming .

* الكفاية بين الجماعات Intergroup competence .

* الهوية العرقية Ethnic identity .

* إضافة إلى المتغيرات الديموجرافية الخاصة بعينة الدراسة .

وأسفرت النتائج على أن هناك علاقة دالة بين الإدراك الحسي للتمييز العرقي وتقدير الذات ، والقدرة على التحكم في الذات ، والكفاية بين الجماعات والاكتئاب والقلق .

بمعنى أنه كلما ارتفع حدة الشعور بالقلق ، تضاعلت قدرة الفرد على التحكم في ذاته وقل تقدير ملذاته ، وأضحى أشد إدراكاً للتمييز العرقي ، الأمر الذي يدفعه إلى التفوق داخل ذاته ، ومن ثم العيش في كنف عزلة نفسية واجتماعية تترجم ما يعانيه من اكتئاب وإحساس ضاغط بالتمييز العرقي .

وأكدت النتائج أن العلاقة بين إدراك التمييز العرقي ، وتقدير الذات علاقة عكسية ، فكلما ارتفع نصيب الفرد من الثقة في نفسه وفي قدراته بلغ الإحساس بتقدير الذات ، ومن ثم لا يخبر التمييز العرقي بينه وبين الآخرين .

وقد استخدم الباحثون تحليل الانحدار المتعدد للتنبؤ بما قد يسفر عنه إدراك التمييز العرقي من متغيرات نفسية (تقدير الذات ، الهوية العرقية ، القلق ، والاكتئاب . والهيمنة والكفاية الاجتماعية) ، وأسفرت نتائج تحليل الانحدار عن أن المراهقين الأشد قلقاً واكتئاباً هم أكثر أفراد العينة شعوراً بالتمييز العرقي وأن الذين يحققون تفاعلاً إيجابياً بين أفراد الجماعة أقل شعوراً بالتمييز العرقي ، وأن المتغيرات الديموجرافية ليست لها أي قيمة تنبؤية .

ويؤخذ على هذه الدراسة استخدامها لفظ Stigmatized groups لوصف بعض الأقليات العرقية داخل أمريكا لسببين :

الأول : إن استخدامها هذا اللفظ ينطوى على تحقير لهذه الجماعات ؛ لأنه يوصمها بخصائص بدنية وفيزيائية كطول القامة ولون الجلد واختلاف اللغة للتمييز بينها وبين الجماعات غير الموصومة بهذه الخصائص البدنية ، والتي يسميها Non stigmatized باعتبارها تمثل الأغلبية .

الثاني : إن التحقير الذى ينطوى عليه استخدام هذا اللفظ وقف بالباحثين عن حدود الملامح الجسمية والخصائص النفسية ، ولم يتجاوزهما إلى التأكيد على الإمكانة والقدرة والطاقة الإبداعية .

ثم إن هذه التباينات التى يصفها الباحثون بأنها Stigmatized إنما هى تباينات شكلتها عوامل جغرافية وطبيعية لبلدان تتصف بالقدم فى التاريخ القديم - وهذه معان لا تعرفها أمريكا التى ليس لها تراث مركب ، ولا تسيطر عليها أية أساطير عرقية أو مفاهيم دينية قديمة ، ذات امتداد زمنى .

وفى دراسة عن السكان الأصليين لأمريكا Indigenous فى مجتمع تصفه Weaver (١٩٩٨) بأنه مجتمع متعدد الثقافات وفريد فى نوعه ، وتوضح الباحثة أن السكان الأصليين فى أمريكا يختلف تاريخهم وثقافتهم عن تاريخ المهاجرين إلى الولايات المتحدة ، فهم أبناء شرعيون لهذا المجتمع ، ونبت طبيعى لهذا المجتمع ، وأن الحكومة الأمريكية تضع ضمن أولياتها الحفاظ على ذاتية هؤلاء السكان وحمايتهم ، رغم العزلة والانفصال عن المجتمع .

وتؤكد أن كثيرين من هؤلاء السكان يجهلون أن الحكومة الفيدرالية تمنح هؤلاء السكان حقوقاً شرعية ، وتحدد مسؤوليات إزاء هؤلاء السكان صحياً وإنسانياً .

وأن المشكلة المحورية لهؤلاء السكان - كما تقول الكاتبة - أنهم يشعرون بهويتهم الثقافية ، وبأنهم يعيشون صدمة تاريخية Historical trauma وأن لهم طموحات فى دولة ذات سيادة Sovereignty .

وتتجلى الهوية الثقافية للسكان الأصليين فى أنساق القيم والعادات والرموز المعتقدات ، التى تعبر عن تراث ثقافى متراكم عبر العصور مازال يعيش معهم حتى اليوم .. وهذا سر عزلتهم المطبقة وعزوفهم عن الاندماج فى المجتمع الأمريكى .

ولعل فى الدراسة التى قام بها Dijs وآخرون (١٩٩٧) ما يوضح الاعتزاز

بالجذور العرقية والجنسية والثقافية للأفروأمريكيين ، وهم من جذور أفريقية تم شحنهم إلى الولايات المتحدة وظلوا حتى أوائل الستينيات من هذا القرن يعانون من التفرقة العنصرية ، التي خلقت لديهم ما يشبه الجيتو الأفريقي في المجتمع الأمريكي .

وهدفت هذه الدراسة تحليل كلام Talk النسوة الأفروأمريكان لمعرفة تأثير الهوية العرقية والجذور العنصرية Racism والثقافية على الخطاب Discourse الأفروأمريكان ، وكشف تحليل مضمون هذا الخطاب عما يكمن خلفه من علاقات بين شخصية لدى الجماعة الأفريقية ، وأن ثمة تأثيراً كبيراً للهوية الثقافية والعرقية على الممارسات الحياتية لدى الأفارقة .

وأُسفرت النتيجة المحورية لهذا التحليل أن الخطاب الأفروأمريكان لا يحتوي على تعبيرات ، تعبر عن الهوية الثقافية والعرقية فحسب باستخدام مفردات وأصول لغوية مستمدة من التراث الأفريقي ، وأيضاً الإصرار على أهمية الارتباط والخضوع للهوية العرقية والثقافية ، وأن هذه الهوية تظهر بوضوح في الكلام الشائع بين الأفارقة الأمريكيين ، وفي التواصل الاجتماعي بينهم ، وأن لديهم إصراراً للمحافظة على النقاء العرقي والسلالي للهوية الأفريقية .

ويتجلى هذا الإصرار في الحفاظ على الهوية الثقافية من خلال اللغة لدى طلاب جزيرة بورتوريكو .

فقد هدفت دراسة إيرلين Arlene (١٩٩٧) معرفة انعكاسات تعلم اللغة الإنجليزية على البناء الاجتماعي والسياسي والأيديولوجي لدى طلاب بورتوريكو، على عينة قوامها (٨١٨) طالباً تتراوح أعمارهم ما بين (١٨ - ٢٢ سنة) .

وحددت الباحثة المشكلة المحورية لبحثها في ذلك التناقض الوجداني ambivalence الذى يعانيه طلاب هذه الجزيرة تجاه اللغة الإنجليزية ، ولاسيما وأن تعلم اللغة الإنجليزية يتم في سياق صداقة بورتوريكو كمستعمرة مع الولايات المتحدة الأمريكية . ومن المعروف أن بورتوريكو جزيرة على المحيط الأطلسي لها ثقافتها الخاصة وإرثها الثقافي الذى تعتز به ، ومن ثم يشعر شبابها أن تعلم الإنجليزية من شأنه أن يطمس معالم لغتهم الأصلية ويغريهم عن جذورهم الثقافية ، ولهذا أسفرت نتائج البحث عن خمس مشكلات أساسية لدى الشباب :

المشكلة الأولى تكمن في أهمية تعلم اللغة الإنجليزية كلغة عالمية بالمقارنة باللغة الإسبانية ، والمشكلة الثانية تتركز في أن المركز الاجتماعي والقيمة العالمية التى يصبو الشباب إلى بلوغهما مرتبطان بتعلم الإنجليزية ، والمشكلة الثالثة تدور حول

موقع اللغة الإنجليزية كلغة عالمية كوكبية فى وسائل الإعلام ، وضرورة ربط الجزيرة بالعالم ، ومعرفة ما يدور حولها من أحداث عالمية ودولية .

وتدور المشكلة الرابعة حول اللغة الإنجليزية بوصفها تهديداً للهوية الثقافية لهذه الجزيرة من شأنه أن يحتوى الجزيرة ثقافياً ، أما المشكلة الخامسة فتدور حول الصراع بين المستقبل السياسى للجزيرة ودور اللغة الإنجليزية فى ذلك .

وأشارت النتائج إلى أن تعلم الإنجليزية يمثل التحدى الحقيقى أمام طلاب بورتوريكو للدفاع عن إرثهم الثقافى ولغتهم المحلية vernacular ، ومن ثم فتعلم اللغة الإنجليزية قد يكون فعلاً مضاداً للوجود الاجتماعى والسياسى والأيدىولوجى لجزيرة بورتوريكو .

وفى دراسة عن التواصل بين الأمم والهوية الثقافية عبر ثقافات متباينة ، يطرح Dolores & Aiberto (١٩٩٨) تساؤلات ثلاثة : الأول يدور عن معنى الهوية المتعددة الثقافات ، والثانى أين يمكن أن توجد تلك الهوية المتعددة الثقافات ؟ والسؤال الثالث يدور حول الكيفية التى تتشكل بها هذه الهوية فى عصر الكوكبية Globalism وتلاشى المسافات بين الأمم .

وفى محاولتهما للإجابة عن هذه التساؤلات ، بينا أن الهوية الثقافية تستند إلى ثوابت جغرافية طبيعية ، وأبنية معرفية ، وتوجهات اجتماعية ، واتجاهات وتحيزات سياسية ، وأن هذه الثوابت قد تتصف بالمرونة والقدرة على التعايش مع طبيعة العصر الكوكبى ؛ الأمر الذى يسهم فى تطوير الهوية بأبعادها الثقافية والمعرفية والسياسية والاجتماعية ، وتتصف بالجمود ومن ثم التقوقع داخل الذات والتخلف ، وأن العصر الكوكبى يفترض أن تنصهر الثقافات لتشكل بنية المجتمع ذات الثقافات المتعددة .

تفسير ذلك أن العولمة والتقدم التكنولوجى ، والأخذ بآليات السوق وحرية التجارة جعلت من العالم قرية كونية واحدة قائمة على التقدم التكنولوجى وتجاوز المسافات بين الأمم والاعتماد المتبادل بين الشعوب ؛ الأمر الذى يسهم فى تحقيق التواصل من خلال الوحدة الكوكبية للإنسان .

وتتفق هذه الرؤية إلى حد كبير مع ما طرحه بيتر برستون Preston من رؤية متعددة الجوانب Interdisciplinary للهوية الثقافية من خلال منظور سياسى اتخذ من انهيار حائط برلين ١٩٨٩ بدء تاريخ جديد للعالم ، فبعد انهيار الحائط اندلعت الثورة فى وسط وشرق أوروبا مطالبة بالحرية والديمقراطية والاقتصاد الحر ، وتفكك الاتحاد السوفيتى ، وبدا واضحاً أن حقبة كوكبية تهيمن على العالم بأممه وشعوبه ،

وأن كافة الأيديولوجيات التى كان مسلماً بها ، اجتاحتها التغيير لدرجة أصبحت الهوية السياسية والثقافية ذات طابع كوكبى ، ينبغى أن يكون له السيادة المطلقة على كافة الهويات الثقافية فى عالم اليوم . بيد أن هذه الحقبة واكبها إعادة بزوغ Re-emergence الصين كقوة إقليمية وعالمية .

ومن خلال هذا السياق يقدم بيتر بترسون تحليلاً ثقافياً وسياسياً واقتصادياً للهوية من خلال أقطاب دولية ثلاثة : أوربا حيث تعيش إعادة ترتيب أوضاعها بما يتفق مع المرحلة الكوكبية ، ودول آسيا المطلة على المحيط الباسيفي (المحيط الهادى) ، والتى تمثل دول جنوب وشرق آسيا حيث الصين واليابان . وقد حققت هذه الدول وثبات تقدمية وتكنولوجية مذهلة فى كافة مناشط الحياة ، واستطاعت بإنتاجها المتميز أن تجد لنفسها أسواقاً عبر العالم أجمع ، وفوق كل هذا تمتاز هذه الدول باعتزازها بتراثها الثقافى وهويتها العرقية ، ورسوخها فى عالم اليوم ، ورغم ما بينها من تناقضات إلا أنها تناقضات فى سبيلها إلى الحل ، وعلى قمة هذه الدول تقف الصين كقوة عسكرية وبشرية واقتصادية تحتل لها مكانتها ، أما أمريكا ، فإنها تمثل القطب الأوحده الذى لا شريك له فى عالم اليوم .

وتدور دراسة بيركوتز وبارينجتون Berkowitz & Barrington (١٩٩٨) حول العنصر النزعة العرقية ، كما تظهر فى الصلات البينية للجماعات فى مجتمع متعدد العرقيات .

يوضح المؤلفان أن لفظ عنصر Race استخدم على أنحاء شتى ، بيولوجياً واجتماعياً وثقافياً ، وكان الهدف من استخدامه تمييز عنصر من البشر عن عنصر آخر، بيد أن هذا اللفظ قد أصبح موضع جدل كبير بسبب الاستثناءات على قاعدة ما عساه يشكل أى عنصر بذاته ، فثمة تباينات فى لون الجلد ونوعية الشعر والبنية ومحيط الوجه ، فلا توجد طبيعة واحدة تشكل معياراً أو محكاً لسلالة ، ومن المؤكد تقريباً - حسبما يؤكد علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية أنه لا يوجد شعب ولا قبيلة ولا أمة تمثل عنصراً نقياً Pure race .

ثم إن اللفظ استخدم فى كثير من الأحيان لتبرير تعالى أمة على أمة وشعب على شعب ، الأمر الذى فجر حروباً شتى فى العالم ، تحت وهم النقاء العنصرى الذى لا وجود له أصلاً .

ويذكر المؤلفان أن المصطلح فى استخداماته المعاصرة ، إنما يشير إلى المكونات الاجتماعية المركبة Complex Social Formations التى تشير إلى الجماعات العرقية .

وقد حاول المجتمع الأمريكي - وهو مجتمع متعدد العرقيات - أن يصهر هذه العرقيات المتباينة في بوتقة واحدة ، بيد أن الانصهار لم يكن كلياً ، فتاريخ كل الأقليات العرقية الأمريكية إنما يشير إلى عنصرين متضادين ، هما : التكيف والتمثيل Assimilation في مقابل الرفض والصراع ، فالبعض وذلك يمثل الأغلبية ، يتمثل ثقافة المجتمع بما تنطوى عليه من خصائص ويتحد مع الآخرين في حياة ثقافية مشتركة ، يتيح لإمكاناته وقدراته أن تتجلى (والبعض يواجه ثقافة المجتمع بالرفض والصراع ؛ لأن مكوناته الثقافية لم تستطع أن تتشرب ثقافة المجتمع ، والبعض الآخر على الضد من ذلك ، حيث يواجه ثقافة المجتمع من خلال الرفض والصراع) . ولهذا يقرر بينى Penny (١٩٩٧) بأن التباينات الثقافية شيء قائم يستحيل حتى في المجتمعات المتعددة الثقافات والعرقيات ، ففي دراسة له عن التعدد الثقافي والكوكبية Globalism في إطار من العلاج النفسي ، بين بينى من خلال رحلته العلمية كعالم نفس ، مارس فنيات العلاج النفسي لدى حالات تنتمي إلى ثقافات متعددة وعرقيات شتى ، أن ثمة علاقة بين النزعة العرقية Ethnocentrism والعلاج النفسي ، وأن العلاج النفسي القائم على افتراضات ثقافية غربية التوجه لا يحقق الشفاء المأمول ، ولهذا ينبغي أن يتمتع المعالج النفسي بحس ثقافي Culturally sensitive ، يمكنه من التعامل مع الحالة ، من خلال مكوناتها الثقافية والعرقية .

وانتهى إلى نتائج مؤداها أن تطور الهوية العرقية مردود ليس إلى وعى الفرد بهويته الثقافية فحسب ، بل أيضاً إلى وعيه بحركة المتغيرات في عالم اليوم ، والتي أصبحت ذات طابع كوكبي ، في عالم تجاوز فيه التطور المسافات الزمنية بين الناس وتهيمن عليه الكوكبية التي من شأنها أن توفر رؤية كوكبية تتجاوز الحدود العنصرية والعرقية التي تشكل الهويات الثقافية .

وتتخذ ارما بيودرى Beaudry (١٩٩٧) من التحليل النفسي مدخلاً لتفسير كيفية تجسيد Embodying الهوية الثقافية لدى الفرد ، فتبين أن ثمة عملية استدخال أو إدماج Internalization بين الأنا والآخر ، يتم من خلالها استدخال الآخر الذي يمثل الأب والأم والأسرة بوصفهم جماعة مرجعية Reference groups للفرد وعن طريقهم يتشرب الطفل سلوك ومعايير مجتمعه لدرجة تصبح معه ثقافة المجتمع مكوناً من مكونات الفرد الداخلية Interiorize .. وبهذا ننصح بضرورة استناد العلاج النفسي إلى فهم للهوية الثقافية للفرد ، ودون معرفة بتلك الهوية يصبح العلاج النفسي وهماً لا معنى له .

وثمة دراستان تظهر أن البحث عن هوية يمثل أزمة كبرى وإشكالية بغير جواب داخل إسرائيل .

والدراسة الأولى منشورة في دورية Israel Affairs (١٩٩٨) التي خصصت عدة أعداد منها لمناقشة أزمة البحث عن الهوية : الجوانب اليهودية في الثقافة الإسرائيلية ، إليعازر سكفير (١٩٩٨) ، والثانية عن ، الصدمة المتوارثة عبر الأجيال ، فرينك Ferenc وآخرون (١٩٩٨) .

وفي الدراسة الأولى : يؤكد إليعازر سكفير Eliezer Schwever (١٩٩٨) أن ثمة تطوراً واكب تأسيس الدولة الإسرائيلية ، وهو أن المؤسسين لم يكن في نيّتهم ، بعد ألفى عام من الخروج ، إقامة الدولة على أسس الثقافة العبرية ، ولذلك سميت الدولة بالاسم القديم لشعب إسرائيل للإشارة إلى ثقافة متميزة وهوية قومية ، وطبقاً لإعلان الاستقلال مايو ١٩٤٨ أقيمت الدولة لتكون : ليس فقط دولة لليهود State of Jews ولكن أيضاً ، دولة يهودية A Jewish State ، بوصفها مركزاً للوحدة الرمزية التي تجسد التراث الروحي للشعب اليهودي ككل ، وارتكازاً على هذا النهج .. فإن قوانين الدولة صيغت لتشكّل سياسة قومية من شأنها تجميع شتات اليهود بمختلف تبايناتهم الثقافية والاجتماعية وصهرهم في بوتقة انصهار melting pot من خلال تعليم قومي ، يهدف تشكيل هوية ثقافية قومية قائمة على الثقافة العبرية المستمدة من فترة اليوشيف Yishuv .

وهنا تكمن مشكلة البحث عن هوية ثقافية لليهود *

ويرى الكاتب أن الثقافة الغربية لجماعة Yishuv تطورت من خلال الروافد الرئيسية للصهيونية Zionism ، الذين يعتبرون الرواد الاجتماعيين للصهيونية ، وقادة النزعة الروحية القومية الرومانكية للصهيونية ، ومتديني الصهيونية ، تحت تأثير النزعات القومية والإنسانية والاشتراكية والأوروبية في النصف الأول من القرن العشرين .

ذلك إن الإعلان السابق لقيام الدولة اليهودية جعلها لا تقتصر على مواطنيها ، بل جعلها دولة للشعب اليهودي داخل وخارج فلسطين ، الأمر الذي استتبعه ظهور

* Yishuv : يعرف معجم Middle East هذا المصطلح بأنه الجماعة اليهودية في فلسطين ابتداء من ١٨٨٢ حتى تأسيس دولة إسرائيل في مايو ١٩٤٨ . ويستخدم هذا اللفظ في مقابل الشتات وينظر إليهم بوصفهم طليعة العالم اليهودي التي أسست دولة إسرائيل في فلسطين (ص ٢٤٨) .

تناقضات ثقافية شتى تفصل بالهوية الثقافية اليهودية ، ويمكن تحديد أهم هذه التناقضات التي يراها الكاتب حول تحديد من هو اليهودي Who is a jew .

١ - بعد إقامة الدولة أصبحت الصهيونية الأيديولوجية الرسمية للدولة وللنظام التعليمي ، بيد أن حرب الأيام الستة * وحرب يوم كييبور ** قد فجرا أزمة روحية تكمن في ضرورة العودة إلى الدين وإلى الجذور الثقافية ، ومن ثم ضرورة :

٢ - قيام الهوية اليهودية على الهالاخاه Halacha *** الشريعة اليهودية ، وهذا يعنى ضرورة أن تقام الدولة على السلطة الدينية ، وأن اليهودي هو يهودي بحسب الشريعة فقط ، أى من ولد لأم يهودية وتلك وجهة نظر اليهود الأرثوذكس .

٣ - ويرفض القوميون والعلمانيون واللامتدينون من اليهود هذا التعريف ويرون أنه ينطوى على نزعة عرقية ، تتجاوز حدود النزعة القومية لليهودي ، كما أن العلمانيين سيرفضون اتخاذ الدين طريقاً للحياة ؛ فلهذا فهم يرفضون ذلك التعريف لليهودي ، ويصرّون على تأكيد الطابع القومى لليهودي ، يكون اليهودي من تهود .

٤ - وقد تكثفت حدة التناقضات في تعريف من هو اليهودي في أواخر الثمانينيات وقبل انهيار حائط برلين مباشرة وبعده ، حيث هاجر عدد كبير من اليهود السوفيت ومن دول أوروبا الشرقى وجاءوا إلى إسرائيل بزداد ثقافى واجتماعى ولغوى مباين للثقافة الإسرائيلية ، وبالإضافة إلى هذا التباين الثقافى .. فهناك مشكلات خاصة بالعرقية اليهودية أو بمن تهود ، ولم تكن أمه يهودية .

٥ - ثم هناك المهاجرون الجدد لإسرائيل من يهود الفلاشا واليهود العرب .

٦ - بالإضافة إلى التناقضات القائمة في المجتمع الإسرائيلى ، والخاصة بتحديد الهوية الثقافية ، أضاف المهاجرون الجدد بعداً كبيراً إلى أزمة

* حرب الأيام الستة ، حرب ١٩٧٦ .

** يوم كييبور : حرب ١٩٧٣ .

*** هالاخاه Halacha وفقاً لمعجم الشرق الأوسط تعني الشريعة أو جملة القوانين ، التي تحكم الطقوس والحياة اليومية لليهود (ص ١٠٥) .

البحث عن هوية بانتماءاتهم إلى جذور ثقافية واجتماعية مرتبطة بالدول التى هاجروا منها ، وليس بالدولة التى هاجروا إليها .

والحل فيما يتصوره الباحث يكمن فى :

١ - التركيز على ميكانيزم الخطر : فهو الميكانيزم الوحيد الموحد لليهود ، على الرغم من كل تبايناتهم ، فإسرائيل محاطة بسياسات من ثقافات مضادة ومتحفزة لها ، ومن ثم ضرورة شحن الناس بالخوف مما يحيط بإسرائيل ، وبالمستقبل بالرجوع إلى آلام الماضى حيث التذكير المستمر بالهولوكست Holocaust (المحرقة أو الإبادة النازية) ، وبالدياسبورا Diaspora (الشتات اليهودى الذى وقع فى العصر البابلى) ، وأن ذلك يمكن أن يحدث لإسرائيل الآن وفى عواصم شتى من العالم كباريس ولندن ونيويورك .

٢ - التركيز على الاحتفالات الرسمية كيوم الاستقلال وتحرير القدس وإحياء ذكرى الدياسبورا والهولوكوست .

٣ - الحفاظ على اللغة العبرية بوصفها بوتقة الانصهار القومى والوجودى للشعب اليهودى ، وأنها اللغة الرسمية للدولة الإسرائيلية .

٤ - تعهد الدولة بالحفاظ على المطالب والاحتياجات الدينية باعتبار الدين هو المقوم الأساسى للهوية العبرية ، وبالحفاظ على المؤسسات الدينية والتوسع فى إنشاء المعابد اليهودية .

ورغم هذا جميعه لم يستطع الكاتب أن يصل إلى تعريف من هو اليهودى .

وتدور دراسة فرينك Ferenc وآخرين (١٩٩٨) حول التساؤل نفسه من هو اليهودى ؟ وماذا يكون ؟ وماذا يعنى أن تكون يهودياً فى بلد كالمجر ؟

المراجع

- ١ - أحمد تيمور (١٩٨٦) : الأمثال العامية (ط : ٤) ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة .
- ٢ - إدوارد يونس (١٩٩٢) : الهوية . أسطورة أم حقيقة . فى : الهوية الثقافية فى الزمان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٣ - أرجون أوزبودون (١٩٩٢) : من الهوية الدينية إلى الهوية العلمانية القومية . فى : الهوية الثقافية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٤ - ألفين توفلر (١٩٧٤) : صدمة المستقبل ، ترجمة : محمد على ناصف ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .
- ٥ - بسام طيبي (١٩٩٢) : الهوية والرؤية العالمية فى عالم متغير . فى : مراد وهبة (١٩٩٢) ، الهوية الثقافية فى الزمان . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٦ - بو غالى (١٩٩٢) : الثقافية والزمانية . فى : مراد وهبة : الهوية الثقافية فى الزمان ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٧ - بول هايست وجورج يونج (١٩٨٤) : الاستبيان الشامل للشخصية - ترجمة : عادل عز الدين الأشول وآخر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٨ - جمال حمدان (١٩٨٤) : شخصية مصر . دراسة فى عبقرية المكان (جزء ٢) ، عالم الكتب .
- ٩ - جوردن ألبرت (١٩٨٨) : مقياس الوعى الدينى . إعداد : عبد الرقيب البحيرى وعادل الدمرداش . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .
- ١٠ - روكيتش (١٩٧٢) : اختبار الدوجماطيقية ، تعريب : أحمد عبد العزيز سلامة ، دار النهضة العربية ، القاهرة .
- ١١ - سامية عويس (١٩٨٧) : الأمثال الشعبية المصرية ، مكتبة مدبولى ، القاهرة .
- ١٢ - سيد عويس (١٩٨٧) : التسامح الثقافى فى مجتمع حضرى مصرى . فى مراد وهبة : التسامح الثقافى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .

- ١٣ - طه حسين (١٩٩٣) : مستقبل الثقافة في مصر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- ١٤ - عبد السلام عبد الغفار (١٩٨٢) : الابتكار والتفوق العقلي ، دار النهضة العربية ، القاهرة .
- ١٥ - علي بن الحسن بن عساكر (١٣٥١ هـ) : تهذيب التاريخ — ، تحقيق عبد القادر بدران ، روضة الشام ، دمشق .
- ١٦ - فاروق خورشيد (١٩٩٤) : الأدب الشعبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- ١٧ - مارتين برنال (١٩٩٧) : أثينا السوداء (ج : ١) ، تحرير أحمد عثمان ، وترجمة لطفى عبد الوهاب وآخرون ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة .
- ١٨ - محمد إبراهيم عيد (١٩٩٠) : الاغتراب النفسي ، الرسالة الدولية للإعلان ، القاهرة .
- ١٩ - محمد إبراهيم عيد (١٩٩٨) : أزمت الشباب النفسية ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة .
- ٢٠ - مراد وهبه (١٩٧٩) : المعجم الفلسفي . (ط٣) ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة .
- ٢١ - مراد وهبه (١٩٩٧) : فلسفة الإبداع ، دار العالم الثالث ، القاهرة .

المراجع الأجنبية

- 22 - Arlene, C., (1997) : Students reflections on the social. In Political, and ideological role of English in Puertorico; Hispanic-Journal of Behavioural Science, Nov.; Vol. 19(4) : 461 - 478.
- 23 - Balint, A., (1945) : Identification, The Yearbook of Psychoanalysis.
- 24 - Beaudry, Irma (1997) : Embodying a culutral identity, Arts - in - Psychotherapy, Vol. 24(2) : 129-135 .

- 25 - Berkowitz, S., & Barrington, D., (1998). Race and ethnicity: Intergroup relations in a multi-ethnic society in : Howard, Ball (Ed), Berkowitz, S.D. (Ed), *et al* . (1998) Multicultural education in colleges and universities: A transdisciplinary approach. (pp 3 - 33) . Mahwal , NJ, USA : Lawrence Erlbaum Associates, Inc., publishers.
- 26 - Berger P., Berger, B., Kellner, H., (1974) : The Homeless Mind. Harmondsworth, Penguin Books.
- 27 - Biersted, R. (1963) : The Social Order, New York, McGraw Hill.
- 28 - Cote, J. (1986) : Identity crisis modality : A technique for assessing the structure of the Identity crisis, Journal of Adolescence, Dec.; Vol. 9 (4) : 321 - 335.
- 29 - Delors J. (1993) : Questions concerning European Security, International Institute for Strategic Studies, Brussels (10); Sep., P.2.
- 30 - Dijk, V. (1997) : Discourse as social interaction : Discourse studies : A multidisciplinary introduction, Vol. 2 : (pp. 144 - 180). London, England, U.K. : Sage Publications.
- 31 - Dolores, T., & Alberto G. (1998) : Communication and identity across cultures . International and Intercultural Communications Annual, Vol. 21, P. 240 - 250 .
- 32 - Drever, J. (1968) : A Dictionary of Psychology. Penguin Books.
- 33 - Erikson, E. (1968) : Identity : Youth And Crisis. New York, W.W. Norton .
- 34 - Erikson, E. (1950) : Childhood And Society, New York, Norton.
- 35 - Ference, E., Vajda, J., & Kovacs, E. (1998) : Intergenerational responses to social and political changes : Transformation of Jewish Identity in Hungary. In Yael, D., (Ed) *et al*. (1998) . International Handbook Of Multigenerational Legacies of Trauma. The Plenum

Series on Stress and Coping (PP. 315 - 324), New York, U.S.A.
: Plenum Press.

- 36 - Fregeau, D., & Barker M. (1986) : A measurement of the process of adolescence: Standardization and interpretation, *Adolescence*, Win.; Vol. 2(84): 913 - 919.
- 37 - Fromm, E. (1969) : *The Sane Society*. New York, Fawcett Premier.
- 38 - Fromm, E. (1971) : *Escape From Freedom*, New York, Avon Books.
- 39 - Fukuyama, F. (1992) : *The End of The History And The Last Man*. New York. U.S.A.
- 40 - Havel, V. (1994) : The new measure of man. *New York, Times*, 8 July, P. 27 .
- 41 - Hiro, D. (1996) : *Dictionary of The Middle East*, Macmillan, U.S.A.
- 42 - Huntington, S. (1996) : *The Clash of Civilizations And The Remaking of World Order*. Simon & Schuster Rokefeller Centre, New York, U.S.A.
- 43 - Jerry, P. (1997) : The Fate of the Earth : "each and all" or nothing, *Literature - and - Psychology*. Vol. 43 (3) : 1 - 23 .
- 44 - Melgosa, J. (1987) : Development and validation of the occupational identity scale, *Journal of Adolescence*, Dec.; Vol. 10 (4) : 385 - 397 .
- 45 - Larkin, L. (1987) : Identity and fear of success, *Journal of Counseling Psychology*, Jun; Vol. 34 (1) : 38 - 45 .
- 46 - Marcia, J. (1987) : The identity status approach to the study of ego identity development, in : Honess T. *et al.*, *Self and Identity. Perspectives across the Lifespan*. (PP. 161 - 171) . Boston M.A., U.S.A. : Routledge.

- 47 - Oyserman, D. & Sakamoto, I. (1997) : Being Asian American : Identity. Cultural constructs, and stereotype perception, Journal of Applied. Behavioral Science, Dec.; Vol. 33(4) : 435 - 453 .
- 48 - Penney, L. (1997) : Multiculturalism and globalism in the arts in Psychotherapy, Arts - in - Psychotherapy, Vol. 24(2) : 123 - 127 .
- 49 - Phinney, J. (1998) : Psychological variables as predictors of perceived ethnic discrimination among minority and immigrant adolescents. Journal of Applied Social Psychology. Jun.; Vol. 28 (11) : 937 - 953 .
- 50 - Preston, P. (1997) : Political, cultural identity : Citizens and nations in a global era, London, England, U.K.: Sage Publication.
- 51 - Rokeach, M. (1960) : The Open and Closed Mind, New York : Basic Books.
- 52 - Rotheman, B. (1998) : Development, ethnic, and gender differences in ethnic identity among adolescents, Journal of Adolescent - Research, OCT: Vol. 13 (4) : 487 - 507 .
- 53 - Schweid, E. (1998) : Judaism in Israell culture in : Urian D.; and Karsh E. : Israel Affairs, Vol. 4 (3 & 4) , Spring, (pp. 9 - 28) . A Frank Cass Journal, Israel.
- 54 - Stein, M., Vidich, (1962) : Identity And Anxiety, The Free Press of Glencoe, U.S.A.
- 55 - Taylor, J. (1871) : Primitive culture. London, Jhon Murriecay London.
- 56 - Toynbee, A. (1965) : Between Niger and Nile. New York oxford University, Press.
- 57 - Weaver, H. (1998) : Indigcnous people in a multicultural society : Unique Issues for Human Services, Social - Work. Vol. 43 (3) : 203 - 211 .

التسامح الثقافي

مقدمة :

مع بداية قرن جديد ، يتواصل زمنياً مع قرن مضى ، اختلطت فيه المسميات ، واحترار المفكرون والسياسيون ، فى وضع تسمية تميزه ، أسوة بقرون وعصور مضت ، فهل هو عصر العلم والتكنولوجيا ، أم عصر القوميات والعنقيات والحروب الثقافية ، هل هو عصر الاغتراب والقلق ؟ أم عصر الإرهاب والأفكار المطلقة ، والمذاهب الجامدة ، هل هو عصر الأيديولوجيات الكبرى ؟ أم عصر انهيار الأيديولوجيات الكبرى ونفيها ويزوغ الهويات الثقافية والعرقية وتأكيداها ، هل هو عصر الزحام والجماهير ، أم أنه عصر تشكل من كل ذلك .

ويمكن رصد بعض مظاهر اختلافه عن غيره من العصور فى النقاط التالية :

(١) حريان عالميتان كبيرتان : فجرهما الإنسان فى أقل من ثلاثين عاماً وبسببهما تمزقت معنويات الإنسان ، وجعلتاه يشعر بعجز القيم السائدة عن إنقاذه من ويلات الحرب ودمارها الرهيب .

(٢) تفجر معرفى استلزمته ضرورات الحرب وضرورات السلام ، امتد ليستوى كافة مناشط الإنسان ، وتمثل فى ثورة المعلومات وثورة الاتصالات والمواصلات ، وفى الطاقة الجبارة بكل إيجابياتها ومخاطرها ، وفى تكنولوجيا المعلومات ، وفى اقتصادياتها ، وفى القدرة على إنتاجها وتخزينها ، فلم تعد الصناعة مجرد تطويع للمادة بكفاءة ، بل أصبحت مرتبطة أشد الارتباط بالقدرة على معالجة المعلومات وتصنيفها وحسن استخدامها .. إضافة إلى ذلك التقدم فى علوم الفضاء ، وفى الهندسة الوراثية ، والإنترنت ، وغير ذلك من وثبات علمية كيفية تجعل من الصعب التنبؤ بما هو قادم .

(٣) مذاهب فلسفية وفكرية اتسمت بالكلية والشمول ، كفلسفة الحضارة والفلسفة المادية ، وفلسفة التطور ، وقد أسهمت جميعاً بشكل أو بآخر فى تحول الإنسان إلى كائن لا وزن له ، إلى إنسان لا حول ولا قوة له ، ومهدت

الطريق لظهور : أيديولوجيات عقائدية ومذهبية ، اتسمت بالتسلط وجمود الفكر والتعصب والتمييز العرقي ، والعنصرى ، والحض على العدوان ، وتمجيد القوة ، ومعاداة الأفكار المناهضة لهذه الأيديولوجيات ، وتمثلت هذه الأيديولوجيات المذهبية فى الفاشية والنازية فى الثلاثينيات والأربعينيات ، وفى الخمسينيات كانت « الحرب الباردة » ، وبلغ فيها الصراع بين الأيديولوجيتين : الماركسية والرأسمالية ، حد الانفجار ، ثم ظهرت بعد ذلك أشكال متعددة من التعصب وجمود العقل والتفكير القطعى ، وكلها أشكال ومظاهر للدوجماطيقية فى أنحاء شتى من العالم .

(٤) احتجاجات على وضع الإنسان وموقفه ، تمثلت فى كتابات المفكرين وعلماء النفس والاجتماع ، وتمثلت فى البحث عن الجوانب الإيجابية فى الإنسان حيث الفاعلية والاستمرارية وتأصيل القيم ، واستثارة كوامن المعنى ، وتأکید حرية الإنسان وتساميه وسعيه نحو تأكيد ذاته وتحقيقها من خلال التسامح رغم التباين ، ونفى الأيديولوجيات والعمل من أجل مستقبل يشترك فى صنعه الناس جميعاً .

(٥) أيديولوجيات جديدة ، ومراكز قوة ظهرت بعد الحرب العالمية الكبرى ، صاحبها حروب هنا وهناك وبؤر للصراع والتوتر فى أنحاء شتى من العالم ، فى فيتنام ، وكوريا الشمالية وإيران والعراق ، والعراق والكويت والعالم .

(٦) ومع نهاية الثمانينيات من هذا القرن ، بدأ أن هذا العالم يعيد ، ومن جديد تشكيل أوضاعه ، وأن هناك حركة تسويات كبرى لأوضاع اجتماعية وسياسية راسخة . وفى عام ١٩٨٩ سقط حائط برلين ، وكان سقوطه بداية منبئة بانتهاء الأنظمة الشمولية فى الاتحاد السوفيتى وفى شرق ووسط أوروبا ، ومع الانهيار الأيديولوجى ، تفجرت الحروب العرقية والثقافية فى البلقان ، ورواندا ، والشيشان وغيرهم من الدول .

(٧) ظهور بؤر إرهابية فى العالم معبئة بأفكار قطعية ودوجمات ثقافية لا تتيح فرصاً للالتقاء أو الحوار فى أنحاء شتى من العالم ، تمثل بعضها فى مجزرة الحرم الإبراهيمى فى فبراير ١٩٩٤ ، ومجزرة دبلن بسكوتلاندا فى ١٣/٣/١٩٩٦ ، وفى انفجار المركز التجارى فى أوكلاهوما بالولايات المتحدة (١٩٩٥) ، وحرب الكنائس فى أيرلندا ، ومجزرة الأقصر فى ١٩٩٨ ، وتفجير سفارتى أمريكا فى تنزانيا وكينيا فى العام نفسه ، والهجمة الشرسة والتعصبية الآن على المسجد الأقصى .

وهذه الأعمال الإرهابية التي ضمها العقد الأخير من القرن العشرين ، دليل على أن الإرهاب واحد ، وإن تباعدت المسافات وتباينة المواقع الجغرافية .
وقد يقف وراء ما يحدث من أعمال إرهابية أفكار توصف بالجمود والعرقية والتعصب والعدوان .

يقول بوير (١٩٩٩) : إن الأفكار (يقصد الأفكار الدوجماتيقية) قد تسببت منذ آلاف السنين في القتل الجماعي باسم فكرة أو عقيدة ، أو نظرية أو دين ، (ص ٢٢٠) .

وهذه التغيرات التي يموج بها عالمنا ، نجد تعبيراً لها لدى الشباب ، فالشباب بحكم مرحلته العمرية يمثل ، التوجه للمستقبل ، ومن ثم يكون أولى من غيره بالإحساس بهذه التغيرات ومعايشتها والاشتراك الفعال في تنفيذها ، ولعل ما يموج به المجتمع في مصر من تحديات نفسية ، واجتماعية ، وسياسية ، وفكرية ما يجعل من هذه الدراسة ضرورة لا مناص منها لفهم بعض مظاهر التسامح في علاقته بالدوجماتيقية عند الشباب .

ولهذا تهدف هذه الدراسة الكشف عن العلاقة المحتملة الوجود بين الدوجماتيقية التسامح لدى الشباب الجامعي ، ويتساءل البحث عما عساها أن تكون هذه العلاقة ؟ سلبية هي ؟ أم إيجابية ؟

وهل التسامح يمثل طرف النقيض ، وضد ، لا التقاء فيه مع الدوجماتيقية ، أم أن نقيض التسامح وهو التعصب . هو الذي يمثل الارتباط الموجب بينه وبين الدوجماتيقية ؟

وهذا ما سيحاول البحث الحالي الإجابة عليه من خلال :

تحليل البنية العاملية لكل من المتغيرين (التسامح والدوجماتيقية) ، والكشف عما قد يكون بينهما من ارتباط ، وعلى أي نحو يكون .

تحديد المصطلحات :

أولاً : التسامح Tolerance

لم يحظ مفهوم التسامح باهتمام الباحثين من علماء النفس ، بالقدر نفسه الذي حظى به ، نقيض التسامح ، وهو التعصب Prejudice ، كما لو كان التسامح استثناءً بشرياً ، والقاعدة هي التعصب ، على النحو الذي تترجمه الكثرة من الكتابات عن

التعصب عند رواد علم النفس أمثال أدورنو ، Adorno ، ١٩٥٠ ، والبورت ١٩٥٨ ؛
واندرسكى Andriski ، ١٩٥٤ ، وميرفى Murphy ، ١٩٥٤ .. وغيرهم .

فى عام ١٩٤٣ ، فى أثناء الحرب العالمية الثانية بدأ أدورنو وزملاؤه يخططون
لدراسة الشخصية التسلطية ، كجزء من اهتمامهم بدراسة ظاهرة التعصب العنصرى
الذى تمثل فى أيديولوجية الفاشية التى تقوم على تمجيد القوة ، والحض على العدوان ،
ومحق الضعفاء ، ومعاداة السامية ، ورفض كافة المعتقدات التى تختلف عن توجهات
وأيديولوجية الفاشية .

وقد وجد أدورنو أن ثمة أشخاصاً لديهم أحكاماً مسبقة ، مصحوبة بسلطوية
عميقة تجاه للآخرين ، تتصف بمجموعة من السمات التى يتميز بعضها بالامثال
المطلق لقيم وأحكام الجماعة (التعصب الفكرى) والخضوع لأحكامها ومعاييرها ،
والحض على العدوان (الذى يظهر فى ميل الفرد إلى التحفز والعدوان ضد كل من
تسول له الخروج على قيم واتجاهات الجماعة ، والتعامل مع الواقع وفق نماذج سلطوية
متقابلة (الخضوع فى مقابل الهيمنة) ، والميل إلى التدمير والاستخفاف بالآخرين)
(ص ٢٢٨) .

ولعل هذا ما أكدته البورت (١٩٦٨) عندما أكد أن التعصب هو حكم مسبق
Praejudicium يقوم على معتقدات خاطئة ، تتصل بأشخاص بعينهم أو موضوعات
بعينها ، تنتج عما يسميه البورت القصور المعرفى ، والذى يتمثل فى احتقار وكراهية
موضوع التعصب ، وتقوم هذه الكراهية على أساس خاطئ ومتصلب إزاء شخص
بعينه أو شخوص بعينها أو جماعات بعينها ، (ص ٨ - ١٢) .

ويشير ناشرا موسوعة علم النفس (١٩٧٢) إلى أن مفهوم التسامح يشير إلى
الاتجاهات والاجتماعية والسلوكية ، التى تقوم على احترام حرية الرأى واستقلاله ،
حتى وإن كان مبايناً لرأى الأغلبية .

وأن التسامح على الضد من التعصب أو الاتجاهات اللامتسامحة (ص ٣٣٠) .

وقد صك برونزفك مصطلح التسامح إزاء الغموض Tolerance of
ambiguity واعتبره نمطاً معرفياً ، يحدد أحكام الفرد تجاه المواقف المتباينة ، على
نحو يجعله متوازناً أمام المواقف الغامضة (المرجع نفسه) .

ولهذا يسترشد بآراء الكثير من الباحثين الذين يؤكدون أن ثمة علاقة موجبة
بين اللاتسامح إزاء الغموض وخصائص الشخصية المتسلطة .

وهذه الآراء كانت تمثل حقبة زمنية أطلق عليها اسم « التسمم العرفي » ، فقد كانت معبئة بأفكار وأيديولوجيات تدعوا إلى العدوان ، والاستعلاء على الآخرين ، وتمجيد القوة والتمييز العرفي واستلاب الآخر وسحقه .

وفي السبعينيات حاول روبرت ماس ، Mass (١٩٧٧) أن يحدد حدود التسامح موضحاً القصد منه في أنه يعنى « حرية الإنسان في التعبير عن معتقداته ، مادامت لاتدعو إلى العنف ولا تتعارض مع القانون » ثم أكد رسوخ التسامح في الأنظمة الديمقراطية (ص ١٨٧) .

وهذا وهم يؤكد كتاب « نقد التسامح الخالص » ، حيث يبين مراد وهبه (١٩٩٧) أن الغاية من نقد التسامح الكشف عن الوهم الكامن في الأنظمة السياسية ، التي تزعم أنها تتسم بالتسامح وهي ليست كذلك ، والكتاب يحتوى على ثلاث مقالات حررها ثلاثة فلاسفة . الأول هو روبرت فولف ، الذي يرى أن النظرية الليبرالية التي أسسها جون استيورت مل ليست صالحة لهذا الزمان ، ذلك أن مل يرى أن الفرد سلطان ذاته ، طالما لم يحدث ضرراً للآخر .. أما الآن فالديمقراطية التعددية ، مؤسسة على تعارض المصالح بين الجماعات الاجتماعية ، وعلى تفوق جماعة على أخرى ، ومن ثم تنتفى العدالة الاجتماعية وينتفى التسامح ، والنتيجة ضرورة مجاوزة الديمقراطية التعددية مع ما تزعمه من تسامح .

والمقالة الثالثة تدور حول أيديولوجية التسامح ، التي هي في الحقيقة أيديولوجيا تحافظ على الوضع القائم المستند إلى الظلم والتفرقة .

وخلاصة القول أن التسامح ينطوى على نقيضه وهو عدم التسامح ، وأن تناول قضية التسامح يستلزم تناول قضية التعصب ، (ص ٣) .

ولعل أول رسالة في التسامح ، تلك التي كتبها جون لوك ، ١٦٨٩ ، وكان يقصد بالتسامح « إنه ليس من حق أحد أن يقتحم باسم الدين الحقوق المدنية والأمور الدنيوية » .

وقد سئل فولتير يوماً عن معنى التسامح ، فأجاب كما يقول بوير - إن التسامح هو النتيجة الحتمية لإدراكنا أننا لسنا معصومين من الخطأ .

وفي تعريفه للتسامح بين سيد عويس (١٩٨٤) أن التسامح ظاهرة اجتماعية ثقافية ، وأنه ميل أو موقف اجتماعي يعترف بحق الآخر في تباين السلوك والرأى ، وفي عبارة بسيطة يمكن القول بأن مفهوم التسامح يعنى « أن تحيا أنت والآخرين ، (ص ٢١) .

ويمكن القول بأن جوهر التسامح يكمن في حرية الفكر وحرية الاعتقاد ، ومن أجل هذه الحرية الفكرية ، وتلك الحرية العقائدية ، اندلعت الحروب ، وأريق الدماء ، وحوكم البعض من المفكرين ، أو عدم البعض منهم ، فقد أعدم سقراط ، وحوكم جاليليو ، وأحرق برونو فوق كتبه ، وأحرقت كتب ابن رشد ، وحوكم الشيخ على عبدالرازق وفصل من الجامعة ، وغيرهم كثيرون .

ويعنى التسامح الفكرى أن تعدد الآراء أمر مشروع ، وأن التباين فى الفكر يضيف على الأفكار والأشياء معنى وثراءً ، وأن حق التباين جوهرى فى حياة الناس ، ففى التباين إقرار بثفرد الإنسان واختلافه ، وحرية الاعتقاد تعنى أن لا إكراه فى الدين ، (البقرة ، ٢٥٦) ، وأن الإيمان ثمرة للإرادة الإنسانية الحرة * بغير قهر أو إرغام أو تسلط ، وفى تعاليم المسيح المثالية ، تزخر آيات الأناجيل بالدعوة إلى العدالة والمحبة والتواضع وإنكار الذات وقبول الآخر ، والقدرة على هزيمة الخطيئة وكلها عناصر للتسامح .

والتعريف الذى نأخذ به هذه الدراسة ، ينص على أن :

« التسامح مكون نفسى ومعرفى ، نستدل عليه من خلال إيمان الفرد بأن تعدد الآراء أمر مشروع ، وأن حق التباين الفكرى والعقائدى جوهرى فى حياة الناس ، وأن الحرية الشخصية مكفولة مادامت لا تتعارض وقيم ومبادئ المجتمع والقانون ، .

ثانياً : الدوجماتيقية Dogmatism

يقول هونديريك Honderich (١٩٩٥) صاحب معجم اكسفورد الفلسفى أن مصطلح دوجما Dogma استخدم للتعبير عن علم العقيدة Religious doctrine ، الذى ينبغى أن تقبل كحقيقة مطلقة ، بغض النظر عن مدى مطابقتها للعقل أو البرهان ، ومن ثم استخدمت كمصطلح كتابى ، توراتى يؤيد السلطة الإكلييرالية أى الكنسية .

* يقول تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين » (هود : ١١٨)

* يقول تعالى « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (يوسف : ١٠٣)

* يقول تعالى « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » (يونس: ٩٩) .

* يقول تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » (القصص : ٥٦) .

فالحق بين والباطل بين ، والدعوة تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة ، يقول تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (النحل : ١٢٥)

ولفظ الدوجماطيقية ، وهو من الدوجما ، يعنى فى أصله اليونانى اسماً مشتقاً من الفعل Dokeo ومعناه يفكر ، أى أن الدوجما معناها الفكر أو الظن وجمع ظن «ظنون» ومعناها «الأفكار الأساسية» ، التى تكون بناء الفكر وهى مشتقة من سلطة خارجية وليست من برهان أو قناعة . ثم تطور المصطلح فأصبح مرادفاً للفظ «أمر» ، ثم تطور معنى الدوجما إلى أن أصبح مضاداً للهرطقة (مراد وهبه، ص ٢١٤ - ٢١٥).

وقد وجد علماء النفس فى الدوجماطيقية تصوراً يعبر عن الآراء والأفكار والتوجهات ، التى تتصف بالجمود العقلى والتى لا تقبل أى نوع من الحوار أو المناقشة .

ولهذا حظى المفهوم باهتمام الباحثين من علماء النفس والاجتماع والتربية فى الخمسينيات والستينيات من هذا القرن ؛ أى فى الحقبة التى أطلق عليها اصطلاح «الحرب الباردة» ، بين القوتين العظميين ، واثـر الحرب العالمية الثانية ، وهى حقبة معبأة بالقلق والخوف من عودة العالم إلى ما كان عليه فى الثلاثينيات والأربعينيات من هيمنة مطلقة للأيديولوجيات ومعاداة السامية ، وتعصب عنصري ، وتمجيد للقوة ، ومناهضة للأفكار والأيديولوجيات الأخرى ، ومن ثم راح العلماء والباحثون - يبحثون فى جذور التعصب والتسلط فى الفكر والسلوك والمواقف .

ويرجع الفضل إلى روكيتش Rokeach ، (١٩٥٤ - ١٩٦٠) فى تأصيل مصطلح الدوجماطيقية بوصفه منظومة معرفية مغلقة .

وقد بلور روكيتش مفهومه عن الدوجماطيقية من خلال بحوثه المتعددة عن الجمود العقلى ، وضيق الأفق ، وطبيعة التفكير القطعى ، ومعنى وطبيعة الدوجماطيقية فى الفكر والسلوك والمواقف ، ولهذا أصبحت الدوجماطيقية مفهوماً فسيحاً يشير إلى «التسلطية العامة» ، (شيلز Shills ، ١٩٥٤ ، روكيتش ، ١٩٦٠) وتمتد لتستوعب كافة مناشط الإنسان فى السياسية والدين ، والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والثقافة والأسرة حيث علاقات الآباء بالأبناء ، ولا تقتصر على جانب واحد هو تسلطية اليمين بمضمونها الأيديولوجى الفاشى كما عبر عن ذلك أدورنو ، وزملاؤه (١٩٥٠) .

وتصور روكيتش (١٩٥٤ - ١٩٦٠) عن الدوجماطيقية يقوم على تصويره عن طبيعة الإنسان ، فلكل إنسان «بناء معرفى» ، ويقوم هذا البناء المعرفى على فكرة المعتقد ، فلكل منا معتقداته الخاصة عن الله وعن النفس وعن الوجود وعن السلطة وعن العلاقة الاجتماعية والثقافية والسياسية ، وتنظم هذه المعتقدات فى نسق كلى

من المعتقدات ، يكون خصوصية البناء المعرفي للفرد ، ويترتب على هذا البناء المعرفي أساليب تفكير وسلوك واتجاهات شتى ، قد توصف بأنها مغلقة وجامدة ومتعصبة ، وقد توصف بأنها اتجاهات وسلوكيات وتفكير متفتح ومرن وقادر على التعايش والتواصل مع أفكار الآخرين وما يعتقدون .

وعلى هذا فإن الشخص الدوجماطيقي - كما يقول روكيتش (١٩٦٠) - شخص مغلق ، جامد يتسم بتفكير قطعي ، تتحول بمقتضاه أكثر الأفكار تفتحاً إلى منظومة مغلقة من الأفكار التي لا تقبل الجدل أو النقاش ، (ص ٥١) ، وأن الدوجماطيقية تكمن في طريقة تناول الفرد للأفكار وللآخرين وللسلطة ، وليس في مضمون الفكرة أو الأيديولوجية ؛ حيث يتوافر البناء المعرفي للناس جميعاً ، ولكن بدرجات تمتد عبر متصل في أحد طرفيه يكون الانفتاح العقلي حيث تعايش الفرد مع ما يؤمن به الآخرون ، وتقبله للمعايير المناهضة لتفكيره ، وقدرته على إيجاد قنوات اتصال والتقاء بين ما يعتقد وما يعتقد الآخرون .

وفي الطرف الآخر يكون الانغلاق الفكري حيث التعصب والجمود العقلي وثنائية التفكير القطعي ، ولهذا فإن الدوجماطيقي - كما يشير روكيتش (١٩٦٠) - يتسم بالاستجابة المتطرفة فهو إما أن يقبل الشيء قبولاً مطلقاً أو يرفضه رفضاً مطلقاً بغض النظر عن محتوى الشيء أو معقوليته .

ويفترض روكيتش ، (١٩٦٠) أن الدوجماطيقية نسق معرفي مغلق من المعتقدات ، التي تأخذ اتجاهات متأصلة لدى الفرد ، وتتميز بالعناصر الثلاثة الآتية :

١ - إن كل فرد له معتقداته الخاصة عن الله والوجود ومناشط الحياة المختلفة ، وعلى الرغم من خصوصية معتقدات كل فرد ، والتي قد تختلف عما يعتقد الآخرون ، فإنه توجد بعض جوانب الالتقاء التي من خلالها يمكن تعايش الفرد مع أفكار ومعتقدات الآخرين وأن الشخص الذي يرفض التعايش مع معتقدات الآخرين ، شخص مغلق فكرياً وعقائدياً ويدرك معتقداته بوصفها مطلقة ومعزولة عن غيرها من المعتقدات .

٢ - أن الدوجماطيقي شخص تسلطى يؤمن بالقوة؛ ويرى أنها العنصر الحاسم في تغيير الواقع ، وأن التطور رهين بوجود شخصيات فذة في مجالات الحياة المختلفة .

٣ - يتسم الدوجماتيقي بالرفض والعداء والنفور من الآخرين الذين يؤمنون بعكس ما يؤمن ويعتقد ويصفهم ، بأنهم من الحمقى بسطاء العقول ، (روكيتش ، ١٩٦٠ ، ص ٨١ ، ٧٧) .

وتكاد تتفق سمات الدوجماتيقي - كما حددها روكيتش (١٩٦٠) مع ما يقول به نوتا Nauta (١٩٨٤) عن سمات الفاشي ، كما تحددها مدرسة فرنكفورت للبحوث الاجتماعية ، يقول نوتا : « يتسم الفاشي بسمات أربع : على المستوى الأيديولوجي يفرق الفاشي تفرقة حاسمة بين الخير والشر ، وعلى المستوى النفسي ينحاز الفاشي إلى القوة والعنف ، ويحصر المرأة في الأعمال المنزلية وتربية الأطفال وعلى المستوى الاجتماعي يدعو الفاشي إلى الأخذ بالقيم المتعارف عليها ، وإلى عدم التمرد عليها ، وعلى المستوى السياسي يدعو الفاشي إلى طاعة الدولة وجميع أشكال السلطة .

وهذه السمات الأربع ملازمة للفاشي ، وهي في جملتها تدفع الفاشي إلى الجمود العقلي وعدم المرونة ، ولا يقف هذا الجمود عند حد المستوى العقلي .. بل يتعداه إلى الحركات الجسمية ، فالفاشي يعشق الأسلوب العسكري ، (ص ٣٥) .

ويخلص نوتا (١٩٨٤) إلى أن البروفيل الفاشي بسماته الأربع تعبير عن العنف ؛ لأنه ضحية للعنف ، ولهذا يريد أن يجعل من الآخر ضحية له ، ووسيلته إلى ذلك العنف .

كذلك يقرر اتريا Atreya (١٩٨٤) ، أن الدوجماتيقية تعنى ثنائية التفكير القطعي ، وأن الدوجماتيقي يرى الأمور على أنها إما بيضاء ، وإما سوداء ولا ظلال بينهما ، (ص ٧٥) .

وقد أوضح ماسلو Masolo (١٩٨٤) ، إن الدوجماتيقية هي أقوال مطلقة من غير سند أو برهان فهي سلطوية ؛ لأنها مرتبطة بالسلطة ، ومرتبطة كذلك بالذات الإنسانية وانحيازتها ، ومن هذه الزاوية فإن الأيديولوجية دوجماتيقية ، وحيث تكون الدوجماتيقية يكون جمود العقل وانغلاقه ، (ص ٢٥٤) .

وفي السبعينيات من القرن العشرين ، أكد ويلسون (١٩٧٢) أن الدوجماتيقية تكمن وراء الاتجاهات المحافظة Conservitism والتي يعرفها بأنها ، مقاومة التغير ، والاستكانة إلى الأمن بتفضيل ما هو موروث وتقليدي في المواقف والسلوك ، (ص ٣) .

وقد صمم مقياساً أبعاده تتمثل في :

١ - الأصولية الدينية Religious Fundamentalism

٢ - التوجه السياسى اليمينى النزعة Right - Wing Political Orientation

٣ - الإصرار على العقوبات والقواعد الصارمة

Insistance on Strict Rules and Punishment

٤ - اللاتسامح (التعصب) إزاء الأقليات

Intolerance of Minority Groups

٥ - تفضيل ما هو تقليدى فى الفن والملبس والمواقف

Preference for conventional art, clothing and institutions

Anthedonistic out look

٦ - النظرة التشاؤمية للمستقبل

٧ - مقاومة ذو النزعة الخرافية للعلم

Superstitious resistance for science

وأضيف إلى هذا المقياس بعداً جديداً هو

Militarsim

٨ - النزعة العسكرية

ووضع ويلسون تصوراً لما يمكن أن تكون عليه خصائص شخصية المحافظ اليمينى النزعة بأنه تقليدى (١) ، وتواؤمى (٢) ، مناهض للسعادة (٣) ، تسلطى (٤) ، عقوبى (٥) ، يميل إلى الأخذ بالقصاص (غير متسامح) ، عرقى النزعة (٦) ، عسكرى التوجه ، ودوجماتيقي (٧) ، خرافى (٨) يميل إلى الأسطورة والخرافة ، مناهض لما هو علمى (٩) .

وما كتبه ويلسون كان تعبيراً عن حقبة زمنية معينة بتطرف يمينى ديكالى هيمن على مقاليد الأمور فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأشعل حرب الكواكب تحت مسمى نظام دفاعى جديد وبمقتضاه تم تسليح الفضاء الخارجى .

وفى التسعينيات بدا واضحاً أن أشكال الإرهاب التى يموج بها العالم تنطوى على دوجمات ثقافية ؛ أى على أفكار مطلقة تبلغ حد التقديس فى بعض الأحيان .

- (1) Conventional
- (2) Conforming
- (3) Antihedonistic
- (4) Authoritarian
- (5) Punitive
- (6) Miliaristic
- (7) Dogmatic
- (8) Superstitious
- (9) Antiscientific

ولهذا فإن الصلة وثيقة بين الدوجما والإرهاب .

يقول ريبنشتين Rubenstien (١٩٧٢) إن الإرهاب انعكاس لانحيازات أيديولوجية أو سياسية ، (ص ٤٦) ؛ أى لمنظومات من الأفكار الأيديولوجية والسياسية ، فلا إرهاب بغير فكر مغلق وجامد يكمن خلفه ، متخذاً من الترويع والتخويف وسيلة لتحقيق أهدافه ، ولعل في الرجوع إلى جذور لفظ إرهاب ما يوضح هذه المعانى .

لفظ إرهاب Terrorism مشتق من الكلمة اللاتينية Terrere بمعنى يروع أو يرهب Frighten ، والكلمة ومشتقاتها استخدمت على أنحاء شتى ، بداية من استخدامها كاسم مستعار لوصف شخص فاسد وشرير وحشى الطباع كإيفان الرهيب ، وانتهاء بوصف ما يحدث فى العالم من عنف هنا وهناك ، ويعرف باسم الإرهاب الدولى ، ومروراً بوصف عهود العنف والاضطراب السياسى كعهد الإرهاب أثناء الثورة الفرنسية ، والعنف هو وسيلة الإرهاب ووسيلته لإحداث الترويع وإرهاب الآمنين ، (بولز A ، Ploz ، وآخرون ، ١٩٩٠ ، ص ٣) .

وتكاد معظم تعريفات الإرهاب تجمع على أنه شكل من أشكال العنف ، تعرفه الموسوعة السياسية بأنه ، استخدام العنف - على نحو غير قانونى - أو التهديد به بأشكاله المختلفة كالاغتيال والتشويه والتعذيب والتخريب والنسف بغية تحقيق أهداف سياسية معينة ، مثل كسر روح المقاومة والالتزام عند الأفراد ، وهدم المعنويات عند الهيئات والمؤسسات ، أو كوسيلة من وسائل الحصول على معلومات أو مال ، وبشكل عام استخدام الإكراه لإخضاع طرف مناوئ لمشئته الجهة الإرهابية، (ص ١٣٥) .

ويعرف ناشرو الموسوعة العالمية الإرهابى بأنه ذلك الشخص الذى يمارس العنف ، ولا يعمل بمفرده ، ولكنه ينخرط فى إطار جماعة أو نظام معين ، وفقاً لاستراتيجية محددة ، (ص ٧١٩) ، وعلى الرغم من تعدد تعريفات الإرهاب على أنها تدور على أن الإرهاب شكل من أشكال العنف ، يتسم بالخسة والغدر * ويتخذ من

* وعلى الرغم من إدانة الإرهاب كعمل يتسم بالغدر والترويع والتخويف والإرهاب ، إلا أننا ينبغي أن نفرق بين الإرهاب والمقاومة المشروعة ولا سيما تلك التى تحدث على الأراضى الفلسطينية ؛ لأنها تتفق ويقتن الكتب المقدسة وشرعية قواعد ومبادئ القانون الدولى .

فلم تكن المقاومة الفرنسية السرية التى نشأت إبان هزيمة فرنسا ودخول قوات النازى باريس عملاً إرهابياً وإنما كانت عملاً قومياً يستهدف خلاص الأرض والوطن . وهكذا .

وفى دراسته عن تعريف الإرهاب Definitions of terrorism ، يفرق جاستون بوزول Bou-thoul (١٩٧٢) بين الإرهاب والمقاومة ، مؤكداً أن مقاومة المستعمر مشروعة وأن حركات المقاومة الأوروبية أثناء الاحتلال النازى كانت مشروعة تماماً ، واستطاعت أن توجه ضربات موجعة إلى المحتل النازى « (ص ٥٥) .

الترويع والتخويف وسائل لتحقيق أهدافه ، أو أهداف الجماعة التي ينتمى إليها الإرهابى .

والإرهاب بطبيعته مناهض للعقل ، تكمن خلفه أفكار هي التي تعبئ الجماعة بقبول العنف كوسيلة لبلوغ الأهداف .

يقول بوير (١٩٦٩) إن العنف ضد العقل ، وأن العقلانية هي البديل للعنف ، (ص ٥٨) وعلى هذا فإن الدوجما من حيث هي أفكار مطلقة وجمود عقل ، وتفكير قطعى يحض على العدوان ، تكمن وراء الإرهاب فى كثير من الأحيان .

ويتضح مما سبق أن الدوجما طبقية ظاهرة إنسانية وأنها تعبير عن أزمة عصر ، وأن البحث فى مظاهرها يعنى البحث فى جذور التعصب ، والانغلاق ، وجمود العقل وثنائية التفكير القطعى ، والعدوان والتسلط وتأليه السلطة الواحدة ، الجماعة الواحدة ، والرأى الواحد ، والغاية الواحدة وأنها ظاهرة عالمية ، ليس لها وطن معين ، فلم تكن ألمانيا وإيطاليا وطنها الوحيد ، بل هي ممتدة إلى المكارثية وجماعات كلوكلاكس فى الولايات المتحدة ، وأيضاً فى السلفادور ، وشيلي ولبنان وإيران وجنوب أفريقيا وإسرائيل ، وهي تعبير عن التسلطية العامة ، (روكيتش ، ١٩٦٠ ، شيلز ، ١٩٥٤) ومن ثم يمكن دراستها بمعزل عن الأيديولوجية السياسية ، فى حياة الإنسان العادى ، وفى أسلوب تفكيره وكيفية تناوله للموضوعات والأفكار ، فالإنسان المغلق على نفسه ، على ما يعتقد والذي يرى فى أسرته عالمه الأوحده ، والذي يحيا نهباً لمشاعر الخوف وفقدان الأمن ، ويرى فى أفكاره قيمة قصوى ، ولا يستطيع أن يتعايش مع أفكار الآخرين ، ولا يجد بين أفكاره ، وأفكار الآخرين تواصلاً والتقاء هو شخص دوجما طبقى ، يدافع عما يعتقد به عدوان وخوف وتسلط .

والتعريف الذى تتبناه الدراسة يستمد مقوماته مما كتبه روكيتش وغيره من المفكرين والباحثين ، وينص على أن الدوجما طبقية : نسق مغلق من المعتقدات الخاصة بالواقع والحياة ، تنتظم حوله مجموعة من الأفكار الخاصة بقوة السلطة المطلقة ، وتتحول بمقتضى هذا النسق أشد الأفكار تفتحاً إلى منظومة مغلقة لا تقبل الحوار ، ويدافع الدوجما طبقى عما يؤمن بعنف وغضب وعدوان .

وينطوى هذا التعريف على مقومات ثلاثة :

- ١ - وجود نسق معرفى من المعتقدات والآراء لدى الدوجما طبقى يتسم بالجمود والانغلاق على ما يعتقد ، والاعتقاد الكامل فى هذه المعتقدات والنظر إلى ما يخالفها على أنه باطل .

٢ - تألية السلطة واعتبارها مطلقة ، وقد تكون هذه السلطة؛ سلطة الدولة أو سلطة الحزب الواحد ، أو الرأى الواحد أو الغاية الواحدة أو المؤسسة الواحدة أو النقابة الواحدة ، أو الجماعة الواحدة أو الأسرة الواحدة أو سلطة الأبوين ، أو أحد الأبوين ، هو الاعتقاد المطلق بالسلطة أياً كان نوعها ، وتمجيدها والدفاع عنها ، واعتبار الأفكار التى تصدر عنها وكأنها تمثل صفوة الفكر وامتيازه ، ولا يجوز تناولها بالنقد أو الجدل أو النقاش .. إنها تمثل حقيقة مطلقة بذاتها .

٣ - النفور من المعارضين والشعور بالخوف الذى يؤدى إلى العدوان والتسلط تجاه من لا يؤمنون بأفكاره ، وما يعتقد .

دراسات سابقة :

لم يحظ مفهوم التسامح Tolerance باهتمام علماء النفس ، بقدر اهتمامهم بدراسة التعصب ، ولعل ذلك راجع إلى أن التسامح يمثل الجانب المضىء من مسيرة الإنسان الحضارية ، فالتسامح بين الأمم والشعوب والأفراد ، كان وما زال مطلباً إنسانياً عسير المثل ، ولهذا انصب الاهتمام العلمى على دراسة ، التعصب ، كمنقيض للتسامح ، وعن جذور هذا التعصب ، وما ينطوى عليه من مظاهر فى الفكر والسلوك والمواقف وما يرتبط به من تسلط ونزعات عرقية وعنصرية ودوجماطيقية .

وكان من نتيجة ذلك ، هذا الكم الكبير من الدراسات التى تناولت التسلطية والدوجماطيقية والنزعات العرقية والتوجهات المحافظة ؛ فالتسلطية تعبر عن تمجيد القوة ، والحض على العدوان والدعوة إلى سحق الضعفاء ورفض كافة المعتقدات والآراء التى تختلف عما تؤمن به ويعتقد (أدورنو وآخرون ، ١٩٥٠ ، فروم ، ١٩٧١ ، ميرفى ، ١٩٤٧ ، فرانيس ، ١٩٩٨ ، شيبازاكى وآخر ، Shibazaki ، ١٩٩٨) .

تتمثل الدوجماطيقية فى جمود الفكر وانغلاقه وثنائية قطعية وتمركز فكرى حول أفكار بعينها دون غيرها من الأفكار ، روكيتش ، شيلز ، (١٩٥٤ ، ١٩٦٠ ، ليفريدو وآخر ، Lofferdo ، ١٩٩٧ ، وغيرهم كثيرون) .

وتتمثل أيضاً فى النزعات العرقية التى تقول بتفوق شعب عن آخر أو فئة اجتماعية عن أخرى مستخدمة مقاييس الذكاء لتأكيد نزوعها التعصبى (سيرل بيرت ، ١٩٠ ؛ جينسن ، Gensen ، ١٩٦٩ ، ايزنك ، ١٩٧٣ ، ريشتون Rushton ، ١٩٩٨ ، دوفيدو Dovidio ١٩٩٨) .

ثم هناك الاتجاهات المحافظة ، سواء أكانت يمينية متطرفة أم يسارية ، بتوجهاتها الدوجماطيقية ودعوتها إلى القوة والتسليح العسكرى ومعاداة الآخرين وما إلى ذلك (ويلسون ، ١٩٧٢ ، Sidanius وآخرون ، ١٩٩٦ ، هيل ، ١٩٩٦) .

وفى العقدين الآخرين من القرن العشرين ، بدا واضحاً أن الجمود العقائدى الفكرى تزداد ضراوته ، وأن التعصب والنزعات العرقية تزداد حدتها ، وأن الكوكبية Globalization التى جاءت نتيجة للثورة العلمية والتكنولوجية صاحبته حروب عرقية وثقافية وتعصبية فى أنحاء شتى من العالم ، فقد أشار تقرير روما ، ١٩٩١ العام إلى أن العالم يمر بمرحلة الثورة الكوكبية ، وهى تختلف عن الثورة الزراعية والثورة الصناعية فى أنها تخلق من وضوح الرؤية ؛ إذ هى تموج بالحركات اللاعقلانية والتعصبية والدوجماطيقية ، (ص ١٥٨) .

وقد تمثلت تلك اللاعقلانية ، وذلك التعصب والدوجماطيقى فى حرب الخليج ، وبشاعة التطهير العرقى فى دول البلقان ، والعنف الوحشى فى الصومال ، وعمليات الإبادة الجماعية فى رواندا وظهور الحركات الفاشية الجديدة فى أوروبا وتساعد النزعات التعصبية على نحو غير مسبوق فى إسرائيل (محمد إبراهيم عيد ١٩٩٩ ، ٣٩ - ٤٠) .

وقد اتخذ التعصب منحى نفسياً ومعرفياً باتخاذ مفهوم الذكاء لتبرير التمييز العنصرى والتمييز العرقى ، ولعل من بين هذه الدراسات دراسة (ريشتون Rushton ، ١٩٩٨ ، دوفيدو Dovidio ، ١٩٩٨) .

فى الدراسة الأولى يستهل ريشتون ١٩٩٨ دراسته بتأكيد ما كتبه جينر ميردل Gunnar Myrdal فى كتابه المعضلة الأمريكية American Dilemma ، والذى أوضح فيه أن معضلة أمريكا تكمن فى الروابط العرقية ، فالمجتمع الأمريكى متعدد العرقيات ، متعدد الثقافات متعدد القوميات ، بيد أنه لا يعفى السود من مسئولية التعصب Prejudice والتمييز العنصرى المفروض عليهم من قبل البيض ، فهم أقل من البيض قدرة وإمكانية وذكاء ، وتكمن النقطة المحورية عند ريشتون فى أن المساواة البيئية لا تعتبر دليلاً على المساواة بين الناس ، وأن التباين بين البيض والسود يرجع إلى عدم التكافؤ بينهما فى نسبة الذكاء IQ .

وهذا التباين بين العنصرين مردود إلى أسباب جينية فى الأصل ، ويستشهد ببعض التباينات الفسيولوجية بين البيض والسود ، مؤكداً أن التباين بين السود والبيض يتجاوز نسبة الذكاء إلى التباين فى حجم المخ ، وفسيولوجية الحمل والولادة ، والشخصية ، المزاج ، وسرعة النبض الفيزيقي وطول العمر .

فالتباين بين البيض والسود يضرب بجذوره في التطور الجيني ، وعلى قمة هذا التباين تقف معدلات الذكاء التي تؤكد امتياز البيض وتفوقهم العنصرى عن السود .

وتمضى هذه الرؤية فى صلفها العنصرى ، مؤكدة أن اللاتسامح ، واللامساواة أى التعصب والتمييز العنصرى ضرورة تحتّمها التباينات الجينية وليست البيئية .

وعلى المنحى نفسه كانت دراسة دوفيدو Dovidio وآخر (١٩٩٨) عن طبيعة التعصب المعاصر ، وأسبابه ونتائجه ، وتحديات الكراهية العرقية التى تبلغ حد المقت العرفى Avirsive Race بين الجماعات المتباينة عرقياً .

فى هذه الدراسة يبين الكاتبان أن ثمة إحباطات معاصرة تحاصر السود الأمريكان ، وأن هذه الإحباطات مردودة إلى المكونات العرقية للسود .

وبغية التوصل إلى محددات طبيعة التعصب العرقى وأسبابه ونتائجه وكيف يمكن تحديه ، قام الباحثان بتطبيق استقصاء على عينة قوامها ١٢٠٠ من البيض ، كشفت النتائج أن ١٠ - ١٥ ٪ من أفراد المجموعة البيض ، لا يزالون يشعرون بأنهم أكثر امتيازاً من السود ، وأن التفرقة العنصرية لا بد وأن تعود ثانية إلى أمريكا ، وأنهم يتعصبون تعصباً أعمى bigotry للعنصر الأبيض .. ويرجع الباحثان التباين بين البيض والسود إلى أسباب جبلية ، فطرية Innately فالسود من وجهة نظرهما أقل ذكاء من البيض وأن المساواة بينهما غير عادلة . ويرى أن تحدى النزعة العرقية يكمن فى تجاوز الفروق العرقية التى تدعو إلى اللامساواة بين البيض والسود ، غير أنهما يؤكدان أن التعصب الدينى Enthusiasm والتعصب العنصرى ينبعان من موروّثات ثقافية .

والحل من وجهة نظره يكمن فى التسامح العرقى rocial tolerance بين الجماعات العرقية المتباينة ، وأن قوة المجتمع تكمن فى محاولته صهر هذه التباينات العرقية فى بوتقة واحدة ، لاسيما وأن أغلبية أفراد العينة كانوا يتسمون بالتسامح والإحساس بالمساواة ، وأن التسامح يتيح ثراءً إنسانياً ويقوى الروابط بين الناس رغم التباين .

ولعل الذكاء من بين الافتراضات المعرفية التى اتخذت لتبرير تفوق شعب على شعب ، أو فئة عن أخرى ، أو جماعة عرقية عن أخرى .

والدراستان السابقتان ، وغيرهما من الدراسات ، تردّد لتلك الدراسات التى افتقرت إلى اليقين العلمى ، والتى تفترض أن الذكاء - وهو محض تصور افتراضى -

وراثي ، وأن القدرة والعبقرية والإمكانة ، جينات وراثية ، يولد البعض وهو مزود بهما .

وبدأت هذه الفكرة منذ هيرت سبنسر ، وجالتون في كتابه « العبقرية الموروثة » ، وسيرل بيرت الذي زيف نتائج دراسته ، ليؤكد أن الذكاء وراثي بنسبة ٨٠٪ وأنه حكر على الجنس الأبيض دون غيره من الأجناس .

وقد نشر أرثر جنسين Jensen ، تلميذ سريل بيرت في عام ١٩٦٨ ، دراسة انبرى يدافع فيها عن مقاييس الذكاء ، مفسراً التباين في نسبة الذكاء بين البيض والسود إلى فروق جينية بين الجنسين ، معلناً أنه مع النظرية الجينية ، ففي رأيه أن الجينات هي المسؤولة عن اللامساواة ، وعن التخلف في التعليم ، ومن ثم فالطبيعة هي العلة الأولى للتمييز العنصري ، وأن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪ ، وتأثير البيئة لا تزيد نسبته عن ٢٠٪ .

وقد أثارت دراسة جنسين كثيراً من النقد حول وراثة الذكاء ، والتفرقة بين العرقيات على أساس جيني ، ومن أهم العلماء الذين رفضوا آراء جنسين كامين في كتابه « العلم وبولتيكا قياس الذكاء » بقوله إن قول جنسين بوراثة الذكاء بنسبة ٨٠٪ ليس له أي سند تجريبي ، بل هو قول يؤيد فكرة أن الطبقات الدنيا في المجتمع هم ضحايا الجينات الوراثية ، ومعنى ذلك أن قياس الذكاء مسألة سياسية ، وأن بنيه قد صمم مقياسه عن الذكاء بناء على تكليف سياسى من وزير التعليم الفرنسى لوضع مقياس يميز الطلاب الذين يعانون من ضعف أكاديمي .

وقد تأثر إيزنك Eysenik بالقول بالاحتمية الجينية لمستوى الذكاء ، ولكنه بين منذ البداية وجوب التفرقة بين وراثة الذكاء والفروق الجينية ، والسياسة الاجتماعية المنحازة إلى التمييز العنصري ، والهدف من ذلك تبرئة نفسه من تهمة الانحياز العنصري ، ونتيجة لهذه الفكرة أقيمت مظاهرات مناهضة لإيزنك في بريطانيا وفي سيدنى في استراليا ، وصفع على وجهه ، وضرب ومنع من إلقاء محاضراته باعتباره فاشستى وداعيه للتفرقة العنصرية بين العرقيات (عبد الستار إبراهيم ١٩٨٧) .

وللباحث الحالى تصور مؤداه أن الإبداع أعدل الأشياء قسمة بين البشر ! .. فالناس يولدون وهم مزودون بقدرات عقلية متميزة ، وإمكانات تتواصل بغير انتهاء وبمواهب شتى ، وخيال خصب ، بيد أن هذه القدرات وهذه الإمكانات وتلك المواهب تظل خبيثة ، أو فى حالة من الكمون ، تحتاج لمن يخرجها إلى حيز التحقيق الخلاق فى الواقع .

وهذا التحقق مشروط بنسق تعليمي متميز ، وبمجتمع يشجع على الإبداع ، وإمكانات اقتصادية تتيح للمواهب والإمكانات أن تتخلق إبداعاً وقدره .

وتهدف دراسة فرانسيس Francis (١٩٩٧) الكشف عن أبعاد الشخصية كما تقاس بمقياس أيزنك للشخصية ، موضحاً ما تنطوي عليه من روابط اجتماعية لدى منغلقى الذهن من المراهقين ، وعلى عينة قوامها ٧١١ طالباً ، متوسط أعمارهم ١٦ سنة . وتتمثل أبعاد الشخصية عند أيزنك فى الانطواء فى مقابل الانبساط: الاضطرابات الانفعالية فى مقابل الاتزان الوجدانى ، والذهانية مقابل الواقعية .

وقد أسفرت النتائج بعد تطبيق استبانة أيزنك للشخصية ومقياس روكيتش للدوجماتيقية ، ومقياس معيار التقدم لرامين ، إضافة إلى استمارة بيانات توضح علاقات الطالب الاجتماعية وعدد مرات ذهابه إلى الكنيسة ، وانضباطه فى أداء الصلاة ، ومشاركته فى الأعمال المنزلية .

أسفرت النتائج عن أن الطلبة الذين يتصفون بانغلاق الذهن أى بالدوجماتيقية فى مستواها العالى أقل فى مستوى الذكاء من أقرانهم ، وأن روابطهم الاجتماعية جد ضعيفة ويتصفون بالميل العصابية حيث زيادة الانفعالات والشعور بالقلق والعجز عن التحكم فى التقلبات الوجدانية وفقاً لتعريف أيزنك للعصابية ، ولم تسفر النتائج عن وجود ارتباط بين متوسط درجات الدوجماتيقية وصلاة التلاميذ فى الكنائس والانبساطية Extroversion .

وفى دراسة ثانية للباحث نفسه (١٩٩٨) عن العلاقة بين الدوجماتيقية وبعدي الشخصية وفقاً لتصوير أيزنك ، مستخدماً مقياساً معدلاً لمقياس روكيتش هو مقياس دوميرت Dommert للدوجماتيقية ، على عينة قوامها ٨٠ تلميذاً ، متوسط أعمارهم ١١ سنة ، أسفرت النتائج عن أن الدوجماتيقية ترتبط ارتباطاً شديداً بالعصابية ، ولا ترتبط بالانبساطية .

وهذه النتيجة تفسر ما افترضه أيزنك من أن الشخصية الانبساطية تتصرف وفقاً لاندفاع للحظة ، مولعة بالاندماج مع الناس ، عزوفة عن الوحدة ، تتميز بالاندفاع وسرعة الحركة والنشاط ، ولهذا كان الدوجماتيقيون أكثر ميلاً إلى النمط العصابى ؛ لأنهم يفتقرون إلى الضبط الانفعالى ، والاتزان الوجدانى ، ويتصفون بالتصلب العقلى وانغلاق الذهن وجموده ، والعيش نهياً لمشاعر التهديد ولاسيما فى المواقف التى تتطلب تلقائية فى التعبير ، وتسيطر عليهم وساوس قهرية وقلق وتوتر وعزلة .

وتتفق خصائص الشخصية الدوجماطيقية مع الشخصية التسلطية التي تحدث عنها فروم Fromm ، في كتابه «الهروب من الحرية» (١٩٧١) حيث يصف التسلطيين بأنهم ممثلون إحساساً بالذنب ، ويتعذّب الذات ، أحياناً بطقوس وأفكار قهرية أشبه بطقوس وأفكار العصائيين القهريين ، وأنهم لا يشعرون بالأمن وممثلون رعباً بشعور لا يطاق بالوحدة واللاجدوى ، ويحبون الظروف التي تحد من الحرية الإنسانية ، (ص ١٨٠) .

والدوجماطيقية والتسلطية وجهان مضادان للتسامح ، الذي يقوم على الحرية والتباين بين الناس ، والدوجماطيقية والتسلطية يرفضان التباين ، ويتمسكان بالفكرة الواحدة ، والغاية الواحدة ، والرأى الواحد ، ولهذا .. فإن التصلب وجمود العقل والتعصب والعدوان والغضب من مظاهر الدوجماطيقية والتسلط اللذين من شأنهما إفراز الإرهاب .

وعلى الرغم من أن الإرهاب قديم ، إلا أن عصرنا قد شهد أشكالاً متعددة من العنف والترويع والتهديد وسفك دماء الضحايا ، تحقيقاً لأهداف فكرية أو سياسية أو قومية ، وقد ازدادت حدة الإرهاب وضراوته وأصبح ذات طابع كوكبي ؛ لا سيما فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين .

ولعل فيما كتبه ملتيزر Meltzer ، ١٩٨٣ ؛ وبرلشتين Pearlstien ، ١٩٩١ ؛ ولونج Long ١٩٩٢ ؛ وغيرهم من الكتاب ما يوضح الطابع الكوكبي للإرهاب الذى استطاع أن يستفيد من كل تقدم تكنولوجى ، ومن الثورة المعلوماتية ، ومن التقدم المبهـر فى عالم الاتصالات والمواصلات ، واستخدمت المعرفة بكل تقنياتها ووسائلها من أجل أهدافه التدميرية .

يوضح هاريس جوناثان Jonathan ، (١٩٨٣) فى كتابه «الإرهاب الجديد» The New Terrorism أن الإرهاب ذو طابع سياسى ، سواء أكان يسارياً أم يمينياً ، وأن الإرهابيين ينشرون الفزع والرعب من خلال خطف الطائرات والسيارات المفخخة ، وأعمال الاغتيال والسطو والسرقة ، وأن المنظمات الإرهابية فى تزايد مستمر ، مستفيدة من طبيعة التقدم العلمى والتكنولوجى ، ولها معسكراتها وأماكن تدريب أفرادها ، والسؤال الملح : كيف يمكن للعالم أن يقاوم الإرهاب الذى يهدد حضارة الإنسان ؟

وفى دراسته عن العنف والإرهاب فى أوروبا ، حاول ملتيزر Meltzer ، (١٩٨٣) أن يتتبع مسار العنف السياسى والإرهاب فى القرنين التاسع والقرن العشرين

موضحاً أن الإرهاب قديم قدم الإنسان ، وأن للعنف وسائله ومفاهيمه وأن للإرهابيين تنظيماتهم سواء في الماضي أم في الحاضر ، وأن هذا العنف ساد أوروبا وأمريكا في أيرلندا ، وفرنسا وكندا وبلجيكا وإيطاليا وأن جوهر الإرهاب ينطوى على ثلاثة عوامل رئيسية : مصدر العنف ، الجمهور ، الضحايا ، وأن المصاحب الضروري للإرهاب هو الخوف وأن الغاية القصوى هي التهديد .

وفي كتابه عصر الإرهاب The Age of Terrorism يوضح والتر ليكور La-queur (١٩٨٧) أننا نعيش في عصر الإرهاب، وإن الإرهاب يجتاح كل شيء ، وإن الإرهابيين يلجأون إلى العنف من أجل الإثارة ، ولهذا يختارون العروض العنيفة المبهرة كعمليات الاختطاف التي تنظم دولياً ، ويشارك فيها أفراد من مختلف الدول ، أما أخبار قتل أصحاب النفوذ فإنها تحتل العناوين الرئيسية ، وتتناقلها وكالات الأنباء ، والأقمار الصناعية .

ويضرب أمثلة بجماعة الجيش الأحمر RAF ، وجماعة بادرمانيهوف ، في ألمانيا الغربية ، والجيش الجمهوري الأيرلندي ، إضافة إلى الجماعات الإسلامية في إيران وبعض دول الشرق الأوسط .

وفي محاولة لتشريح ماهية الإرهاب The Anatomy of Terrorism حاول ديفيد لونج (١٩٩١) أن يقدم تحليلاً متعدد الأبعاد لمكونات الإرهاب وعناصره وأبعاده ، نفسياً ، واجتماعياً ، وسياسياً ، واقتصادياً ، بيد أنه أوضح على نحو خاص ما تنطوى عليه الهويات العرقية القومية من دوافع لتأكيد وجودها الذي طمسته الأيديولوجيات ، ووحدته في كيانات قومية رغماً عنها ، الأمر الذي أدى إلى شيوع الإرهاب تأكيداً للهويات الثقافية .

وفي محاولة للوصول إلى تحليل لشخصية الإرهابي ، بين بيرلشتين Pear Lstien (١٩٩١) أن مفتاح شخصية الإرهابي تكمن في « النرجسية » ، تلك التي تجعله يدمر نفسه ويدمر الآخرين ، وأن الاستعلاء والإحساس بالقوة والقدرة على النيل من الآخرين ، والغدر بهم هو الطابع المميز للإرهابي ، وأن الإرهاب ينطوى على نزعة عدمية وتدميرية .

ويشير معجم العلوم الاجتماعية إلى أن لفظ إرهاب « يشير إلى نوع خاص من الاستبداد غير المقيد بقانون أو قاعدة ، ولا يعير اهتماماً بمسألة أمن ضحاياه ، وهو يوجه ضرباته والتي لا تأخذ نمطاً محدداً إلى أهدافه المقصودة بهدف خلق جو من الرعب والخوف وشل فاعلية ومقاومة الضحايا ، (ص ٧١٩) .

وعلى الرغم من إدانة الإرهاب كفعل يتسم بالخسة والغدر ويستهدف الأبرياء.. إلا أننا لا بد وأن نفرق بين الإرهاب والمقاومة المشروعة ، كمقاومة الشعب الفلسطيني للاحتلال الصهيوني التي تستمد شرعيتها من الدفاع عن الحق والأرض والمقدسات ، وتنطلق من مبادئ وقواعد القانون الدولي ، أمام محتل مراوغ ، مناهض للسلام ، سجله الإرهابى ممتد وتاريخى ، فى دير ياسين ، وقبية ، وكفر قاسم ، وصبرا وشاتيلا ، والمسجد الأقصى ، الحرم الإبراهيمى ، وقانا .

وفى دراسته عن الشيوعية كديانة Communism as religion يوضح Mcfarland (١٩٩٨) أن الشيوعية كأيديولوجية ، تعالت فوق مبدعيها وتحولت إلى دوجما .. إلى معتقد .. إلى ديانة لها طقوسها وأفكارها المطلقة ولها توجهاتها المتعصبة .

ولمعرفة توجهات الماركسية فى سلوك الناس ، صمم الباحث مقياساً أطلق عليه ، الأصولية الماركسية، محدداً فى ضوء مجموعة من العوامل تتمثل فى : الاتجاه العنصرى تجاه اليهود ، المسيحيين ، النساء ، الشواذ جنسياً ، والمنشقين سياسياً ، على عينة قوامها (١٣٧) عضواً من أعضاء الحزب الشيوعى الروسى .

أسفرت نتائج دراسته - بعد مقارنة نتائج دراسته بدراسات أجريت على أصوليين مسيحيين أمريكيين - أن ثمة علاقة بين النمط العرقى Genotypic والأصولية Fundamentalism والتوجهات الدينية وأن التعصب وليد هذه العلاقة ، سواء كان لدى المسيحية الأمريكية أو الشيوعية .

وفى دراسته بعنوان ، الطيور على أشكالها تقع ، دراسة مقارنة للعلاقات ضمن عرقية Intra ، والعرقية المتبادلة Inter Ethnic وعلى عينة قوامها ٧٤ من الإناث ، ٢٦ من الذكور .

اتخذ الباحثان شيبازاكى ، Shibazaki ، وبرينان Brennan ، (١٩٩٨) من التغيرات الثقافية المصاحبة للأنماط العرقية أساساً لدراسة الروابط ضمن العرقية أو العرقية المتبادلة لدى مجموعة من أزواج الأفراد ، قوامها ٧٤ من الإناث ، ٢٦ من الذكور .

وقد أوضح الباحثان أن التسامح نقيض التعصب ، وأن التعصب يأتى ملازماً للروابط العرقية المغلقة .

وأسفرت النتائج عن أن التشابه العرقى يودى إلى عرقية متبادلة وأن الشك يأتى نتيجة لاختلاف العرقيات ، وأن التسامح ينتشر بين أبناء العرق الواحد على نحو أشد من أبناء العرق المغاير .

وعن الاتجاهات المحافظة Conservatism تدور دراسات (ميهرابين Mehra-bian ، ١٩٩٦ ، سيدنيوس Sidanius ، ١٩٩٦ ، هيل Hiel ، ١٩٩٦) .

وتدور دراسة Mehrabian ، (١٩٩٦) حول محاولة فهم العلاقة بين الاتجاهات السياسية وسمات الشخصية ، من خلال تحديد المتناقضات التي تتمثل في النزعة التحررية Libertarianism ، والنزعة المحافظة ، وتمثلت بعض نتائج الدراسة في أن النزعة التحريرية والديكتاتورية Totalitarianism ضدان لا يلتقيان ، وأن الاتجاه المحافظ مناهض للاتجاه الليبرالي .

وهذا راجع إلى أن الاتجاه المحافظ يتضمن الإصرار على الأنماط الثقافية الجامدة ، التي تتصف بالجمود الذهني والدوجماتيقية وتنطوي على تسلط ، وأن الاتجاه المحافظ يرتبط بالاتجاهات الاستبدادية ، وأن الخصائص النفسية المصاحبة للاتجاه المحافظ تتفق وخصائص الشخصية التسلطية .

وأُسفرت نتائج دراسة Sidanius وآخرين (١٩٩٦) ، عن العرقية والمحافظة والأفعال الإيجابية والسوفسطائية العقلية عن وجود علاقة ارتباطية بين المعتقدات السياسية والنزعة العرقية ، وأن الاتجاه اليميني المحافظ غالباً ما يكون مناهضاً للسود ، كعرق له وجود ، وأن ثمة ارتباطاً عالى المستوى بين المحافظة والعرقية والرغبة في الهيمنة والسيطرة على الآخرين .

وفي محاولة للكشف عن أبعاد الشخصية والمعتقدات السياسية المعاصرة بين هيل Hiel (١٩٩٦) وآخرين أن ثمة علاقة بين المعتقدات السياسية المعاصرة والشخصية ، على عينة قوامها ٣٢٨ طبق عليهم مقياس المعتقدات السياسية ، الذي أسفر عن مجموعة من العوامل بعد إخضاعه للتحليل العاملي ، تمثلت في : المحافظة العامة ، التدخل العسكري المبكر ، العدالة في تحصيل الضرائب ، والرفاهية الاجتماعية .

وقد قام ليفريدو وأمزو ، Leffredo & Omizo (١٩٧٩) بدراسة تهدف الكشف عن الفروق بين حالة الأنا وجهة الضبط ، والدوجماتيقية لدى عينتين من الطلاب الأفروأمريكان والأنجلوأمريكان قوامها ٤٠ من السود ، ٤٠ من البيض تتراوح أعمارهم من ١٧ - ٢٧ ، وقد طبق عليهم بطارية من المقاييس ، تمثلت في : مقياس حالة الأنا (إعداد الباحثين) ، مقياس وجهة الضبط (روتر) ، ثم مقياس الدوجماتيقية (روكيتش) .

وقد أسفرت النتائج عن أن الطلبة الذين يتمتعون بوجهة ضبط جوانية النزوع ، يثقون في قدراتهم على المبادأة واقتحام المجهول ، ويؤمنون بأن السعى والمثابرة والعمل هم معايير النجاح وليس الصدفة أو الحظ ، ومن ثم يتصفون بقوة الأنا ، في حين أن الطلبة الذين يستمدون تقديرهم لذواتهم من وجهة ضبط برانية النزوع ، يتسمون بالخوف من المجهول ، وعدم القدرة على المبادأة ، والإيمان بالصدفة والحظ ، ومن ثم فإن الأنا لا تتسم بالقوة التي هي معيار السواء للشخصية .

وقد أكدت النتائج أيضاً أن الطلبة الذين يتصفون بوجهة ضبط جوانية النزوع ، يتصفون بالمرونة العقلية والمرونة التكيفية ، ولا يتصفون بانغلاق الذهن وجموده والتمركز على الذات .

وعلى الضد من ذلك ، كان الطلبة الذين أكدت النتائج أن وجهة الضبط عندهم لا تستمد مقوماتها من قوة الأنا ، فإنهم يتصفون بالدوجماطيقية والنتيجة المحورية التي بلغ إليها البحث أنه لا توجد فروق جوهرية بين السود والبيض باستخدام تحليل التباين المتعدد MANOVA في كافة متغيرات الدراسة .

وهذه الدراسة تتفق وجهة النظر التي تؤكد وهم التصور الجيني للتمييز بين الناس ، مؤكدة أن الفروق والتباينات بين الناس مردودة إلى مكونات الشخصية وأساليب التعليم ومعطيات البيئة ، وليست مردودة إلى الفروق الجينية .

المراجع

- ١ - جون لوك (١٩٩٨) : رسالة فى التسامح ، ترجمة منى أبوسنة ، مكتبة الأنجلو المصرية .
- ٢ - عبد الوهاب الكيالى وآخرون (١٩٨٥) : الموسوعة السياسية ، (ط٢) ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ج ١ ، ص ١٣٥ .
- ٣ - كارل بوبر (١٩٩٩) : نحو عالم أفضل ، ترجمة أحمد مستجير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .
- ٤ - محمد إبراهيم عيد (١٩٩٩) : علم النفس الاجتماعى ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة .
- ٥ - مراد وهبه (١٩٩٩) : ملاك الحقيقة المطلقة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة .

المراجع الأجنبية

- 6 - Adorno, T., Brunswik, E., Levinson, J., Stanford, N. (1950) . The Authoritarian Personality, Harport, New York.
- 7 - Allport, G. (1958). The Nature of Prejudice, Garden City. Addison - Westy Publishing Company, U.S.A.
- 8 - Andreski, S. (1954) . Authoritarianism, in Could J., & Kolt, W. (Eds) . A Dictionary of The Social Sciences, New York, Unesco Press.
- 9 - Arnold, T. (1988) : The Violence formula, Lexington Books, U.S.A.
- 10 - Atreya, J. (1984) . Dogmatism in religion, in : Roots of Dogmatism, The Anglo _ Egyptian Bookshop, Cairo. PP 47 - 66 .

- 11 - Bolz, F, Dudonis, K., Schulz. (1990) The Conuter - Terrorism Handbook, Elsevier, New York, U.S.A.
- 12 - Bouthoul, G. (1972) : Definitions of terrorism, International Terrorism and world Security.
- 13 - Brunswik, F. (1959) : Intolerance of ambiguity as an emotional and perceptual personality variable, Journal of Personality, 18, 108 - 143 .
- 14 - Drever, J. (1968) . A Dictionary of Psychology, Penguin Books. London.
- 15 - Dovidio, J., Gaertner, S. (1998). On the nature of contemporary prejudice : The Causes, consequences, and challenges of aversive racism, in : Eberhardt, J., (Ed) (1998). Confronting racism: the problem and the response, Sage Publications, U.S.A.
- 16 - Empricus, S. (1985). Selections From the Major Writings, Avatar Book, U.S.A.
- 17 - Eysenck, H., Wurzburg, R. (1972) : Encyclopedia of Psychology, Vol (3). Search Press, London.
- 18 - Eysenck, H. (1973) . Eysenck on extraversion, New York Wilen.
- 19 - Eysenck, H. (1974) . Tough-mindedness; In Robinson, J., Shaver, P. (1974) : Measures of Social Psychological Attitude, Michigan, Michigan Press, PP 415 - 417 .
- 20 - Fromm, E. (1971). Escape From Freedom, New York, Avon Books.
- 21 - Francis, L. (1998). Dogmatism and Eysenck's two dimensional model of personality revisited, Personality - and - Individual - Differences, Apr, Vol 24 (4) 571 - 573.
- 22 - Francis, L - (1997). Personal and Social Correlates of the "closed mind" among 16 year old adolescents in England, Educational Studies, Nov, Vol 23(3) : 429 - 437 .

- 23 - Freud, S. (1975) . Civilization and its Discontent, London.
- 24 - Gould, J., (1964) . A Dictionary of the Social Sciences. Tavistock Publications Limited, London.
- 25 - Hiel, V., Mervield, I. (1996) : Personality and current political beliefs, Psychological - Belgium, Vol 36 (4) : 221 - 226 .
- 26 - Honderich, T. (1995). The Oxford Companion To Philosophy, Oxford, New York, Oxford University Press (204) .
- 27 - Jonathan, H. (1983) : The new terrorism; politics of violence, School Library; Journal, Vol 29, p. 76, April.
- 28 - Kohn, P. (1972). The Authoritarianism - Rebelliousness Scale : A balanced F scale with left - wing reversals. Sociometry, 35, 176 -189.
- 29 - Kohn, P. (1974). Authoritarianism, rebelliousness, and their correlates among British undergraduates, British Journal of Social and Clinical Psychology, 13, 245 - 255.
- 30 - Laqueur, W. (1987) : The age of terrorism. The Economist. Vol. (303) 91, June 27.
- 31 - Leffredo, D. (1998). The relationships among ego states, locus of control and dogmatism transactional - Analysis- Journal. Apr, Vol 28 (2) : 171 - 573.
- 32 - Lee, R., & Warr, P. (1969). The development and Standardization of a balance F Scale, Journal of General Psychology, 81, 18, 109 - 129.
- 33 - Long, D. (1990): The anatomy of terrorism Library, Journal, v115, P113, July.
- 34 - May, R., (1982). Anxiety and values. In Spielberger & Sarson. Stress and Anxiety, Hemisphere Publishing Corporation, New York, Vol, (8) 13-21.

- 35 - Mckfarland, S. (1998): Communism as religion, International - Journal - for - the Psychology of Religion. Vol 8 (1), 33 - 48.
- 36 - Mehrabian, A. (1996). Relations among political attitudes, personality and psychopathology assessed with new measures of libertarianism and conservatism, Basic - and - Applied - Social - Psychology, Dec, Vol 18 (4): 469 - 491.
- 37 - Meltzer, M. (1983). The terrorists. Bulletin of the centre for children's Books.
- 38 - Moss, R. (1977): The Collapse of democracy, Abaws, London.
- 39 - Murphy, G. (1947). Personality: A Bio - Social Approach, New York.
- 40 - Nauta, L. (1984). Dogmatism and their critic a philosophical inquiry into the roots of rigidity. In : Roots of Dogmatism, The Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, P23 - 46.
- 41 - Pearlstein, R. (1991). The mind of the political terrorist, Library Journal V (116) b, P172, June.
- 42 - Poper, K., (1969). Conjectures and Reputations, London.
- 43 - Rubestein, G. (1996): The relationship between - therapeutic authoritarianism and social attitudes, Megamot, June; Vo 137 (4). 435 - 453.
- 44 - Rushton, J. (1998): The American dilemma in world perspective in Taylor, J., et - al (1998). The real American dilemma : Race, immigration, and the future of America (pp. 11 - 30). Oakton, New Century Books, U.S.A.
- 45 - Rokeach, M., (1970). The Nature and Meaning of Dogmatism, Penguin, London.
- 46 - Rokeach, M., (1960). The Open and Closed Mind, Basic Book, New York.

- 47 - Sidanius, J., Pratto, F., Bobo, I. (1996). Fascism, conservatism, affirmative Action, and intellectual sophistication: A matter of principled conservatism or groupe dominance, *Journal - of - Personality and Social Psychology*, Mar, Vol., 70 (3) 476 - 490 .
- 48 - Shibazaki, K., Brennan, K. (1998). When birds of different feathers block together. A preliminary comparison intra - ethnic and inter ethnic dating relationships (1998). *Journal of Social - and - Personal - Relationships*, Apr, Vol, 15 (2): 248 - 256.
- 49 - William, L., *et al* (1967). *The Shorter. Oxford Dictionary*, Oxford University, London.
- 50 - Wilson, G., & Patterson, J. (1968). A new measure of Conservatism. *British Journal of Social and Clinical Psychology*, 7, pp: 264 - 269.

الفصل السابع

- * السلوك الاجتماعي بين الوراثة والبيئة
- * القيم .
- * الإشاعة.

موضوعات نفس
اجتماعية

الفصل السابع

السلوك الاجتماعي بين الوراثة والبيئة

ثمة مشكلة محورية في علم النفس ، تدور حول دور الوراثة والبيئة في تشكيل سلوك الإنسان الاجتماعي ، وقد استحوذت هذه المشكلة على اهتمام العلماء باعتبارها مشكلة محورية وجوهرية في تفسير سلوك الإنسان الاجتماعي وفي نموه الفيزيقي وفي تطوره الاجتماعي ونزوعه النفسي وتبايناته الثقافية والقيمية .

وانقسم العلماء إلى قسمين : أحدهما مؤيد ومدافع عن دور الوراثة في تكوين السلوك الاجتماعي والقدرة والإمكانة والنمو الإنساني بكافة مظاهره ومفاهيمه ، والآخر مناهض لهذا الدور ومؤيد دور البيئة في تشكيل السلوك ولمعان المعرفة ، وبزوغ القدرة والإمكانة .

وانبثق فريق ثالث يؤمن بجذلية العلاقة بين الوراثة والبيئة في تشكيل السلوك الاجتماعي للإنسان ، وأن الإنسان هو ذلك الائتلاف الفريد الذي يتكون من زاد جيني يولد الإنسان وهو مزود به ، وأن وجوده وتطوره ناتج عن تفاعل دائم ومستمر مع محددات البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وأن من شأن هذا التفاعل الجدلي أن تتحقق إنسانية الإنسان وأن تبرز إمكاناته ، وأن تتشكل قيمة وأنماط سلوكه الاجتماعية ، وبغير هذا التفاعل الجدلي بين محددات الوراثة ومحددات البيئة ، يستحيل أن يكون الإنسان إنساناً وأن تكون القدرة قدرة ، والإمكانة إمكاناً ، فالتفاعل بين ما هو جيني وما هو بيئي هو الذي يتيح للقدرات أن تتفتح وللإمكانات أن تبرز معبرة عن نفسها في مواقف اجتماعية وإنسانية ، وفيما يلي تفسير ذلك .

الوراثة والبيئة : Heredity & Environment

إن التفاعل بين الوراثة والبيئة شرط ضروري لنمو الإنسان من حيث هو كائن فريد له إمكاناته وقدراته وخياله وسلوكياته الإنسانية .

فدون الوراثة يصبح السلوك الإنساني أمراً مستحيلاً ، ودون البيئة التي تزودنا بالمشيريات والأحداث والمواقف المتباينة - تصبح الاستجابة أمراً غير قائم .

والإنسان هو ذلك الائتلاف الفريد من الجينات الوراثية ، التي تمنحه هذا التباين في الاستعدادات والنمو الطبيعي والقدرات ، بيد أن هذا التمايز مردود إلى تلك

التفاعلات التي تحدثها البيئة المحيطة بالإنسان ، والتي من شأنها أن تؤثر على نموه ، حتى وهو مجرد نقطة في قرار مكين .

والتساؤل المحورى الذى يمثل قضية جدلية فى تاريخ علم النفس هو : هل الوراثة هى المسئولة عن التباين فى عالم البشر أم البيئة ؟
وللإجابة عن هذا التساؤل أنقسم علماء النفس إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم يمثل وجهة نظر مباينة للآخر .

الفريق الأول : ويمثله غلاة القائلين بالتحتمية الوراثية Genetic Determinism ويرون أن الاختلاف بين البشر مردود إلى الاختلاف فى الجينات الوراثية ، وأن النمو ما هو إلا عملية تابعة لهذا المخطط الجينى الفريد .

الفريق الثانى : ويمثله غلاة القائلين بالتحتمية البيئة Environmentlist . وهم يرون أن الفروق الفردية فى العقل والمعرفة والشخصية والعمل .. ما هى إلا نواتج للتعلم والخبرة المكتسبة ، وأن الاختلافات فى نوعية البيئة مردودة إلى أن البشر غير متساويين ولهذا يعلن واطسون (١٩٢٤) ، أعطنى أى إنسان ، وعلى نحو عشوائى ، وسأجعل منه إنساناً متخصصاً وفقاً للنمط الذى سوف أحده وأختاره .

الفريق الثالث : وهو يمثل الاتجاه الدينامى بين الفريقين ، حيث يرجع الفروق بين الناس إلى التفاعل بين محددات الوراثة ومحددات البيئة ، فهناك القليل ، بل القليل جداً ، من الخصائص الإنسانية التى ترجع إلى محددات الوراثة : مثل لون العينين والشعر .. إلخ ، وإن هذه الخصائص فى صميمها جوهرية وثانوية فى آن واحد ، وأن التفاعل بين الوراثة والبيئة فى عالم الإنسان هو المسئول فعلياً وواقعياً عن كافة الاختلافات فى عالم البشر .

ويميل كاتب هذه السطور إلى القول بجدلية التفاعل بين الوراثة والبيئة ونضرب على ذلك مثلاً بالمصرى القديم الذى هبط من أواسط إفريقيا ، واستطاع أن يطوع النهر العظيم لإرادته ، وأن يبنى على ضفافه حضارة عريقة ضاربة بجذورها فى عمق الزمان ، ولم تستطع أى دولة أخرى من الدول التى يمر بها نهر النيل أن تبنى على خضر روابيه حضارة مثلاً فعل المصريين القدماء .

ولهذا أصاب شفيق غربال حينما قال : (إن مصر هبة المصريين ، وكان فى ذلك يرد بعد الفى عام أو يزيد على قول هيرودوت المأثور : (إن مصر هبة النيل ، .

فثمة علاقة جدلية - إذاً - بين الإنسان بمحدداته الوراثية والبيئة بكل محداداتها الطبيعية .

ومع هذا ، فإن القائلين بجدلية التفاعل بين الوراثة والبيئة يرجحون عوامل الوراثة بوصفها تمثل الحد الأعلى لما يمكن أن يحققه الإنسان ، بينما البيئة تؤثر في نوعية الدرجة التي يمكن أن تحققها الإمكانيات Potentials فيها هو جنسين - Gen sen (١٩٦٩) يعلن أن العوامل الوراثية تسهم في ٨٠٪ من ذكاء الفرد ، بينما تسهم البيئة في ٢٠٪ من هذا الذكاء (Burns وآخر ١٩٨٣) .

وهنا ينبغي علينا أن نحدد معنى الوراثة ومعنى البيئة :

أولاً : الوراثة :

يبدأ تأثير الوراثة منذ الإخصاب Fertilization في رحم الأم والإخصاب نتاج خليتين تناسليتين تصدران عن شخصين مختلفين إحداها تصدر عن الأب وهي النطفة والأخرى عن الأم وهي البويضة .

والخليتان التناسليتان مختلفتان كل الاختلاف من حيث الحجم والشكل فالخلية الذكرية ، الحيمن ، مزودة بذيل طويل ، وتبدو غاية في النحافة والرشاقة إذا ما قورنت بالبويضة التي تبدو على هيئة كرة ساكنة لا تتحرك ، ولا تنتج المرأة منها إلا واحدة كل شهر أما الحيمن فهو نشيط ويسبح برشاقة في السائل المنوي .

البويضة يمكن رؤيتها بالعين المجردة (قطرها ١٠/٢ ملم) أما الحيمن فلا يمكن رؤيته إلا تحت مجهر قوى ، إذ لا يتعدى طوله ١٠٠٠/٧٠ ملم أو ميكرون . أما حجمه فيبلغ جزءاً من حجم البويضة .

وبويضة الأم المخصبة تتحول إلى بيضة ثم تبدأ عملية الانقسام الخلوي للبويضة حيث تنقسم إلى قسمين كل قسم منها ينقسم إلى قسمين وهكذا .. حتى تتشكل سلسلة من الانقسامات الثنائية ، مئات آلاف ملايين الخلايا التي يتركب منها جسم الكائن الجديد .

وبويضة المخصبة تحتوى على ٤٦ من الصبغات أو الكروموزومات Choro-mosomes وتحتوى هذه الكروموزومات على الجينات Gens ، وهذه الجينات هي التي تحمل الاستعدادات الوراثية ، وكل كروموزوم يحتوى على ١٠٠٠ جين ، ومعنى ذلك أن كل الخصائص البدنية التي يرثها الطفل عن أبيه وأمه توجد في هذه الكروموزومات الست والأربعين بعد اللقاء الجنسي بين الرجل والمرأة ، بمعنى أن الجينات الوراثية هي التي تحدد لكل كائن ما سيكون عليه من حيث طول القامة ولون البشرة ولون العينين ووزن البدن وما إلى ذلك .

وثمة حتمية وراثية لها قوانين ترتكز إليها ، لعل من أهمها :

١ - قانون (الوراثة النوعية) ، وهو قانون مطلق لاستقرار الأنواع ، فكل كائن حتى يلد كائناً من نوعه ، فالبيضة الإنسانية لا يخرج منها إلا كائناً إنسانياً ، كما أن بيضة الحيوان لا يخرج منها إلا حيواناً .

٢ - قانون (الوراثة العرقية) ، وهو قانون لا يعرف الشذوذ ، فمن بيضة مخصبة من إفريقي وإفريقية يخرج مولود أفريقي ، ومن بيضة أوربية التخصب يخرج مولود أوربي .. وهكذا .

٣ - قانون (الوراثة الفردية) ، وهذا القانون يتحدث عن الصفات الوراثية التي تنتقل إلى الجنين من والديه أو أجداده ، وهذا يعني أن عدداً كبيراً من الصفات الوراثية الفردية مقرر في البيضة المخصبة ، وأن هذه البيضة تخضع للحتمية الوراثية بالنسبة للفرد ، كما تخضع لها بالنسبة إلى النوع وللعرق ، وتبدو قوة هذه الحتمية الوراثية بوضوح تام عند دراسة التوائم البشرية .

ومعلوم أنه يوجد نوعان من التوائم ، أي من الأفراد المولودين ، من وضع واحد أحياناً يخرج التوأمين من بيضتين مختلفتين أنتجتها الأم وأخصبت كل واحدة منهما على حدة ، وهما ، التوأمين الكاذبان ، اللذين ليسا سوى أخوين نمواً جنباً إلى جنب في رحم واحد ، ولا يشبه أحدهما الآخر أكثر مما يشبه أحد الأخوين العاديين أخاه الآخر .

أما الفئة الثانية فهي ، التوائم المتماثلة ، فتنتج عن انشطار بيضة واحدة ومن ثم يتشابهان تشابهاً كبيراً ، ويبالغ علماء «الحتمية الوراثية» فيؤكدون أن الوراثة لا تقتصر على وراثة الصفات البدنية والعرقية والنوعية فحسب ، بل تتعدى ذلك إلى وراثة ما يطلق عليه اسم «الذكاء» وهو موروث بنسبة ٨٠ ٪ ، أما ٢٠ ٪ الباقية فهي تأثير البيئة .

وفي محاولة لتتبع مسار مفهوم الذكاء ، وكيف أن العلماء استخدموا هذا المفهوم لخدمة أهداف عرقية ، كتب مراد وهبة (١٩٩٦ ، ص ٤٣ - ٥٢) إن هيرت سبنسر كان أول من انشغل بدراسة الذكاء في إطار البيولوجيا متأثراً بنظرية التطور عند دارون . فالحياة عند سبنسر ، تقوم في تكيف العلاقات الجوانية مع العلاقات البرانية تكيفاً متواصلاً . والفضل في ذلك في رأيه ، مردود إلى الذكاء ، ثم نشأت اختبارات الذكاء فيما بين ١٨٩٠ - ١٩١٠ وكانت الغاية منها الكشف عن ضعاف العقول وعزلهم عن الأسوياء ثم تدريبهم تدريباً يناسب مستوياتهم العقلية الضعيفة . وقد

أجرى هذه الاختبارات كل من بيل وإتارد . بيد أن كلا منهما قد انتهى إلى القول بأنه لا جدوى من تدريب ضعاف العقول . أما سجوين ، تلميذ إتارد ، فقد انتهى إلى نتيجة مخالفة لرأى أستاذه ، وهى أن ثمة تقدماً يحدثه التدريب يدور على إمكان فهم المتدرب لبعض الألفاظ المكتوبة ومعرفة مدلولاتها المادية وفهم بعض الأوامر التى يتلقاها من مدرسه . ومن ثم أنشأ مدرسة لضعاف العقول فى باريس عام ١٨٣٧ . وفى عام ١٨٤٩ تأسس معهد لضعاف العقول فى ماساشوستس .

ثم بدأ قياس الذكاء مع فرنسيس جالتون الذى حاول فيه تطبيق نظرية التطور عند دارون على تطور المجتمع فقسمه إلى طبقات وأجناس عليا وطبقات وأجناس دنيا . والغاية من هذا التقسيم منع الطبقات والأجناس الدنيا من الانتساب إلى الجنس البشرى . وتأسيساً على هذه الغاية وضع جالتون قياساً للذكاء يقيس به الاستجابات الحسية للإنسان مثل التمييز بين الأثقال ، والنغمات الموسيقية ، والحرارة والبرودة ، واهتمامه بالاستجابات الحسية مردود إلى سببين :

السبب الأول : هو أن الذكاء فى رأيه فيزيقى ، وبالتالي له علاقة بالقدرات الفيزيكية .

والسبب الثانى : إن الأفعال المنعكسة الفيزيكية غير مكتسبة بالتعلم ، ومن ثم ينبغى أن تكون هى مضمون قياس الذكاء .

ثم جاء بينيه ورفض قياس جالتون للذكاء ؛ لأن المعطيات فى رأى بينيه ، ليست كافية للتفرقة بين الأفراد ، ولأن الذكاء ، فى رأيه ، عبارة عن استجابة الفرد للمواقف التى تستلزم عمليات عقلية . ومن ثم تجاوز التشخيص الفيزيقي إلى قياس القدرة العقلية تجريبياً ، فصاغ مجموعة من الاختبارات العقلية فى عام ١٩٠٥ والمعروفة باسم قياس بينيه - سيمون للذكاء . والغاية من هذا القياس هو معرفة حالة الطفل المتوسط ، ولهذا صممت الاختبارات فى هذا الإطار بحيث يقال عمّن يحصل على درجة أقل من درجة الطفل المتوسط إنه طفل متخلف . ثم طور بينيه قياسه فى عام ١٩٠٨ فحدد لكل عمر مجموعة من الأسئلة التى تلائمه ، وانتهى إلى فكرة العمر العقلى ، وهى تدل على مستوى الطفل العادى بالنسبة لذلك العمر . ومن ثم تكشف عن الغباء والعبقرية . فالطفل الغبى هو الذى يزيد عمره الزمنى عن عمره العقلى ، والطفل العبقرى هو الذى يزيد عمره العقلى على عمره الزمنى . وانتقل قياس بينيه إلى إنجلترا لدى سيرل بيرت بتأثير من جالتون .

وكان والد بيرت الطبيب المعالج لجالتون . وقد بدأ بيرت فى تطبيق اختبارات

الذكاء عام ١٩٠٩ ، ورأيه أن الذكاء وراثي . ثم انتقل إلى أمريكا لدى ترمان والذي عدله وأطلق عليه اسم « تعديل ستانفورد » نسبة إلى جامعة ستانفورد ..

وفي عام ١٩٢٦ ألقى بيرت أربع محاضرات في جامعة برشلونة ، بناء على طلب من صديقه عالم النفس اميليو ميرا ، تدور على مسألة مهمة تخص العلم وتطبيقاته ، وهي مسألة التطور العقلي للذكاء . ودراسة الذكاء في رأى بيرون ، مطلوبة من أجل تقدم التعليم والمناهج التعليمية . وقد انتهى إلى أن الذكاء هو حل المشكلات حلاً صحيحاً . بيد أن الحل في حاجة إلى دافع . والدافع ، في رأيه هو المنفعة ، والمنفعة قد تكون حب الذات للتفوق على الآخرين ، وقد تكون التعاطف مع الآخرين ، وقد تكون الاستطلاع ، ومعنى ذلك كله ، في رأى بيرون ، أنه ينبغي النظر إلى الذكاء لا على أنه قدرة مجردة ، وإنما على أنه في حالة فعل غير آلي ؛ لأنه يواجه مشكلات جديدة في حاجة إلى حل .

وقد واكبت هذه الأبحاث عن الذكاء نبرة من الشك في اختبارات الذكاء من قبل علماء النفس البيولوجيين بسبب ارتيابهم في إمكان إدخال مصطلحي الذكاء والغريزة في نسق نظري . وأثارت تساؤلات ظلت بلا جواب ، مثل ذلك : هل ثمة تمايز بين الذكاء والغريزة من حيث إنهما وسيلتان للمعرفة ؟

وهل للعقل الذكي أساس غريزي ؟

وهل الفعل الغريزي محكوم بالذكاء ؟

وبفضل هذه التساؤلات عقد علماء بريطانيان ندوتين لبحث العلاقة بين الذكاء والغريزة . وانتهت الندوتان من غير فهم متبادل بين هؤلاء العلماء .

فانعقدت ندوة ثالثة في اكسفورد عام ١٩٢٣ ، ولكنها كانت أكثر اضطراباً من الندوتين السابقتين إذ تنوع مفهوم الذكاء وتعدد . وكان كيركباتريك قد عبر في عام ١٩١٢ عن هذا الاضطراب عندما قال : « أنا لا أعتقد أن اختبار الذكاء أو أية اختبارات أخرى نقوم بتصميمها في هذا القرن يمكن أن تكون معتمدة » .

وقد نحسم الرأي في مفهوم الذكاء إذا تساءلنا عن مكونات اختبارات الذكاء . فإذا تساءلنا : هل اختبارات الذكاء تنطوي على عنصر التذكر ؟

كان جواب ترمان حذف هذا العنصر من الاختبارات الجماعية ، ولكنه يرى أن الذاكرة ليست مرادفة للذكاء وإن كانت تبدو كذلك .

وإذا تساءلنا : هل الخيال من عناصر الذكاء ؟ كان جواب كل من شترن

وكلابريد أن الخيال خارج منطقة الذكاء . وإذا تساءلنا : هل تؤدي اللغة دوراً في بزوغ الذكاء ؟ رأى بعض علماء النفس أن اللغة معوق في اختبارات الذكاء .

ونخلص من ذلك إلى أن من شأن هذا الاضطراب أن تمتنع معه معرفة مكونات الذكاء . فهل يدل ذلك الاتجاه على تحديد مفهوم الذكاء ؟ جوابي أننا لن نعثر في هذه الحالة إلا على اضطراب آخر . وهذا الاضطراب الآخر مردود إلى سببين :

السبب الأول : هو جهل علماء النفس بطبيعة الذكاء ، وإذا هم يتحدثون عن مظاهر الذكاء وليس عن الذكاء في ذاته ، الأمر الذي يفضي إلى التشكك في مفهوم الذكاء .

والسبب الثاني : أن تعريفات الذكاء أياً كانت يمكن أن تكون تعريفات للعقل . وإذا كان من سمات التعريف الدقيق أن يكون جامعاً مانعاً فمعنى ذلك أن أى تعريف للذكاء لن يكون كذلك . فإذا قيل عن الذكاء إنه القدرة على التكيف فالعقل قادر على ذلك . وإذا قيل عن الذكاء إنه القدرة على التفكير المجرد على حد قول ترمان ، فمعنى ذلك أن العقل غير قادر على ذلك ، وحقيقة الأمر أنه كذلك . وإذا قيل عن الذكاء إنه القدرة على استنباط العلاقات والمتضاديات على حد تعبير سبيرمان ، فالعقل يقوم بذلك . إذاً ليس ثمة مبرر لهذه القسمة الثنائية بين العقل والذكاء . ومن ثم ينبغي ، منطقياً الاكتفاء بمفهوم العقل .

وقد يقال إنه إذا كان التعريف الجامع المانع للذكاء ممتنعاً ، فليس أمامنا سوى البحث عن تعريف إجرائي للذكاء ، وهو أن الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء . بيد أن هذا التعريف الإجرائي لا يصلح للتعبير عن طبيعة الذكاء ؛ لأن هذه الاختبارات تقيس مجهولاً . ومن هنا تناقضت اختبارات الذكاء .

وإذا تساءلنا : ما الغاية من اختبارات الذكاء تعددت الإجابات . ولكن مع تعددها يمكن حصرها في ثلاث : قد تكون الغاية معرفة الأنحاء المتباينة لسلوك الذكاء . وقد تكون معرفة العلاقة بين العوامل البيولوجية والسلوك الذكي ، وقد تكون محاولة الكف عن علاقة اختبارات الذكاء بالحياة الثقافية ، وعن التباين بين الأفراد في علاقتهم الاجتماعية . ومغزى هذه الإجابات إن الغاية من اختبارات الذكاء تتجاوز الذكاء ذاته إلى محاولة الكشف عن العلاقة بين البيولوجيا والثقافة والمجتمع . والبيولوجيا ترمز إلى ما هو فطري أو وراثي ، أما الثقافة والمجتمع فيرمزان إلى ما هو مكتسب .

ومن هنا بدأ جدل حول ما إذا كان الذكاء مركباً جينياً أم لا ؟ .

وكانت بداية هذا الجدل مع صدور كتاب جالتون المعنون « العبقريّة الموروثة » ، ولكن الجدل ازداد حدة بزعامة سيرل بيرت وآرثر جنسن وهانس إيزنك .

فقد أثار سيرل بيرت مسألة العلاقة بين الوراثة والبيئة ، أو على حد قوله ، بين الطبيعة والتربية ، وتأثير كل منهما على الذكاء ، وقد أثار برت هذه المسألة في إطار بحثه عن التخلف العقلي والأحداث والعصاب والنقص العقلي . وانتهى إلى أن الوراثة تؤدي دوراً رئيسياً في مسألة التباينات الفردية في الذكاء .

أما آرثر جنسن فقد نشر مقالاً في مجلة هارفارد التربوية عام ١٩٦٩ عنوانه « إلى أي مدى يمكن تأييد قياس الذكاء ، وتطبيقه في المدارس ؟ أعلن فيه أنه مع النظرية الجينية و ضد النظرية البيئية . ففي رأيه أن الجينات هي المسؤولة عن اللامساواة وعن التخلف في التعليم . ومن ثم فالطبيعة هي العلة الأولى للتمييز العنصري . وتأسيساً على ذلك يقرر جنسن أن التفكير الذي هو جوهر العملية التعليمية لا يعلم ، وأن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪ وتأثير البيئة لا يزيد عن ٢٠٪ ، ومن ثم يصبح التعليم ترفاً ؛ لأنه لا يحدث أي تغيير . وقد دار جدل حاد حول هذا المقال في الجمعية البريطانية من أجل المسؤولية الاجتماعية للعمل ، بحضور جنسن وأصحاب النظرية البيئية . ثم صدر الحوار في كتاب بعنوان « البيئة والوراثة والذكاء » .

وفي عام ١٩٧١ نشر ريتشارد هرنشتين مقالاً بعنوان « قياس الذكاء ، ينبه فيه العلماء إلى النتائج السياسية والاجتماعية لهذا الحوار . وينقد كلاً من الإعلان الأمريكي للاستقلال ، والمنفستو الشيوعي من حيث إنهما ينشدان تأسيس مجتمع لا طبقي على الرغم من تباينهما في خطة إنجاز هذا التأسيس ، ثم يردف هرنشتين قائلاً : إن اختبار الذكاء ضد هذا التأسيس ؛ لأن اللامساواة هي سمة ضرورية لأي مجتمع .

وفي عام ١٩٧٢ صدر ما يقرب من مائة وعشرين مقالاً على مقال جنسن . وفي عام ١٩٧٤ نشر ليون كامين كتاباً بعنوان « العلم وبوليتيكا قياس الذكاء يجيب فيه عن سؤال واحد : هل نسبة الذكاء موروثة ؟

جواب الرأي العلمي الشائع أن الذكاء موروث بنسبة ٨٠٪ ، أما كامين فيرى أن هذا الرأي ليس له سند تجريبي ، وهو مردود إلى الالتزام بوجهة نظر اجتماعية محددة وهي أن الطبقات الدنيا هم ضحايا الجينات . ومعنى ذلك أن قياس الذكاء مسألة سياسية . ولا أدل على ذلك ، في رأي كامين ، من أن قياس بينيه للذكاء كان بناء على تكليف من وزير التعليم العام يطلب فيه من بينيه وضع قياس يسمح باكتشاف

الطلاب الذين لديهم ميول أكاديمية ضعيفة حتى يمكن إلحاقهم بمدارس خاصة . وكل ما فعله بينيه هو أنه وضع اختباراً للتمييز بين الضعف العقلي المكتسب والفطري . ثم اقترح تدريبات علاجية للذين يحصلون على نسبة مئوية ضعيفة في اختبار الذكاء . ولهذا حرر بينيه فصلاً عنوانه « تنمية الذكاء » ، جاء فيه أن الذكاء كمية ثابتة غير قابلة لتنمية واضحة .

ونخلص من ذلك إلى عدم الفصل بين بولييتيكا اختبار الذكاء ، وعلم اختبار الذكاء .

ويبقى بعد ذلك إيزنك الذي تأثر بكل من بيرت وجنسن في القول بأن الذكاء مورث بنسبة ٨٠٪ ، أما نسبة ٢٠٪ الباقية فهي من تأثير البيئة ، وبالتالي تأثر بهما في القول بفكرة الحتمية لمستوى الذكاء . ولكنه بين منذ البداية وجوب التفرقة بين وراثته الذكاء والتباينات الجينية ، والسياسة الاجتماعية المنحازة إلى التمييز العنصري ، والغاية من هذا البيان تبرئة نفسه من احتمال اتهامه بأنه عنصري . وفي هذا الشأن قد عرف العنصري بأنه هو الذي ينظر إلى الأجناس الأخرى بكرهية وعدم ثقة ، ويضعهم في مكانة دنيا . أما الداعي إلى المساواة فهو الذي يشعر بالألفة مع الأجناس الأخرى ، وهو الذي لا يريد أن يكون متعالياً عليهم ، وعلى الرغم من أنه يبريء نفسه إلا أنه يقرر أن ثمة تراجيديا على النمط اليوناني قائمة في التناقض بين الاعتماد الأخلاقي في المساواة بين البشر ، واللامساواة الوراثة . والتراجيديا هنا تكمن في أن هذا التناقض ضروري ، وتأسيساً على ذلك ينتهي إيزنك إلى ضرورة الفصل بين القيم الأخلاقية ، والوقائع العلمية .

واعتقد أن إيزنك في هذا الفصل بين القيمة والواقعة متأثر بالوضعية المنطقية التي سادت في إنجلترا بعد كتاب الفريد إير المعنون « اللغة والصدق والمنطق » ، والذي أعلن فيه مبدأ التحقيق ، وينص على أن معنى قضية هو نفسه طريقة تحقيقها ، أي إنه نفسه إمكان الرجوع بها إلى ما جاءت تصوره ، بمعنى إننا إذا وجدنا أنفسنا إزاء قضية لا نجد لها من وقائع العالم من تطابقها ، حذفناها من جملة الكلام المفهوم . وحيث إن القضايا الأخلاقية تعبيرات عن العاطفة فهي ليست صادقة ولا كاذبة .

ثانياً : البيئة

مما سبق يتضح أن الوراثة ليست نوعية وعرفية فحسب ، بل وفردية بمعنى أن البيضة الإنسانية قد اتخذت منذ تكوينها طابعها المنفرد ، فالكائن الإنساني من نواح عدة ، محدد في البيضة الإنسانية . ويستحيل علينا أن نتهرب من هذه النتيجة الأولى

عندما نلاحظ الشبه الغريب ، الذى يكاد يكون مطابقاً بين توأمين خرجا من بيضة واحدة، بيد أننا لا بد من أن نقرر دفعاً لأى التباس ، أن الكائن لا يوجد فى الجرثومة فى حالة القوة . فلا يوجد فى البيضة أى جزء من الكائن أو أى عضو من أعضائه ، ولا تستطيع أقوى المجاهر أن ترى فى البيضة ما يشبه الكائن الإنسانى .

فمثلاً لون العينين مقرر فى البيضة ، غير أنه لا يوجد فى البيضة لا عين ولا تخطيط عين ، ولا شئ آخر يمكن أن يقال عنه إنه سيصبح عيناً أو سيسهم فى تكوين عين ، وكل ما نعرفه هو أن البيضة تحتوى على بعض العناصر أو بعض المواد التى من شأنها أن تجعل العين تتخذ خلال نموها هذا اللون أو ذاك .

وبين المرحلة البدائية ، للبيضة والمرحلة النهائية لشخص له عينا سوداوتان أو عينا زرقاوتان تجرى سلسلة من الأحداث المعقدة ، أو من التفاعلات الكيميائية ، مازال العلم مجهل كنهها .

وهذا حال جميع الصفات وجميع أعضاء الجسم .

وخلال فترة التكوين هذه أو فترة النمو التى تمتد بين مرحلة الإمكانات الجرثومية ، والمرحلة التى يتم فيها تكوين الصفات الجسدية قد تتدخل عوامل خارجية تتمثل فى البيئة ، وتؤثر قليلاً أو كثيراً فى تكوين الفرد .

والبيئة التى تؤثر فى نمو الجنين ليست البيئة الخارجية فحسب ، بل هناك البيئة الرحمية ، التى ينمو فى داخلها الجنين ، حيث يتغذى ويتشكل ويتخلق مخلوقاً إنسانياً داخل هذه البيئة ، ثم بعد تسعة أشهر يخرج من هذه البيئة الرحمية إلى البيئة الخارجية بما يكتنفها من عوامل طبيعية وجغرافية تؤثر على الجنين تأثيراً لا يستهان به .

ها هنا يكون الدور الذى تقوم به البيئة هو : تفعيل ، الصفات الوراثية ، التى قد تختلف اختلافاً كلياً بالنسبة لهذه الصفات .

فمثلاً لون العينين لا نعرف عاملاً قادراً على تعديله فى اتجاه معين .

فلون العينين مقرر سلفاً فى البيضة كما هو الحال فى بعض الصفات الأخرى ، وهنا تبدو شروط البيئة عاجزة كل العجز والوراثة هى كل شئ ، ولكن إلى جانب هذه الحالة المحددة تحديداً دقيقاً والتى لا تحتل أى تحفظ نجد حالات أخرى تؤثر فيها البيئة - داخلية وخارجية - تأثيراً لا يستهان به فلون الجلد يتأثر بالأشعة الشمسية وعوامل المناخ الذى يعيش فيه الإنسان . وطول القامة لا يتعلق بالعوامل الوراثية وحدها بل يتعلق كذلك بكمية التغذية التى يتلقاها الفرد فى حياته وخلال نموه ،

وبقدر ما يتعلق طول القامة بالهرمونات وبخاصة الهرمونات التي تفرزها الغدة الدرقية والغدة النخامية.

ونتيجة لعوامل البيئة الخارجية فإن التوأمين اللذين خرجا من بيضة واحدة قد يكون أحدهما أطول قامة من الآخر والآخر أقصر قامة إذا أصيب في حادثة سنه بأحد الأمراض .

وإذا انتقلنا من التكوين المادى إلى التكوين العقلى والخلقى الذى يتكون ببطء وتحت تأثير من عوامل التنشئة الاجتماعية ، فإن الدور هنا يكون للبيئة ، فهى التى تمنح الوليد الخيال والضمير الخلقى ، والقدرة العقلية .

من هنا نستطيع أن نقول إن الوراثة والبيئة يسهمان معاً فى تكوين الكائن الإنسانى، ويتعاونان تعاوناً وثيقاً ويتداخلان إلى درجة أنه يصعب التفريق بين ما يعود لهذه وما يعود لتلك .

وتزداد صعوبة هذا التمييز من جراء اختلاف كائنين إنسانيين اختلافاً كبيراً سواء فى أصلهما الجرثومى ، أو فى تطورهما الفردى إلا إذا كانا توأمين يتمتعان بوراثته واحدة ، وكما أن كل إنسان ينشأ عن بيضة خاصة فإنه ينمو أيضاً فى بيئة خاصة ، فالناس يختلفون من حيث تاريخهم كما يختلفون من حيث أصلهم .

وهناك من المفكرين من يرفضون الحتمية الوراثة والبيئة ويرون أن الوراثة والبيئة لا تكفيان لتفسير الإنسان بكامله ، ويتركون مجالاً لعامل مجهول لتفسير الفوارق الإنسانية التى لا تأتى عن البيئة ولا عن الوراثة .. يقول بول كوديبير : إذا كان ثمة شيء كحرية الاختيار مثلاً ، بأعمق ما فى هذه الكلمة من معنى ، فإننا نضعه تحت عنوان هذا العامل المجهول واعتبر أن نكران هذا العامل المجهول ليس من العلم بشيء .

وتأسيساً على كل ما سبق ، يحاول علماء البيئة تحسين البيئة وحمايتها من التلوث أو الفناء مما فى باطن الأرض، وفى قاع المحيطات، وفى أفلاك السماء من أسلحة للدمار والفناء، إضافة إلى تلوث البيئة من جراء تلوث المدن بأدخنة المصانع وعوادم السيارات، والاستخدام المسرف للمبيدات الحشرية وما إلى ذلك من وسائل تلوث البيئة التى تهدد سلامة النسل ، وتقلل من خصوبة المرأة ، وقوة الرجل على إنتاج الحيامن .

ثم هناك البيئة الرحمية ، والتى تعنى حمايتها حماية الجنين من التشوهات ومن الضعف ، ومن الإصابة بالإعاقة السمعية أو المخية أو البصرية ، وما إلى ذلك

من تشوهات ، أما علماء الوراثة فيحاولون دراسة الوسائل التي من شأنها تحسين النسل .

وقضية تحسين النسل شغلت الإنسان منذ قديم الزمان ؛ فالإغريق لم يعبروا عن فكرة تحسين النسل بالقضاء على الأطفال المولودين بعيوب وتشوهات عند الإمبراطيين فحسب ، بل عبروا عن ذلك في كتاباتهم ، ففي جمهورية أفلاطون وضع خطة لتحسين النسل ، فالغاية من الجمهورية المثالية أن تؤسس على زيجات مفيدة للدولة ، تحتوى على العناصر القوية والتي تتمتع بخبرة في تربية كلاب الصيد وجوارح الطير .

وفي اليوتوبيا اقترح ، توماس موروس ، أن يخضع المقبولون على الزواج لفحص طبي شامل - أما ، كمبانيلا ، فقد دعى إلى إنشاء ، وزارة للحب ، تسهر على الزواج وعلى إنجاب الأولاد .

وفي مقدمة قانون سويدي ، صدر في عام ١٧٥٧ ، ما يحرم الزواج بين شخصين مصابين بالصرع .

وفي كتابه ، سلالة الإنسان ، يدافع ، دارون ، عن تحسين إرادى للنسل بقوله :
« على الجنسين أن يعدلا عن الزواج عندما يجدان في نفسيهما نقصاً جسدياً أو عقلياً ، غير أن تعبيرنا عن هذا الأمل يعنى تعبيرنا عن مجرد وهم ؛ لأن هذه الآمال لن تتحقق ، ولو جزئياً ، مادامت قوانين الوراثة غير معروفة لدينا . »

وأسس جالتون عام ١٨٧٠ علم تحسين النسل الذى جعل له غايتين : عرقلة تكاثر المولودين بعاهاات ، وهذا هو التحسين السلبى ، وتحسين النوع بتشجيع تناسل أكثر الأشخاص جدارة ، والعناية بنسلهم وهذا هو التحسين الإيجابى .

وفي عام ١٩٠٤ افتتح جالتون معملأ لتحسين النسل ، وأصدر أول دراسة قومية عن تحسين النسل .

وفي العصر الحديث ثمة قوانين تتخذ للتعقيم ، ولإيجاد الوسائل التي من شأنها تحسين النسل ووقايته من التلوث ، ومن وراثة الإعاقات العقلية أو الحسية أو الحركية .

القيم VALUES

« نظريات القيمة لا تظهر إلا في اللحظات التي يقل فيها الشعور بالقيمة . فنحن نحيا في عالم يمكن مقارنته بالكهف الذي يتحدث عنه أفلاطون في جمهوريته . وهو كهف لا يرى المسجونون فيه إلا صوراً مسطحة منعكسة على حائط . إن العالم الحديث ليس شيئاً سوى هذا العالم السطحي الذي لا نرى فيه عمق الأشياء . »

« جان فال ،

« القيم موضوعات لمملكة أخلاقية مثالية لها بنيانها الخاص ، وقوانينها الخاصة ، ونظامها الخاص ، وترتبط هذه المملكة ارتباطاً عضوياً بمملكة الكائن المنطقي ، والرياضي ، وبمملكة الماهيات الخالصة الأخرى ،

« هارتمان ،

« إن الإنسان مدين للمجتمع بما يكون إنسانيته العليا ، ومدين له بكونه يتذكر ، ويخترع ، ويفكر ، ويحكم ، ويستدل ، ويتجاوز الواقع للارتفاع إلى أشكال المثالي المتعددة ، فإذا ألغينا الحياة الاجتماعية زال كل شيء يميز الإنسان عن أشد الحيوانات ضراوة . »

« هوبير وبروها ،

فى معنى القيم

إن لفظ قيمة Value يدل أصلاً على اسم النوع من الفعل ، قام ، بمعنى وقف واعتدل وانتصب وبلغ واستوى .

وهذه اللفظة لاتينية الأصل ، يدل معناها على القوة والصحة ، وتتضمن فكرة الفعالية ، والتأثير والشجاعة والمثالية فى الفعل والأداء . ومن العبارات الشائعة التى تدل على القيمة وصف الإنسان أو الشئ المستقيم وتفيد معنى الاعتدال والاستقامة كما يقول اللغويون .

ولقد اعتاد الفلاسفة والمفكرون أن يصنفوا القيم إلى عقلية ، وجمالية ، وأخلاقية ، يمثلها حسب ترتيبها الحق ، والجمال ، والخير .

وتتنوع المفاهيم الخاصة بمعنى القيم ، باختلاف الأطر المرجعية الخاصة بالمفكرين أنفسهم ، فالبعض يرى فى القيمة معنى للمثل العليا ، ومن ثم تكون القيم معيارية ، أى موضوعات لما ينبغى أن يكون عليه الشئ ، ومن ثم فهى شئ مفارق ، ومجاوز لنا ، نسعى إلى بلوغه ، ولكن بدرجات تتسم بالسعى والجدية وتجاوز الذات لبلوغ القيمة فى الفكر والسلوك والمواقف .

والبعض ينظر إلى القيم باعتبارها دليلاً على ، المنفعة ، التى نراها للأشياء ، وأن قيمة الشئ تعنى أن له منفعة ، تجذبنا إليه ، وتجعلنا نسعى إلى بلوغ هذه المنفعة .

والقيمة قابلة للتعرف ؛ لأنها تفرض نفسها على الإنسان ، فالقيمة قيمة مهما كان موقف الإنسان منها .

والقيم فى حد ذاتها ليست مطلقة بل نسبية ، تتباين بتباين الأفراد وفقاً لتصوراتهم الثقافية وأبنيتهم الاجتماعية ، وطبيعة النشأة والتربية التى من خلالها نبت الفرد ونما على نوع من القيم التى عليه أن يبلغ إلى درجات منه ، دون أن يبلغه بمعنى الإطلاق .

ولهذا فإن القيم تسمو بنا وتجملنا ، وتبتعد بنا عن اللامبالاة التى تظهر عند الإنسان ، ويكون الاندفاع إليها موجهاً ؛ لأن أحد قطبيها إيجابى يجذبنا إليه والآخر

سلبى يبعدنا عنه .. ولهذا فإن الحكم على القيم يتسم بثنائية قطبية تتمثل فى : حكم الوجود وحكم القيمة .

حكم الوجود هو حكم نعبر فيه عما هو موجود بالفعل ، وما هو متحقق بالفعل .

أما حكم القيمة فإنه يعبر عما ينبغى أن يكون ؛ لأنها تنشأ المثالية والكمال ومعانى الاستقامة والقوة والشجاعة كمعانى مفارقة للإنسان ، تتجاوزه وتدفعه إلى تحقيقها أو بلوغ بعض درجاتها . وهذا هو معنى استقلال القيمة . أما نسبية القيم فمعناه أنها محتملة ومتغيرة وقائمة فى الزمان ونابعة من وعى الإنسان .

ثم أن القيم لها طابع اجتماعى ، فكما يقول بروها Bruhat فى معرض حديثه عن القيم من منظور اجتماعى من وجهة نظر دوركايم ، إن الإنسان مدين للمجتمع بما يكون إنسانيته العليا ، ومدين له بكونه يتذكر ، ويخترع ويفكر ويحكم ، ويستدل ، ويتجاوز الوقائع للارتفاع إلى أشكال المثالى المتعددة ، فإذا ألغينا الحياة الاجتماعية زال كل شيء يميز الإنسان عن أشد الحيوانات ضراوة .

وهذا مردود إلى أن المجتمع هو صاحب الدور الأساسى فى تكون حياة الأفراد الذهنية ، والاجتماعية ، والنفسية ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن القيم التى تنبت فى المجتمع تصبح شيئاً مجاوزاً للإنسان ومفارقاً عنه .

يقول دوركايم : إن الفكر الموضوعى ظهر لأول مرة ، عند الإنسان فى صورة الفكر الجماعى ، وأن الأخلاق تبدأ حيث يبدأ التعلق بالجماعة ، وأن المجتمع هو الذى يتكلم فىنا حين يتكلم الضمير .

فكل مجتمع له ثقافة متميزة . وهذه الثقافة تتشكل من أنساق القيم والأفكار والعادات والرموز ، واللغة وأيضاً ما يبدعه الإنسان من أشكال جمالية وفنية ، وتعايش الفرد مع ثقافة المجتمع يعنى تعامله مع أنساق قيم مجتمعه ، بيد أن هذا التعايش لا ينبغى أن يتصف بالسكون والمواءمة المطلقة ، بل لابد وأن يتسم بالحركة والمحاولة المستمرة لتجاوز ما يمكن تجاوزه فى الطريق إلى التقدم وتنقية ما ينبغى تنقيته من عادات وتقاليد لبلوغ معنى القيمة كمعنى قائم بذاته .

ويتسم مجتمعنا بإطار قيم ممتلىء مستمد من القيم الروحية والأخلاقية والعقلية والجمالية ، ولهذا ينبغى على الشباب أن يلتزموا بهذه الأطر المرجعية فى الفكر والسلوك والمواقف ، ولكن فى سعى دائم لتغيير وجه الواقع على نحو يجعله متطوراً ومتقدماً ومزدهراً ، وهذا التقدم وذلك التطور يكون دائماً قائماً على الوعى الحقيقى

بمنظومة القيم التي تحكمنا ، والتي تجعلنا نعلو بأنفسنا وبطاقاتنا الإنتاجية والجمالية والأخلاقية إلى أقصى قدر نستطيع إليه سبيلاً .

فالعمل قيمة ، والاقتصاد قيمة ، والجمال قيمة ، والخير قيمة ، واليقين في جدوى كل عمل من شأنه أن يرتفع بنا قيمة ، وعلينا أن نسعى لبلوغ القيمة .

تصنيف القيم

لئن كان الفلاسفة اتخذوا من الحق والخير والجمال معايير لما يمكن أن يكون عليه السلوك الإنساني في سعيه صوب سواء الفعل والسلوك والمواقف ، فإن علماء النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد يضيفون إلى هذا التصنيف الثلاثي للقيم ، تصنيفات ، تعطى لكل منشط من مناشط الإنسان قيمة ، هي معيار للحكم عليه ، ومقياس مدى كفاءته وجودته ومعناه ودلالته ، كالقيمة الاقتصادية ، والقيمة الاجتماعية ، والقيمة الفنية والمهنية وهكذا ..

وتتصف هذه القيم بأنها ملزمة للسلوك والعمل ، ويقاس عليها الفعل ومن ثم فهي بوصلة توجيه وإرشاد لكل منشط من مناشط الإنسان في الحياة .

القيم الروحية :

قمة القيم جميعاً ، مطلقة غير نسبية ، فهي الحق بالإطلاق والخير بالإطلاق والجمال بالإطلاق ، يستمد الفرد منها أسس بنائه العقائدى في عروجه صوب مكارم الأخلاق ، تتصف بقوة دفع إلى السواء والإبداع الذى هو جوهر وجود الإنسان ، وإلى حرية التفكير والتعامل بالحسنى واحترام الآخر وسنتخذ من القيم الروحية فى الإسلام دليلاً على تلك المعايير ، التى قاعدتها الإيمان بالله وبرسله وملائكته واليوم الآخر ، والبعث والحساب والجنة والنار والغيب والقدر .

التسامح فى الفكر والاعتقاد الذى تؤكد بعض الآيات القرآنية .

بقوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ (سورة هود ، الآية (١١٨) .

يقول تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (سورة يونس ، الآية (٩٩) .

يقول تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ (سورة البقرة ، الآية (٢٥٦) .

ومعنى هذه الآيات أن الإيمان بالإسلام ثمرة لحرية الإرادة الإنسانية ، وأن إرغام الناس وقهرهم على اعتناق الإسلام منافٍ لإرادة الله .

ثانياً : بين القاعدة والقيمة مستويات من القيم ، توضح ما يمكن أن يكون عليه السلوك في نزوعه صوب مكارم الأخلاق ، وهي : العبادات ، والعلاقات الاجتماعية ، والقيم الاخلاقية ، (الصبر ، الصدق والعدل والامانة والعفة والقوة في سبيل الحق .. الخ) ، وعلاقات أسرية (الإحسان للوالدين وحسن المعاشرة بين الأزواج .. الخ) ، وقيم عملية ومهنية (الإخلاص في العمل وإتقانه ، والسعى بجدية إلى تحصيل المعرفة والرزق .. وقيم شخصية (كالقوة والنظافة والطهارة) ، وقيم عقلية (التفكير في الكون وخلقه ، وطلب المعرفة والعلم ، والبحث عن الحقيقة ، حرية الفكر والاعتقاد) .

ثالثاً : فهذا البناء القيمي يمثل خصائص أخلاقية تدفع بعضها البعض إلى مكارم الأخلاق ، وتظل القاعدة الإيمانية الأساس المحرك لكافة القيم جميعاً .

رابعاً : مصر كبدا لها ثقافة مصرية استمدت مقوماتها من : ثوابت جغرافية ، منحتها ذلك الموقع الفريد بين الأمم ، ومتغيرات تاريخية ، تتصف بالتنوع ، فقد كانت مصر مطمعا للغزاة عبر التاريخ ، وموروثات ثقافية تراكمت عبر العصور ، ومازالت تنصهر في مواقف الحياة اليوم ، فأنساق القيم والعادات والتقاليد ظلت راسخة ، رغم تعدد الغزوات ، ورغم دينامية التحول من دين إلى آخر ، ورغم تغير اللغة من هيروغليفيه إلى قبطية إلى عربية .

وانسياق القيم هذه تمثل كلاً دينامياً قاعدته : قوة الاعتقاد الذي يمثل حجر الأساس في هذه الثقافة منذ بدايتها ، فالحضارة المصرية كانت حضارة دينية ، تؤمن بالبعث والخلود والحساب ، وقمتها التسامح ، فمصر أطول مستعمرة في التاريخ (٥٢٥ ق.م - ١٩٥٤ م) ، تكالب عليها الغزاة من كل صوب (الفرس ، الرومان ، البطالمة ، الفتح الإسلامي ، الأمويون ، والعباسيون ، والفاطميون ، والأيوبيون ، والمماليك ، والأتراك ، وفرنسا ، وبريطانيا) غير أنها كانت تملك خاصية الاحتواء والتمصير - Egyptiani zation لكافة الثقافات الأخرى ، ولهذا عاشت بالفكر والوجدان والسلوك معنى التسامح رغم التباين .

خامساً : إن مصر مسلمون ومسيحيون كتلة سكانية متجانسة ، فضيلتهم الدين لله والوطن للجميع ، ويشتركون في قاعدة إيمانية واحدة هي أم القيم بالإطلاق وهي قوة الاعتقاد .

وظائف القيم :

ينحصر بعض هذه الوظائف فيما يلي :

- القيم بوصلة توجيه تضيء لنا الطريق أمام السلوك القويم في الحياة وفي العمل وفي العلاقة بين الإنسان ونفسه والإنسان والآخرين .
- القيم معايير تحدد ما ينبغي أن يكون عليه السلوك والفعل والمواقف .
- القيم قوة دفع لا رد لها نحو الإيمان ، والسعى والعمل الجاد والإخلاص في الأداء وعفة النفس وتجاوز الإحباط في الطريق إلى حياة أفضل .
- القيم أشبه ما تكون بالنجم القطبي الذي نسترشد به ولكن لا نستطيع بلوغه . ومن ثم فقيمة الشيء تكمن في جدية السعى إلى بلوغه .
- القيم تضيء على حياة الفرد والمجتمع والأمة قيمة ودلالة ومعنى .
- القيم هي التي تعبئ الناس بقوة دفع نحو الأهداف النبيلة في العمل والسلوك والمواقف .
- القيم هي السعى إلى السلوك القويم والعمل الجاد وتجاوز الضعف الإنساني والاستمساك بكل ماله معنى وقيمة ومحاولة بلوغه .
- القيم موضوعات لما ينبغي أن يكون عليه الفعل الإنساني ، ومن ثم فهي شرط ضروري يمنح الإنسان إحساساً قوياً بإنسانيته وقيمه .

الإشاعة

الإشاعة قديمة قدم الإنسان ذاته ؛ لأنها شكل من أشكال التعبير الإنساني ، تنبع من المجتمع أو من خارجه ، وتوجه إلى المجتمع ذاته ، تنتشر داخل المجتمع انتشاراً سريعاً كاندلاع النيران في الهشيم في أوقات الدراما الاجتماعية . فحينما يوجد ضغط اجتماعي تتزايد المقولات الزائفة بصورة كبيرة ، ولا سيما حينما تكون المعلومات المرئية والمسموعة والمقروءة عن موضوع بعينه ناقصة أو غير كاملة ، أو أن هذا الموضوع يبدو غامضاً ومحيراً ، وفي أوقات الحروب تقوض الإشاعات الروح المعنوية ، وتهدد الأمن القومي ، بنشرها أخباراً وهمية لا صحة لها .

والإشاعة : هي كل قضية أو عبارة نوعية أو موضوعية ، تنقل من شخص إلى آخر ، عادة بالكلمة المنطوقة ، في غيبة معايير أكيدة للصدق .

وتتضمن الإشاعة دائماً ، في رواجها وانتشارها شيئاً من الحقيقة ، محدد الهوية تدور حوله الإشاعة ، سواء أكان إنساناً أم هيئة أم بلداً أم مؤسسة أم جامعة أم كلية .. الخ .

والسمة المركزية للإشاعة تنحصر في أن ازدهارها واندلاعها يكون مردوداً إلى غيبة المعايير الأكيدة للصدق ، فالعلم ووفرة المعلومات ووضوحها بغير لبس أو غموض ، وعلى نحو لا يضر بالأمن والسرية العسكرية ، من شأنه أن يقف سداً منيعاً دون انتشار الإشاعات .

وتروج الإشاعات وتنتشر تحت وهم كلمات مثل « سمعت من مصدر موثوق » ، « أعتقد أن » ، « يقولون » ، إلى آخر هذه الكلمات التي تفتقر إلى الدقة والوضوح وتجد أذاناً صاغية ، تزيد وتضيف على ما سمعت ، وتضخمه أيضاً على نحو وهمي وزائف .

ونتيجة لنقص المعرفة والخبرة والوقوف لمراجعة الإشاعة ، تبدأ الإشاعات في التدفق كالشلال إذا وجدت التربة الخصبة لنشر أكاذيبها ، وفي الحروب تستخدم مختلف الوسائل - كما يقول كلاوز فيتش - لإرغام العدو على العمل وفقاً لرغباتنا ، سواء أكان هذا العدو فرداً أم جماعة أم قيمة ؛ فثمة صراع بين رغباتنا وبين شيء آخر نريده أن ينثنى لإرادتنا ، فيفسح الطريق أمامنا إلى النصر . في عام ١٩٦٧ عندما

تعرضنا لنكسة عسكرية أمام إسرائيل ، انتشرت الإشاعات التى تروج لأسطورة جيش إسرائيل الذى لا يقهر ، وأن لإسرائيل اليد الطولى فى أى صراع ، وأن على العرب أن يقبلوا بالأمر الواقع وبالهزيمة ، وأن على مصر أن ترفع راية الاستسلام ، ولكن إرادة الشعب رفضت الهزيمة العسكرية ، ورفضت الاستسلام المهين واستيقظت الروح المصرية الخالدة ، جسورة ومقتحمة ، فكانت حرب الاستنزاف أول محك حقيقى لاختبار الإرادة المصرية على مواجهة التحدى ، ومن ثم كانت التمهيد الحقيقى للقائم على الوعى والمعرفة وتقدير موازين القوة وصلابة التحدى للانطلاقة البركانية عام ١٩٧٣ ، حيث العبور الجسور فى ٦ أكتوبر . وحيث القدرة على تحطيم الأسطورة وتجاوز جدار الخوف والرغبة من إسرائيل .

وما كنا نعيشه من هزيمة مؤقتة وانكسار ، صدر إلى إسرائيل التى أطلقت على حرب ١٩٧٣ يوم كيبور ، أو السبت الحزين ، أو حرب الندم .

وعلى أية حال فإن وفرة المعلومات ، ودقة المصادر ، والمكاشفة الجماهيرية ووضوح المواقف ، ورسوخ النظام هى المحك الوحيد للقضاء على الإشاعات ومنعها من الانتشار .

ولعل ذلك ما دفع جوردن البورت ولوستمان لتقديم دراستهما الرائدة عن سيكولوجية الإشاعة فى إطار نفسى واجتماعى ، مستمد من النظريات النفسية رغم تبانيها ، بوصفها أدوات معينة لتفسير الإشاعة وما يكمن وراءها من ديناميات نفسية ، ولهذا استخدمنا فنيات التحليل النفسى لاستجلاء الدوافع العميقة الكامنة خلف كل إشاعة ، والمعطيات الجشططنية لمعرفة الشروط الحاكمة للإشاعة وتتبعها فى مجال الإدراك والذاكرة ، والمنهج التجريبي لتفسير موضوع الإشاعة تفسيراً علمياً ، لهذا جاءت فصول هذه الدراسة معبرة عن القصد من الإشاعة وتتبعها عبر العصور ، وما يكمن وراءها من ديناميات نفسية ، واجتماعية وما يؤدى إلى انتشارها واندلاعها ، وما تسفر عنه من نتائج قد تزعزع الثقة فى اليقين القومى وتبعث على الخوف ، والتوتر داخل المجتمع . وقد اخترنا من هذا العمل الرائد - بشىء من التلخيص - البعد الاجتماعى للإشاعة أو الإشاعة والمجتمع .

البعد الاجتماعى للإشاعة

الإشاعة : ظاهرة إنسانية قائمة فى النسيج الثقافى الإنسانى ، لدرجة يستحيل معها تصور مجتمع بغير إشاعات ؛ لأن الإشاعة فى حجمها تعبير إنسانى . ومن ثم ظاهرة اجتماعية تحتضنها الملايين وتصدقها ، أو تقتصر على حفنة قليلة منهم ، وقد

تندلع متوهجة وقد تهجع ساكنة ، وقد ينكشف شكل من أشكال الإشاعة عن قيمة كبيرة فيتجسد هذا الشكل في أسطورة خالدة . ولكن الإشاعة ، مسالمة كانت أم مدمرة ، واسعة المجال أم ضيقة طويلة الأمد أم قصيرة ، تعبير إنسانى واجتماعى عن مواقف تفتقر إلى الوضوح ، ويكتنفها كثير من الغموض لدرجة تسمح بمرور الإشاعة وانتشارها أو تحويلها إلى أسطورة .

الإشاعة والتاريخ :

كان أباطرة الرومان يعانون وباء الإشاعة ، إلى حد أنهم عينوا حراس إشاعات (باللاتينية delatores) ، كانت مهمتهم تنحصر فى مخالطة الأهالى ، ونقل ما يسمعون إلى القصر الإمبراطورى .. كانت التقولات الشائعة تعد بمثابة بارومتر دقيق للمشاعر الشعبية ، وكان لحراس الإشاعات - حين يقتضى الأمر - أن يشنوا من جانبهم حملة مضادة من الإشاعات .. فالحرب النفسية ليست بالجديدة .

وتقدم لنا حادثة حرق روما عام ٦٤ م مثلاً طريفاً . وبحسب تحليل شاديوك للوقائع .. فإن الجماهير المنكوبة تقبلت ونشرت الأقصوصة الذاهبة إلى أن نيرون وهو حاكم أبعد ما يكون عن الشعبية ، إن لم يكن قد أشعل النيران بنفسه بالفعل ، فإنه على الأقل قد تهلل بالجمال البربرى للهب ، وغرد نشيده فى تمجيدها ولم يكن فى افتقار الإشاعة إلى أساس من الواقع ما يعين نيرون . وفى دفاعه عن نفسه ، نجده يطلق إشاعة مضادة يتهم فيها المسيحيون ، الذين كانوا معقوتين من الشعب أكثر منه ، بأنهم هم الذين أشعلوا النار فى المدينة .

ولقد تبين أن هذا الشكل الأخير للإشاعة كان أكثر مسايرة للمخاوف والأحكام القبلية السائدة .. لقد كان من المستساغ للأفهام، أن تصدر مثل هذه الفعلة عن المسيحيين «الحقراء» ومن ثم صبت الغوغاء جام غضبها على هذه الضحايا السهلة من كباش الفداء ، متناسية إلى حين عدائيتها لنيرون .

ولو افترضنا أن الوقائع كانت ، فى هذه الحادثة ، على نحو ما وصفها شاديوك ، فإننا نتبين هنا فاعلية الديناميات الخاصة بالإشاعة فى صورتها النمطية . فمصدر الحريق غير معروف (غموض) ، وتأثيره على حياة الناس (أهمية) بلغ حد الكارثة ، كان الناس يتلهفون على تفسيره ، وفى الوقت نفسه على التخفف ، هذا الذى يتحقق بلصق التهمة ، ولقد أوحى لهم كراهيتهم ، التى كانت قائمة بإزاء حاكمهم المستبد ، بصيغة معينة . ولكن خوفهم من سطوته ، وعاداتهم الراسخة فى طاعته ، قد جعلتهم جد راغبين فى تحويل نقمهم إلى «كبش فداء» ، أضعف ، إلى العقيدة المسيحية

المستغلقة على أفهامهم ، والجد مثيرة لريبهم . ومن هنا فعلى المسيحيين ، شأنهم شأن كل الأقليات المهيضة الجناح عبر عصور التاريخ ، صبت الجماهير المحبطة الغاضبة نقيمتها .

هذا .. إلا أن الحادث ينطوى على جانب آخر من الأهمية . فعلى الرغم من أن إشاعة اتهام نيرون قد توارت حيناً من الزمن فإنها فيما بعد قد عادت لتستقر راسخة . فاللحن الذى استوحاه نيرون من النيران قد غدا أسطورة تاريخية ، بل إنه قد بلغ من الوقت إلى مرتبة الأمثال . فهذا الطاغية الغليظ القلب يستطيع أن يعزف على قيثارته وروما تحترق ، ، وليس يعني أن يكون نيرون قد فعل ذلك بالفعل ، فحسبنا أن الفعلة المنسوبة إليه هي ، عنوان ، على شخصيته ، ورمز لها ، فهذه الفعلة الشنعاء الواهية الأساس ، والصحيحة مع ذلك من الناحية المجازية ، قد ارتبطت باسمه إلى الأبد . وحيث إن الاستخفاف بالويلات الكاسحة للبشر ليس من النقائص النادرة ، فإننا نلتقى بمناسبات لا حصر لها ينطبق عليها هذا المثل ، الذى نبت فى الأصل من مجرد فرية حاقدة .

والإشاعة هي التى سافت سقراط إلى الموت ؛ إذ اتهمته بإفساد الشباب وحضهم على الثورة . وفى القرون الوسطى كانت الحروب الدينية والصليبية تجد ما يسندها من الأقايص المسرفة التى تدور حول المعجزات والأسلاب والخطايا . وبعد ذلك بقليل انتشر المستكشفون فى أرجاء الأرض سعياً وراء ما صورته الأقايص عن مسوخ البحار . وكانت أبهة البلاط البابوى ، كما كانت الجوانب الحميمة من حياة الأساقفة ، معيناً لا ينضب للأساطير ، هذه التى أسهمت ولا شك فى تمهيد السبيل أمام حركة الإصلاح الدينى .

ويمكننا أن نتساءل بحق : ما هو - فى التاريخ الإنسانى - القدر الذى يمكن اعتباره استجابة من جانب الجماعات البشرية المهمة للإشاعات الجارية ؟ إنه لقدر كبير فيما نظن ، فإلى وقت جد قريب قلما وجد سكان الأرض ما يعولون عليه غير أنباء الإشاعات . فالصحافة والبرق والإذاعة إن هي إلا مخترعات متأخرة .. فلقد كان على الجمهور قبل اختراعها أن يعول على مسافر قادم يأتيهم بما تتناقله الأفواه ، على شخص من أمثال بول ريفير P. revere ليدق ناقوس الخطر، أو على منادى المدينة، ليقدم بطريقته الخاصة أخبار اليوم . ولم يكن هناك غير القلائل من الحكام والملوك الذين كان يتسلمون الأخبار فى رسائل مكتوبة ومختومة، ومع هذا فلم تكن مصادر أخبارهم بمنجاة من الإشاعات . ولقد رأينا فى تجاربنا العملية البسيطة ، ما يحدث فى العادة من تحريف حتمى فى النقلة الرابعة أو الخامسة ، بل وأحياناً أيضاً

في « النقلة الأولى أو الثانية أو الثالثة » . وعليه فما أبعدنا عن الدقة هذه الصورة عن العالم الخارجي التي تصرف الجماهير ، بل وزعامتها ، وفقاً لها خلال مجري التاريخ!

وعلي العكس من ذلك ، فإن المصادر التي نستقي منها اليوم الحقائق فهي أكثر بكثير وفرة ودقة . فالبريد والصحافة والإذاعة والبرقيات والرسائل اللاسلكية قد حررتنا - بما يعلو علي القياس - من استرقاق الإشاعة فمن النادر أن يوجد شخص « يرغب » في أن يكون بمعزل عن الأخبار . ويبدو من المؤكد أن صرح التاريخ منذ الآن سيقوم أكثر فأكثر علي الحقائق الواقعية ، وأقل فأقل علي معتقدات الإشاعات .

ومع ذلك فليس في وسعنا أن نخلص إلي القول بأن الدور الذي تضطلع به الإشاعة اليوم يقل عما كان لها من دور في العصور السابقة . فالحقائق الموضوعية المتصلة بالحرب والنكبات والمحاكمات ، والكشوف ، والتصريحات العامة ، كلها قد غدت متاحة بصورة أدق وأسرع مما كانت عليه في أي وقت مضى ، ولكن في الوقت نفسه الذي انفتحت فيه الآفاق أمامنا ، اتسعت أيضاً مجالات « الغموض » فالحرب الأهلية في الصين ، ومولد التوائم الخمسة ، والحياة الحميمة للممثلات .. إلخ .. بدخولها إلي مسرح انتباهنا إنما هي تعبير عن اتساع عالمنا ، عالم الأحداث ، هذا الذي وإن كانت أخبارنا ضمنه رسمية في بعض جوانبها .. إلا أنها ما تزال مع ذلك تتسم بالنقص والغموض . هذا إلي أن حاجتنا الانفعالية والمعرفية ، ورغم المخترعات الحديثة ، لا تختلف عنها عند أسلافنا ، وإننا لا نزال مثلهم جد بعيدين عن إقامة تفسير متين للأسرار السحيقة في حياتنا الشخصية . ومن هنا فغالباً ما نعتمد مثلهم علي الأسطورة .

الإشاعة والأسطورة :

يمكن النظر إلي الأسطورة بوصفها « إشاعة مجمدة » وعلي وجه الدقة ، فإن الأسطورة قطعة من أقاويل ، تتميز بقدرة غير عادية علي المقاومة ، قطعة قد توقفت بعد تاريخ من التحريفات والتبديلات ، عن أن تتغير في انتقالها عبر الأجيال . وكما يقول لابيير وفارنزورث La Pierre & Farnsworth ، إن الأسطورة هي : « إشاعة استحلت جزءاً من التراث الشفوي لشعب ما » . ومن الناحية اللغوية كثيراً ما يستخدم اللفظان ، كل مكان الآخر .

وكيما تستحيل الإشاعة إلي أسطورة يتحتم أن يتسم موضوعها « بالأهمية » بالنسبة للأجيال المتعاقبة . وإن الموضوعات المتعلقة بنشأة قومية من القوميات ، أو بالكرامة القومية فهي من هذا القبيل ، وكذلك الحال بالنسبة للموضوعات المتعلقة

بالميلاد والزواج والموت . بل إن كل ما يمكن أن تكون له دلالة طاغية فى عموميتها يصبح جزءاً من فنوننا الشعبية (فولكلور) .

والأساطير يمكن أيضاً أن تستمر فى البقاء بفضل ما يكون لها من قدرة على تصوير الخصائص الإنسانية فى صورتها المطلقة .. فعزف نيرون والمدينة تحترق ليس بشيء يختص به وحده وإنما يميز كل الناس من أمثاله . وقد حاقت اللعنة بسفوس فكتب عليه أن يدفع حجراً هائلاً إلى أعلى التل، لا لشيء إلا ليراه المرة تلو المرة وهو يهوى إلى القاع ، وتصديق الأسطورة اليوم على البائسين من الأحياء ممن يعانون فيما يبدو المصير نفسه . ووردة عيد الميلاد تتفتح بحسب الأسطورة ، رغماً عن الثلج والجليد ، فى منتصف ليلة عيد الميلاد، ببلاد الشمال ، مما يترجم عن الفرحة القائمة بالضرورة فى قلوب الناس فى تلك الآونة .

وهكذا يتصل بقاء الأساطير؛ لأنها تجسد حقائق أبدية عن العقل البشرى؛ فالأساطير تتيح إجابات عن الألغاز الدائمة للحياة ، أو أنها تتيح تعبيراً دقيقاً ، وإن يكن مجازياً عن خبايا المشاعر البشرية العميقة . فبفضل الأساطير ، تكتسى الحياة - بحسب تعبير كمبال ينج - دلالة ، فلا تتطلب منا صياغة متجددة .

ويضيف ينج أن النسيج الذى تمدنا به الأسطورة يتيح لنا مشاعر الأمن فى ظل من اتصال أيديولوجياتنا وثباتها . وأساطير الجبروت عند أهل الشمال تتيح للسامع مشاعر الاستقرار ، والاعتزاز بالأجداد الأولين ، ناهيك عن تفسير لمشكلات الكون ترضى عنه النفس ؛ فهذه الأساطير - ككل الأساطير - إنما هى أدوات تفسير نافعة للإنسان خلال حياته القصيرة الغامضة على الأرض .

وتعرف الأساطير التى تتناول القوى الرئيسية ، والكون ، والمعتقدات الدينية «بالمثيولوجيا» . وهذه الأساطير إذ تنطوى على جانب كبير من فلسفة الحياة التى يعتنقها أفراد جماعة ثقافية واحدة ، فإنها تتميز بصفة خاصة بالقدرة على مقاومة التغير . فإنه وإن تكن هناك أشكال مختلفة لقصة الخليفة .. فإن هناك - مع ذلك - حقبة زمنية أقصر ، تتميز بإشاعاتها العابرة التى تبدو كأنها قد اصطنعت بصورة مؤقتة لتروى غلة الإنسان لتعرف الحقيقة ، وشره إلى الاعتقاد . وكل هذه الإشاعات غالباً ما تنشأ متصلة بنهاية وشيكة للعالم ، أو بمعجزة من معجزات الشفاء فى أحد المزارات ، أو بأشياء تظهر فى السماء . وإننا لنذكر قصة ، الملاك الذى ظهر فى السماء أثناء الحرب العالمية الأولى فوق خنادق فاندرز .

الدلالة المجازية للإشاعة والأسطورة :

إن شكل التعبير في كل من الأسطورة والإشاعة بسيط وإيضاحي : « فقدت سفينة مع ألف من الأنفس » . قال واشنطن : « إنى أبتريها ببيلطى الصغيرة » (ثور Thor يقذف بمطرقة فيكون الرعد) ، مثل هذه الأقوال تقدم على أنها تقرير لوقائع (بمعنى أنها قضايا للتصديق والاعتقاد كمرجع في الموضوع) .

وعليه .. فإننا حين نتحدث عما تنطوى عليه الإشاعة من « لى » ، وعن الكيفية التى تنحرف فيها عن صورتها الأصلية ، فإنما نستخدم معياراً حرفياً .. إننا نحكم على المضمون بمقارنته بالوقائع الموضوعية ، « بالمثير المعيارى » .

ولكن هل تدعى الإشاعة « بالفعل » ، إنها تبينية وإعلامية ؟ إن شكل إعلامياتها يجعلها تبدو كذلك . ومع ذلك فإن النظرة الفاحصة تكشف عن أن شكل التعبير ، فى كل من الأساطير والإشاعات ، ينطوى فى الغالب على دلالة خفية .. إنه « يقول » ، أكثر مما يبدو للنظرة السطحية إنه يقول ، ومن الممكن أن تكون الدلالة المتخفية هى الأكثر أهمية ، والأكثر صدقاً . فلو أننى أشرت إلى أن اليهود يملكون « وول ستريت » ، أو أنهم يهربون من الخدمة العسكرية ، أو أنهم يحصلون على الأعمال المريحة فى الجيش ، فإننى على الرغم من الظاهر لا أقصد إلى أن أعلمك بالوقائع بقدر أن أنبهك إلى انعدام ثقتى فى اليهود .. فإننى فى قرارة نفسى أقوم بعملية تقويم . وفى وسع موريس Morris أن يصف أقوالى بأنها « تقويمات شاعرية » ، وإنى حين أردد تقويمات الثقافة بحكايتى لأسطورة الخليفة ، أو لأسطورة بطل قومى ، أو لأسطورة عن الحياة الآخرة ، فإننى مرة أخرى لا أتحدث بطريقة تبينية أو إعلامية ، ولكن بطريقة مثنولوجية تقويمية .

وبقدر ما تدعى الإشاعات أنها إعلامية - تبينية ، فإنها دائماً ما تكون فى جانب منها على الأقل مخطئة . ولما كان ادعاء الإشاعات هذا قائماً على الدوام ، فإنها أقوال خادعة دائماً أبداً . ولكن بقدر ما نفهم الإشاعات على أنها « تقويمية ، appraisive » ، فإنها تعبر فى دقة عن الحالة العقلية لقائلها .

وكلما تطورت الإشاعات أكثر فأكثر إلى صورة الأقوال « المأثورة » ، أو إلى صورة الأساطير ، ازداد حظها من هذا الطابع التقويمى أو المجازى .. فالقول بأن « النعامة تدفن رأسها فى الرمال » ، هو خرافة كاذبة من الزاوية الإعلامية .. التبينية . فالنعامة فى الواقع لا تفعل ذلك . ولكنه صحيح مع ذلك أن الكثير من الآدميين ، ممن ينطبق عليهم هذا المثل ، يخفون أعينهم عن الخطر المقرب . والقول بأن الأسكا

منطقة دائمة البرودة خاطيء في الواقع . ولكنني حين أريد التعبير عن حالة عقلية بعينها بتشبيه ملائم ، فلن تعوقني «خطوط الحرارة المتساوية» . وإنما أعلن دون خجل : «برودة ... كالأسكا» .

وهكذا فالإشاعات والأساطير تنطوي على دلالة ، التعبيرية ، كبيرة ولا ينبغي أن نحكم عليها فحسب وكأنها مجرد هذه العبارات الإعلامية التي تبدو عليها ، وإنما أيضاً على أنها عبارات ، تقويمية ، فإذا ما رغب الشخص في استخدام «المأثرات» ، الإشاعية ، فلم لا يفعل ؟

وتنشأ المشكلة الاجتماعية للإشاعة من هذه الحقيقة ، وهي أن المستمع لا يتلقاها في العادة من زاوية المقاصد ، التقويمية ، للمتحدث ، وإنما بالحرى على أنها تعبير «تبييني» عن الواقع . ومع أن المتحدث يكشف عن وحدة انفعالية معرفية وقد أساغ ضمنها حادثة أو خبراً ، فإن المستمع ، حين لا يكون حذراً ، يأخذ العبارة على أنها نقل لواقعة يمكن التحقق من صحتها . والمستمع بذلك يخلط ما بين الدلالة التعبيرية والدلالة الموضوعية . ويتطلب الأمر قدراً كبيراً من الاستبصار ؛ حتى ينصت الشخص إلى عبارات الإشاعة في اهتمام وحذر معتزجين بالمقادير اللازمة .

تصنيف الإشاعات :

حيث إن علاقاتنا الاجتماعية مفعمة بالإشاعات والأساطير .. فإنه يحق لنا أن نتساءل عما إن كان هناك أي مبدأ للتصنيف نستطيع بمقتضاه أن نرتبها . أم ترى أن «القضايا ذات الموضوعات المحلية المهمة والمتاحة للاعتقاد» تعلو على الحصر بحيث تصبح مهمة التصنيف مستحيلة تماماً ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الأسئلة المماثلة المتعلقة بترتيب الظواهر الاجتماعية والنفسية ، إنما هي مسألة تتوقف على اهتمامات القائم بالتحليل ، وحين ينصب الاهتمام على أعراض خاصة ومحدودة ، يكون جد ميسور أن نصنف في فئات الإشاعات السائدة في فترة بعينها ، على افتراض أننا قد حصلنا على مجموعة كافية منها . وعلى أية حال فلا يمكننا أن ننعت بالصدق المطلق طريقة بعينها فحسب من بين طرائق الفرز . فمن الممكن أن ينصب اهتمام أحد الباحثين على :

(أ) سرعة انتشار الإشاعة ، أو زمن دورتها ، أو أي جانب آخر من جوانبها الزمنية .

(ب) الموضوع التى تدور حوله الأقصوصة .

(ج) الحالات العقلية والدوافع المحتملة التى تكمن وراء تيارها الدافق .

(د) الآثار الاجتماعية المترتبة على الإشاعة ، وبيلة هى أم مفيدة أم حيادية .

ومن الممكن لباحثين آخرين أن يستندوا إلى فئات أخرى ، فى محاولة للتمييز ما بين :

(هـ) الإشاعات القديمة .

(و) الإشاعات المحتملة الصدق وغير المحتملة الصدق .

(ز) الأفاصيص الطويلة الأمد والأفاصيص القصيرة الأمد .

وهكذا يمكن تقطيع الإشاعات إلى شرائح بطرائق جد مختلفة . وسوف نوضح هنا المبادئ الثلاثة الأولى من بين مبادئ التصنيف الآتية الذكر :

(أ) أما المعيار ، الزمنى ، فقد استخدمه عالم روسى من علماء الاجتماع ، هو بايسو Bysew . فهناك أولاً بحسب رأيه الإشاعة ، الحابية ، تنمو ببطء ويتسع انتشارها فى جو من السرية ، حتى يكاد أن يسمع بها كل فرد .

وهناك إشاعات ذات طبيعة ، اندفاعية ، فهى تنتشر انتشار اللهب ؛ لأنها تتعلق بوعيد أو بوعد مباشر .. إنها تجتاح المجتمع فى وقت مذهب فى القصر ، وتنطوى على إشاعات العنف ، أو إشاعات الحوادث ، أو الكوارث أو النصر الحاسم فى وقت الحرب . والإشاعات من هذا الصنف إذ تنطلق فى جو مكهرب للغاية .. فإنها تميل إلى إثارة استجابات سريعة وعنيفة ؛ لاستنادها إلى انفعالات قوية من الهلع أو الغضب أو الفرحة المفاجئة .

وأخيراً نجد فى قائمة بايسو الشاعرية ، الإشاعات الغاطسة ، .. إنها إشاعات تنتشر برهة ، ثم « تغطس » ، إن جاز القول - ربما تعود فتطفو من جديد فى وقت لاحق ، حين تسمح الظروف . وعلى الرغم مما هناك من اختلافات سيكولوجية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، فإننا لا نجد بينهما من فارق من زاوية الإشاعات ، فأفاصيص ما بين عامى ١٩١٤ ، ١٩١٨ قد بدت وكأنها قد ظلت غائصة حتى أتاحت لها انفعالات القلق فيما بين عامى ١٩٣٩ و ١٩٤٥ أن تنجذب إلى السطح من جديد . ومن قبيل ذلك إشاعة ، طابع البريد ، واللسان المقطوع .

ومؤداها أن أسير حرب أمريكي (في معسكر ألماني في الحرب العالمية الأولى، وفي معسكر ياباني في الحرب العالمية الثانية) بعث بخطاب إلى أسرته ، لا ينطوي على أية أخبار تستلفت الانتباه اللهم إلا ما يطلبه إليهم من احتفاظ بطابع البريد المصق على الخطاب . وحيث إن هذا الجندي لم يكن يوماً من هواة جمع الطوابع فقد اندهشت الأسرة لطلبه وحاولت أن تجتلي الأمر . ولم تكد الأسرة تنزع طابع البريد حتى قرأت على الظرف في موقع الطابع ما يعلنهم بأن حراس المعسكر قد قطعوا لسانه . ولقد انتشرت هذه الأقصوصة البعيدة الاحتمال خلال الحربين ، على الرغم من تناقضها تناقضاً تاماً مع حقيقتين : فخطابات أسرى الحرب ليست عليها طوابع بريد ، وقطع اللسان يكاد يؤدي بصورة أكيدة إلى النزيف حتى الموت ، مالم تتوافر عناية من إخصائي في الجراحة .

وهذه ، الإشاعات الغاطسة ، يمكن تفسيرها بطريقتين : فمن المحتمل أن ترقد في حالة سبات في عقول بعض الأفراد ، حتى يستخرجوها بعد سنوات ، وربما يتم ذلك دون تنبه منهم ، عندما يجدون أنفسهم في موقف بيئي مشابه لهذا الذي سمعوا فيه الإشاعة أول مرة . ومن المحتمل أن لا يكون هنالك أى اتصال حقيقى بين الإشاعتين .. فمن الممكن جداً أن تتمخض الحاجات البشرية في الظروف المتشابهة عن توليد أقاصيص متماثلة . وعلى سبيل المثال فإنه من المعقول أن يبدو تسميم الآبار تهديداً محتمل الوقوع من جانب عملاء العدو ، وفي أى وقت من أوقات الحروب . والناس القلقون الذين يعتمدون اعتماداً كلياً على مصدر واحد محدود للمياه ، ينساقون بسهولة إلى إبراز ، و ، تضخيم ، مخاوفهم ، دون أن ينتبهوا إلى أنهم في ذلك إنما يعيدون تمثيل صفحة مألوفة في تاريخ الإشاعة .

(ب) وتحليل الإشاعات من زاوية الموضوع الذى تدور حوله إنما يعد مبدءاً آخر للتصنيف . وفي هذه الحالة تنحصر مهمة الباحث في إحصاء عدد الإشاعات التى تتناول موضوعاً من الموضوعات .. ففي الأحوال العادية يمكن أن نبحث على سبيل المثال عن نسبة الأقاصيص التى تتناول المسائل السياسية ، والأمراض ، والنواحي الجنسية ، والسياسية الخارجية ، وجماعات الأقليات .

وتصنيف الإشاعات بالرجوع إلى الدوافع الأساسية هو فيما يبدو أيسر بكثير وقت الحرب منه وقت السلم . ولكن حتى بالنسبة إلى وقت الحرب فإن القسمة الثلاثية ، كراهية - خوف - رغبة ، تعد تبسيطاً مسرفاً .. ففي الواقع يمكن ، لإشاعة خوف ، (تتعلق مثلاً بفظائع العدو) أن تنطوي على عناصر من الاهتمامات الجنسية ، أو حب المغامرة ، أو على عناصر سائدة من مشاعر التفوق الخلقى . وشبكة الدوافع التي ترد إليها الإشاعة إنما هي مسألة شخصية ، وإذا أردنا أن نتبين العلة في أن شخصاً بعينه يجذب إلى إشاعة بعينها ، فإن ذلك يتطلب دراسة كلينيكية لذلك الشخص . وبالنظر إلى شدة تباين الخلطات الدوافعية ، أو امتزاجات الدوافع التي يمكن أن تغذى إشاعة بعينها ، فإن أى تصنيف سيكولوجى مقضى عليه بأن يكون مسرف التبسيط ، وتقريباً .

جماهير الإشاعة :

لكل إشاعة جمهورها .. فالإشاعات المالية تنتشر بصورة أساسية بين هؤلاء الذين يمكن لثرواتهم أن تتأثر بارتفاع وانخفاض الأسعار فى الأسواق ، والإشاعات المتصلة بتعديلات فى قانون التجنيد ، أو فى ضرائب الدخل أو المتعلقة بخطط التطوير العمرانى ، إنما تنتشر بصورة خاصة بين الناس الذين يحتمل أن يتأثروا بها . وتلاميذ المدارس ، وكلهم تطلع إلى الأجازات ، يتلقفون فى خفة أى خبر يتصل بمؤثر وشيك للمدرسين ، أو يتصل بتوصيليات ضرورية فى مبنى المدرسة . والجماعات المهنية والاجتماعية المختلفة تنطوي كلها على مناطق حساسة خاصة .. والأطباء ، ورجال الدين ، ورجال الطيران ، سماسرة الأحزاب ، لا يتوانون عن دفع عجلة الأقاصيص التى تدور حول المصالح الخاصة بجماعتهم .. كذلك الحال بالنسبة إلى أندية الشراب ، وجماعات البريدج ، وحلقات الصداقة ، فثمة جمهور إشاعة حينما تتوافر مصلحة مشتركة .

وانفتاح الشخص للإيحاء معناه أن يصدق دعوى ، دون توافر لأى دليل مما يمكن للمنطق أن يتطلب . وبعض الناس قد اعتادوا التمحيص النقدي لكل ما يسمعون .. إنهم بفضل تدريبهم على تحليل المعانى ، أو ممارستهم لعلم النفس الاجتماعى ، أو لغير ذلك من الأسباب التى تطبع التفكير بالصبغة النقدية ، ينتظرون الدليل الذى يمكن التعويل عليه .

والأشخاص المنفتحون للإيحاء هم - من ناحية أخرى - أشخاص تتميز عقلياتهم إما بفقر البنية ، وإما بما تغص به من أنماط وتراكيب أو عقد جد جامدة .

والجماعة الأولى ، أصحاب العقليات الفقيرة البنية ، تضم كثرة من أنصاف المتعلمين ، فالأحداث في المجالين الفيزيائي والاجتماعي هي بالنسبة إليهم ألغاز ، والعلم بالنسبة إليهم أرض مجهولة . ولقد تبين كانتريل Cantril أن عدداً كبيراً من بين الذين ارتجفوا أمام الغزو الوهمي للأرض من جانب سكان المريخ ، مما جاء في التمثيلية الخيالية المذاعة لأورسن ويلز ، إنما كانوا أشخاصاً بلبهم الاضطراب السائد في أوروبا ، أو الهبوط الاقتصادي ، أو التقدم المروع للعلم ، بحيث اعتقدوا ، أن كل شيء جائز الحدوث ، . لقد كانت معلوماتهم من الفقر بحيث لم يفكروا في تبين صحة الإذاعة بالرجوع إلى البرامج في صحف الصباح ، أو بتغيير المحطة ، أو بالتحقق من صحة الأمر بأية طريقة بسيطة أخرى .. لقد أفسحوا الطريق أمام الهلع ، لخلو عملياتهم العقلية من ، المراسي ، النقدية . وثمة شرط إضافي ، هو أكثر الشروط وضوحاً ، يتحتم تحققه كيما تسرى الإشاعة ؛ فالأشخاص أصحاب الحساسية للإشاعة ينبغي أن يكونوا على صلة بعضهم البعض . ومثل هذه الجماعات الملتحمة الأفراد ، من قبيل طاقم البحارة على السفينة ، وأفراد الوحدة المقاتلة ، والمستخدمين في مؤسسة واحدة ، وأعضاء نادى الجمعة ، للبريدج ، وسكان المدينة الصغيرة ، كلها تتسم بالتجانس المطلوب والاتصالات الوفيرة ؛ ففي هذه الجماعات تندفع الإشاعات مسرعة .

حملات الهمس :

رأينا كيف أن المشاعر القوية يمكن أن تعين شرارة الإشاعة على أن تقفز الهوة التي تفصل ما بين الغرباء ، ولهذا السبب نجد في وقت الحرب ، وفي حالات الكوارث ، وفي فترة الانتخابات ، إن الإشاعات غالباً ما تفيض بها مساربها الطبيعية . وحيث إن هذه الإشاعات تكون في الغالب فاقعة اللون ، فاضحة بذينة ، فإنها تنتقل بصورة صريحة أو مجازية عبر الهمسات .

ولما كانت المسائل السياسية مجالاً للمشاعر القوية بالنسبة لكثير من الناس ، فإننا نستطيع في الغالب أن نؤكد قيام حملات الهمس ، حول المرشحين للانتخابات . ويقدر ما تكون الكراهية عميقة بإزاء أحد المرشحين ، تتسع جبهة الإشاعات التي تهاجم دوافعه ، وحياته الماضية ، وأسراره الحميمة ، ونواياه المقبلة .

الإشاعة المعنونة (المعروفة كإشاعة) :

ما الأثر الذي ينتج عندما نخبر الناس بأن ما يسمونه هو مجرد إشاعة ؟ ثمة تجربتان تلقيان الضوء على هذا السؤال ، وتكشفان بجلاء عن أن جمهورنا لم يصبح بعد (متنبهاً للإشاعة) .

قدم كيركباتريك Kirkpatrick إلى طلابه الذين أجرى عليهم التجربة مجموعات من العبارات الإخبارية ، التي زعم أنها مقتطفات من الحياة اليومية .

صدرت نصف هذه العبارات بالتعبير ، يشاع أن ، بينما تم تقديم النصف الآخر على أنه أخبار مباشرة .. كانت جميع العبارات وهمية . ولقد كشف تحليل تقديرات التصديق ، هذه التي قدمها الطلبة ، عن أن التعبير التحذيري ، يشاع أن ، لم يكن له تقريباً أية فاعلية في إعاقة التصديق .

وفي وقت قريب ، أستخدم ج - هـ . سميث Smith مجموعة من العبارات الإخبارية الوهمية ، بعضها مناصر وبعضها مناهض للاتحاد السوفيتي . وكان الأشخاص الذين أجريت عليهم التجربة طلبة ، تم قياس اتجاهاتهم إزاء روسيا بواسطة سلم اتجاهات . ولقد قدمت العبارات الإخبارية تحت عناوين ثلاثة مختلفة ، فقدم بعضها على أنه ، وقائع أكيدة ، وبعضها على أنه ، إشاعات ، لم يتم التثبت من صحتها بعد ، والبعض الأخير بغير عنوان على الإطلاق ، وقد سجل الطلبة درجة تصديقهم أو عدم تصديقهم للعبارات على سلم يتراوح ما بين الرفض والقبول المطلق .

وتدل نتائج سميث على أن العبارات المعنونة ، وقائع ، كانت تلقى التصديق في سهولة أعظم ، بينما لقيت العبارات المعنونة ، إشاعات ، أقل التصديق ، أما العبارات غير المعنونة فقد احتلت مكاناً وسطاً ، وعلى أية حال .. فإن العبارات غير المعنونة ، وقائع ، كانت أكثر فاعلية في توجيه التصديق بأكثر مما كانت العبارات المعنونة ، إشاعات ، في إعاقة التصديق . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن العبارات المعنونة ، إشاعة ، كانت تشبه في نتائجها العبارات غير المعنونة على الإطلاق . فعنونة العبارة على أنها ، واقعة ، إنما تكسبها امتيازاً يولد تقبلاً واضحاً ، أما عنونة العبارة على أنها إشاعة فذلك لا يعدو أن يضعها ضمن فئة الأحاديث غير المحددة ، فالناس نادراً ما يديرون رؤوسهم في خجل أمام النعوت والصفات في العناوين ، فعندما يسمع السامع شيئاً يحمل عنوان ، الوقائع ، فإنه يبدو وكأنه يقول لنفسه : «واقعة! الوقائع صحيحة ، يتحتم على تصديقها ، أما عندما يسمع شيئاً بعنوان ، إشاعة ، فإنه يتردد لحظة قبل أن ينتهي إلى القول : « حسناً ، فالإشاعات يمكن أن تكون صحيحة ، .

وإذا كان لديه استعداد سابق لتقبل العبارة ، فإنه يتيح لها أن تفيد من احتمال الصدق . في هذه التجارب يبدو الاتجاه القائم من قبل أكثر أهمية من أي ، عنوان ، ؛ لأنه تحت مختلف الظروف التي أجريت فيها تجربة سميث ، كانت الدرجات على

«سلم التصديق ، مسايرة بصورة إيجابية للدرجات على ، سلم الاتجاهات ، فالأشخاص المناصرون لروسيا هم أكثر ميلاً إلى تصديق سياق الوقائع أو الإشاعات التي في صالح روسيا . أما الأشخاص المعادون للاتحاد السوفيتي فهم أكثر ميلاً لتصديق سياق الوقائع أو الإشاعات التي في غير صالح روسيا .

وعدم الفاعلية النسبية للعنونة ، إشاعة ، ينطوى على اعتبارات عملية مهمة ؛ فذلك يعنى أننا لا نستطيع قتل الإشاعات بمجرد وصفها بالعنوان ، إشاعة ، .. فإن الأمر يتطلب طرائق أكثر جدية للدحض ، تتضمن استثارة دافع الوطنية أو مشاعر الخزي عند الأشخاص ، وربما توعية بأساسيات سيكولوجية الإشاعة . ولقد كانت هذه الطرائق هي التي لجأت إليها عيادات الإشاعة ، وجدير بالأهمية أن ننتبه أيضاً إلى أن العنونة ، وقائع ، تستثير تبجيلاً وإيجابية عند السامع . والإخصائيون في الإعلان ممن يستخدمون على نطاق واسع التقريظات شبه العلمية يعرفون ، ولا شك في هذا الاستعداد عند الناس ، ولكن لسوء الحظ أن ، الرمز ، وحده هو الذي يستثير التصديق ، فليس كل ما يحمل الرمز ، وقائع ، يرتفع في حقيقته إلى مستوى عنوانه .

وكيما تكسب الإشاعات لنفسها التصديق ، فإنها غالباً ما تتقنع في صورة الوقائع أو تنتسب إلى جهات رسمية عليا لتسند دعواها . وكثير من الإشاعات ما يبدأ : « كان أخى يتحدث مع واحد من الذين في الصورة ، ، أو ، كان رئيس المباحث نفسه يؤكد ، أو ، سمعت ذلك من أعظم مصدر مسئول ، وثمة طرائق أخرى ، من قبيل تحديد أسماء المدن أو الشوارع التي تدعى الإشاعة أن الحادثة وقعت فيها ، تعيين على إسباغ صحة زائفة . فالتحديد العياني لمكان حادثة ما يتضمن - فيما يبدو - أن الحادثة لا بد وأن تكون قد وقعت .

الإشاعة والشغب :

إن جراثيم الإشاعة إنما هي أبداً حية نشيطة ضمن الكيان الاجتماعي . وهي أحياناً ما تتحرك حركة بظيئة وبصورة غير سامة ، وهي أحياناً أخرى ما تتفجر عنيفة في صورة الحمى ، ومن سوء الحظ أن الحمى تشتعل في أخطر صورها عندما يكون الكيان العضوى أقل ما يمكن قدرة على احتمال خسائرها ، فالحروب والاضطرابات والأوبئة والكوارث ، وكلها مدمرة بذاتها .. إنما تصبح أكثر تدميراً عندما تضاف إليها مضاعفات الإشاعات .

وتكشف الاضطرابات الخطيرة عن الصلة الوثيقة بين حركات الشغب والإشاعات . وليست هناك حالة واحدة يمكن أن تدعى فيما يتعلق بها ، بأن التقولات

كانت هي العلة الوحيدة أو الأصلية للشغب ، ولكنها مع ذلك تلعب فيما يبدو دوراً مساعداً مهماً على الدوام . والحق هو أن الأدلة التي تملكها على ذلك لهي من قوة الإقناع ؛ بحيث نستطيع أن نجعل من هذه الحقيقة قانوناً من قوانين علم النفس الاجتماعي ، مؤداه أن ، ليس هناك من شغب يمكن أن يحدث بغير إشاعات تستثير العنف وتصاحبه وتغذيه ، ، ويمكننا أن نميز في العادة أربع مراحل في هذه العملية :

١ - تسود لفترة من الوقت قبل الانفجار مهمات عدم ارتياح . وهذه المهمات يمكن أن تتخذ صورة أقاصيص تصور التفرقة العنصرية ، أو الإهانات ، أو أفعال السوء مما تنسبه الجماعة إلى خصومها . وفي هذه المرحلة لا يختلف مجرى الإشاعات عن المجرى العادي للأقاصيص العدائية والمنطوية على الاتهام .. فإنها تبدو للسامع شبيهة بالافتراءات اليومية المتعلقة بالمسالك المعيبة للزواج أو اليهود ، أو بجشع الموظفين .

٢ - وتتضح إشارة الخطر حين تتخذ الإشاعات صورة نوعية مهددة : « سيقع أمر الليلة عند النهر ، ، لا يفوتك أن تحضر إلى الملعب لترى المهزلة عقب المباراة ، .

٣ - وغالباً ، وإن لم يكن ذلك هو الحال دائماً ، ما تكون الشرارة التي تشعل برميل البارود هي نفسها إشاعة ملتهبة .

٤ - وحين يحمى وطيس الاضطراب تنطلق الإشاعات وتجري أسرع ما يمكن . ولكن في هذه المرحلة الجنونية تكشف خصائص الإشاعة عن تعصب حاد ، فأحياناً ما تكون الإشاعات هلوسية ؛ فحوادث التعذيب والاعتصاب والقتل تتردد في صور هاذية ، وكأنها تهدف إلى تبرير العنف الوشيك وإلى التعجيل بالانتقام .

خلاصة :

من مختلف أقسام هذا الفصل أخذ يبرز بالتدريج أن الإشاعة تستقر في الأنسجة العميقة من الكيان الاجتماعي ، فجانِب كبير من التاريخ كما أوضحناه ، إنما تحدد عن طريق استجابات الناس للتقولات ، كما أن كثيراً من معتقدات الناس إنما هي نتاج خرافات وأساطير ممعنة في القدم .

والخاصية الخداعة للإشاعة تكمن في أنه على الرغم من أنها تقويمية ودوافعية في دلالتها ، إلا أنها عادة ما تتنكر وكأنها معلومات موضوعية ، وفي الحقيقة إن وظائفها التعبيرية وهي المتخفية علينا ، لأهم بكثير من وظائفها الإعلامية المزعومة .

وإذا ما حاولنا تصنيف الإشاعات لتبيننا أن ميوعتها ترجع بعض الشيء إلى ما تنطوى عليه من انصهار الانفعالات ومشاعر النفور ضمن شبكة ثرية معقدة .. أما الدلالة الوظيفية للإشاعات في الحياة الاجتماعية ، فيمكن سبرها فحسب عن طريق استجلاء الطبقات العميقة للشخصية ، وتبين « اقتصاديات ، الطاقة العقلية عند الفرد . وبعض الجماهير الكبيرة تعد متاحة لأنواع معينة من التقولات ، وتتوقف سلاسل الإشاعة على القابلية للإيحاء عند الأفراد . وحين يبلغ الهياج درجة عالية من الشدة يأخذ في التزايد عدد الأفراد المندمجين في السلسلة ، والحروب والاضطرابات ، والانتخابات كلها تعمل على توليد النمط الخبيث من الإشاعات المفتحة المعروفة باسم حملات الهمس . وفي السنوات الأخيرة تبينا الصلة الوثيقة ما بين الإشاعات والاضطرابات ، ومن المؤكد أنه من أجل الهيمنة على الاضطرابات لابد من إيقاف الإشاعات .

وحيث إن الناس لا يتعرفون في العادة الإشاعة عندما يسمعونها ، وحيث إنهم نادراً ما يكفون عن تصديقها لمجرد أنها « معنوية ، بوضوح ، فلا مناص من أن نخلص إلى القول بأن الجماهرة مازالت بعيدة عن أن تكون متنبهة للإشاعة ، فالجماهرة لم تحقق غير القليل من المناعة ، أو لم تحقق أى مناعة على الإطلاق .

وليس من المنتظر أن تقل أهمية التقولات في المجتمع مالم تتحقق شروط عديدة لا يحتمل في الواقع تحققها ؛ فناشر الأخبار ينبغي عليه أن يصبح أكثر دقة ، وأن يحقق قدراً أكبر مما يحققه الآن من نفاذ إلى عقول السامعين . والأشخاص الذين يتطلعون إلى تأويل للعالم الذي يعيشون فيه ينبغي أن تتاح لهم تفسيرات أكثر إرضاء مما يتاح لهم الآن . وينبغي أن تتضاءل مشاعر العدائية والخوف والرغبة مما يتطلب التبرير والتنقيص الخيالي ، وأخيراً ينبغي العثور على وسيلة لتقويم ديناميات القوى ، التي تصيب جميع عمليات الحفظ والاستدعاء كائناً ما كان حرص الناقل على الدقة .

وحيث إن هذه الشروط لا ينتظر أن تتحقق في المستقبل المرتقب ، فعلى كل فرد يرغب في أن يحقق لنفسه مناعة ضد الإشاعة أن يتعمق ما استطاع الأوجه السيكولوجية والاجتماعية للظاهرة ، وأن يزيد بالممارسة المتصلة من مهارته في أن يكشف ويحلل القسط اليومي من التقولات التي تبلغ أذنيه المرهفتين .

الفصل الثامن

- * اغتراب الشباب
- * قياس الاغتراب
- * الشباب وأزمة التطرف

أزمات الشباب

الفصل الثامن

في معنى الاغتراب

الاجتراب خاصية وجودية مميزة للإنسان بما هو إنسان ، قديمة قدم الإنسان نفسه ، فهو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن ينفصل عن نفسه ، وقد ينفصل عن مجتمعه أو عالمه أو الله ، وقد يعيش الإنسان الاجتراب ويكابه بصفته جزءاً من حياته ، ومكوناً من مكوناته النفسية والاجتماعية والوجودية دون أن يعي أنه مغترب ، وأنه منفصل عن ذاته ، أو عن مجتمعه أو عن الله .

وعلى الرغم من الاستخدامات المتعددة لعلماء اللاهوت المسيحي للاجتراب على نحو يفيد الابتعاد عن الله ، وتجنب الصراط المستقيم ، وأيضاً استخدامات بعض الفلاسفة وبخاصة هيجل (١٨٠٧) ، ومن بعده ماركس (١٨٤٤) وغيرهما من الفلاسفة والمفكرين ، فإن الاجتراب كسمة ، مميزة للإنسان ، كامنة ومتأصلة في وجوده ، وكحالة ، تظهر من خلال ما يعانيه ويكابه من مواقف نفسية واجتماعية ووجودية .. هذا الاجتراب ظل بعيداً إلى - حد كبير - عن دائرة الدراسة العلمية لمعناه ، ومجالات انتشاره ، وأبعاده ومصاحباته النفسية والاجتماعية والوجودية .

وقد فجر الوعي بالاجتراب ، المتناقضات الشديدة التي تجتاح هذا العصر ، والتي حيرت الفلاسفة والعلماء والمفكرين في وضع تسمية تميز هذا العصر أسوة بعصور سلفت ، هل هو عصر العلم والتكنولوجيا ؟ أم عصر الذرة والرعب النووي ، والصقيع النووي ، ، والليزر ، في أفلاك السماء ؟ هل هو عصر الرجل العادي ، ؟ أم عصر الأغلبية الجماهيرية التي لا رد لها ولا دافع لحركتها ومديرها ؟ هل هو عصر الأيديولوجيات الكبرى ، والقوميات الكبرى التي ترفض كل ما عداها من أيديولوجيات وقوميات ؟ أم عصر الديمقراطيات المختلفة في مواجهة الحزب الواحد ، والرأى الواحد ، والتنظيم الواحد ، والجماعة الواحدة ؟ أم عصر العقائد والديانات المتصارعة .. الكاثوليك والبروتستانت ، السنة والشيعية ، السيخ والهندوس ؟ أم عصر الاجتراب والقلق والوحدة وسط الملايين ؟؟

وقد يرجع هذا الاختلاف في وضع تسمية تميز هذا العصر إلى أنه عصر يتشكل من خلال فتوحات علمية مذهلة ، ومخاطر كبرى تتربص بالإنسان فهناك ثورات علمية في وسائل المواصلات ، ووسائل الاتصال ، ووسائل الإنتاج وعلاقات

الانتاج ، وهناك طاقات نووية خبيثة ومتحفزة في باطن الأرض وفي أعماق المحيطات ، وفوق أفلاك السماء ؟ .. وهناك بيئة طبيعية مهددة بالتلوث أو الفناء وهناك خوف وفقدان أمن ومشاعر اغتراب ملازمة للإنسان ومحاولات «دفاعية» ضد شعور لا يطاق بالخوف وفقدان الأمن تمثلت في الخروج من الأرض بجاذبيتها إلى كواكب السماء .

وقد وضعت هذه الثورات العلمية المتسارعة - كما يقول توفلر (١٩٧٤) نهاية لعصر الثبات - حيث العصور التي مضت ، والتي كان فيها التقدم يسير موازياً لجميع إمكانات الإنسان على التكيف والاحتمال والاستيعاب - وبداية لعصر جديد ، أشبه ما يكون بقمة سريعة التذبذب ، (ص ١٥) ؛ حيث اللاتبات وعدم الاستقرار ، وحيث يتغير كل شيء ، حتى الجذور الثابتة والرموز الحية في ضمير الإنسان : الدين ، والأمة ، والمجتمع والأسرة والمهنة تهتز الآن بقوة تحت التأثير العاصف لدفعة التغير المتسارعة (ص ٣٦) .. «فالتغير المتسارع لا يقرع أبواب الصناعات والشعوب فحسب، بل يتغلغل في أعماق حياتنا الشخصية ويرغمنا على أن نلعب أدواراً جديدة ويواجهنا بأخطار اضطراب نفسى جديد ، عنيف ومدمر ، وهذا الاضطراب يمكن تسميته «صدمة المستقبل» (توفلر ، ١٩٧٤ ، ص ١٠) .

وقد جعلت ثورة وسائل الاتصال والمواصلات العالم بمثابة « قرية تكنولوجية واحدة » ؛ حيث يبدو العالم ، عالماً صغيراً ، إلا أنه يفتقر إلى لغة مشتركة للحوار والتواصل والإخاء .

ويؤكد جارودى (١٩٨٣) هذا التصور فيقول :

« إن عالمنا واحد ... ولكنه عالم ممزق »

ويفسر جارودى (١٩٨٣) وحدة العالم وتمزقه في الوقت ذاته : بأن تطور التكنولوجيا والإنتاج قد خلقا سوقاً عالمية ، وخلق اقتصاديات مترابطة حيث أصبح مصير كل الناس فيها معلقاً بمصير الناس الآخرين ، وأصبحت الحياة اليومية لكل إنسان تتأثر اقتصادياً وسياسياً وأخلاقياً بأكثر الأحداث بعداً عنه .

ويستطرد جارودى ، فيؤكد أن هذا التلاحم لا يعنى تأخياً دولياً ، إذ إنه قائم على التناقضات والصراعات ، وأصبح التعبير الواقعى عن التلاحم الدولى لا يظهر من الآن فصاعداً إلا فى صورة تلك الصراعات التى تتمثل فى الصراع بين الطبقات ، والصراعات الوطنية أو القومية ، والصراعات الأيديولوجية (جارودى ، ١٩٨٣ ، ص ١٣) .

وتعد الحرب العالمية الثانية ، والحروب الصغرى التى تلتها فى أنحاء شتى من العالم نقطة تحول مصيرى فى تاريخ الإنسان المعاصر ، فالدمار والخراب ونزيف الدم الذى اجتاحت العالم ، جعل الإنسان المعاصر يفقد اليقين فى جدوى القيم ، ويرى أن هذا العالم ، عالم عبثى مغترب ، فقد معقوليته ومعناه ، وأن الفلسفات الكبرى التى التف حولها الإنسان ، واعتقد فى توجهاتها وقيمها ، لم تحم الإنسان من ويلات الحرب ودمارها ، وأن التكنولوجيا المعاصرة لها آثارها المدمرة على وجود الإنسان ، وعلى إنسانيته كهوية ومعنى وقيمة ، وعلى حريته ، فكان لابد من الاحتجاج على هذا التقدم التكنولوجى وعلى هذه المذاهب الفلسفية بتركيباتها العقلية المجردة ، التى غربت الإنسان وسلبته هويته وأفقدته حريته ، وفصلته عن ذاته كموجود بشرى له هويته ، وتفردته وتساميه المستمر ، وجعلته مجرد شيء ، لا وزن له ولا قيمة ، مغترباً فى مواجهة عالم عبثى ومغترب .

وتصدى لهذه القضية هيدجر Heidegger (١٩٦٧) وتيلش Tilich (١٩٥٣) يسبرز Jaspers (١٩٥٦) ، وسارتر (١٩٦٦) .

ويصور يسبرز (١٩٥٦) شعوره بأنه يحيا فى عالم غريب ، منفصل عنه ، كشىء آخر سواه ، ولا يشعر بالأمن فى هذا العالم ، ويترجم هذا الشعور بقوله : « إن العالم كموضوع - للمعرفة - شىء غريب Fremd ولا أشعر بالأمن فيه ؛ لأنه يتحدث لغة غريبة عنى ، (ص ٣٠) . ويرى تيلش (١٩٥٣) أن الإنسان يغترب تحت وطأة الحضارة وهيمنة التكنولوجيا وسيطرة الآلة ، وإن الإنسان أصبح غريباً عن وجوده الجوهري .. وأن الاغتراب هو الطابع المميز للوجود ، (ص ٧٤) .

ويرى سارتر (١٩٦٦) أن الاغتراب ، خاصية وجودية ، متأصلة فى وجود الإنسان ، فوجود الإنسان سابق على ماهيته ، فقد ألقى ، به فى هذا الوجود بغير سند أو عون ، وعلى غير إرادة منه أو اختيار ، حيث يمضى فى الحياة بوصفه كائناً «مغترباً» يكابد القلق ويحيا نهباً لمشاعر الهجر ، فهو كائن مهجور ، واغترابه دائم ولا يمكن قهره ، وأن حدة الاغتراب تزداد فى المواقف التى تتميز بقهر الحرية والاضطهاد والتشيؤ واستلاب الذات .

ومع الانهيارات المذهبية الكبرى والأيديولوجية التى واكبت الحرب العالمية الثانية : النازية والفاشية ، بدأ علماء النفس والاجتماع يتساءلون عن الأسباب والظروف والعوامل التى تجعل شعباً معيناً ، أو شعوباً بأسرها تتقبل الاتجاهات الأيديولوجية التسلطية ، بغض النظر عن معقولية هذه الاتجاهات وجدواها .

وتصدى لهذه المحاولة أدورنو ، Adorno (١٩٥٠) ، وبرونزفيك Brunsvik وليفنسون Levinson (١٩٥٠) ، وسانفورد Sanford (١٩٥٠) .

وبدأ هؤلاء العلماء يدرسون الشخصية التسلطية ، وسماتها واتجاهاتها ومكوناتها ودوافعها ، وانتبهوا إلى أن هناك دوافع نفسية ، ومكوناً من مكونات الشخصية يكمن خلف تقبل وتهيؤ بعض الناس للاتجاهات التسلطية التي تمجد القوة ، وتحض على العدوان ، وتدعو إلى التعصب ، وقهر الضعفاء ، وكافة الأفكار والأيدولوجيات التي تميز الفكر الفاشي .

وقد ربط فروم (١٩٧١) بين الاغتراب والتسلطية التي اعتبرها إحدى ، آليات الدفاع الرئيسية التي تدفع الفرد إلى التخلي عن حريته وعن استقلاله الذاتي ، بالاندماج مع شخص أو جماعة تمنحه الشعور بالقوة ، (ص ١٦٣) .

وأكد فروم (١٩٧١) أن الشخص التسلطي يعجب بالسلطة ويميل إلى الخضوع لها ، ولكنه في الوقت نفسه يكون هو نفسه سلطة ، ويكون عنده آخرون يخضعون له (ص ١٣٤) ، وأن ، الشخصية التسلطية تحيا مقهورة بشعور لا يطاق بالعجز والوحدة وفقدان الأمن والاعتراب ، ومن ثم تكسب قوتها على الفعل من خلال اعتمادها على قوة أعظم ، وهذه القوة لا يمكن التهمج عليها أو تغييرها إطلاقاً ، (ص ١٤٠) .

وقد تكون هذه القوة زعيماً أو رأياً أو فكرة - دينية أو أيديولوجية - أو أمماً أو أباً .

وفي الخمسينيات ، وهي الحقبة التي سميت بـ «الحرب الباردة» ، وهي حقبة كانت معبئة بالخوف والقلق من عودة العالم إلى ما كان عليه في الثلاثينيات والأربعينيات من تعصب وتميز عنصري وتمجيد للقوة ودعوة للحرب والدمار مثلما فعلت النازية والفاشية .

في هذه الحقبة بدأ روكيتش Rokeach (١٩٥٤ - ١٩٦٠) يبحث عن جذور الدوجماتيقية في الدين والفلسفة والعلم والأيدولوجية وغير ذلك من مناشط واهتمامات ومجالات عمله المختلفة .

ووجد روكيتش (١٩٦٠) أن الدوجماتيقية تكمن في البناء المعرفي لدى الإنسان ، وفي أسلوب تناوله للأفكار والأشياء والموضوعات والمواقف وليس في مضمون الفكرة أو الأيدولوجية ، وعلى هذا فإن الدوجماتيقية يحول أكثر الأفكار تفتحاً إلى منظومة مغلقة من الأفكار التي لا تقبل الجدل أو النقاش (ص ١٩٥) ، وأن الدوجماتيقية من حيث هي ، نسق مغلق من المعتقدات ، تشير جذورها إلى التسلطية

العامة (شيلز Shills وروكيتش ١٩٦٠) وأنها لا تتوقف عن حدود الظاهرة السياسية أو الأيديولوجية ، بل تتخطاها إلى كافة مناشط الإنسان الدينية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والأسرية وما إلى ذلك من مناشط إنسانية ، وأن الدوجماتيقية تعنى الجمود العقلي وضيق الأفق والتعصب ، وثنائية التفكير القطعى الذى يصنف الأشياء والأفكار إلى أبيض أو أسود ولا ظلال بينهما .

ويتسم الدوجماتيقى - كما يقول روكيتش (١٩٦٠) بالاستجابة المتطرفة فهو إما أن يقبل الشيء قبولاً مطلقاً ، أو يرفضه رفضاً مطلقاً (ص ١٨٠) .

وبين الرفض والقبول ، لا توجد لدى الدوجماتيقى ، مساحة مرنة من التفكير تتيح له أن يقبل أو يختار أو يتعقل ، وأن يقيم بين ما يؤمن به ويعتقد ، وما يؤمن به الآخرون قنوات من الاتصال والتواصل ، ولهذا ، يرفض بوبر Popper (١٩٨٣) الدوجماتيقية استناداً إلى ثلاث حجج: الحجة الأولى تدور على أن الدوجماتيقى عاجز عن تغيير فروضه الأساسية فى ضوء الشواهد الجديدة ، وهذا العجز من شأنه أن يؤدي إلى عرقلة التقدم الاجتماعى ؛ ولهذا فإن الدوجماتيقية شائعة فى ذلك الجزء من المجتمع الذى يتسم بالمحافظة والرجعية ... والحجة الثانية امتداداً للحجة الأولى ، فعداوة الدوجماتيقى تؤدي به إلى عرقلة المبادرات الجديدة ، وإنكار العقل الناقد والحجة الثالثة تعتمد على أن جميع صور التغيير الثورى تؤدي بدورها إلى الدوجماتيقية (نوتا ، ١٩٨٣ ، ص ٢٦ - ٣٠) .

وثمة علاقة بين التسلطية والدوجماتيقية ، فالتسلطية وإن كانت تستند - من وجهة نظر أدورنو وزملائه (١٩٥٠) - إلى النسيج النفسى للفرد الذى يجعله مهيباً لتقبل قيم وأحكام واتجاهات التسلطية والدوجماتيقية - فيما يراه روكيتش - وإن كانت تستند إلى البناء المعرفى لدى الفرد ، فإن كليهما - التسلطية والدوجماتيقية - تلتقيان عند الفعل ، الذى يتصف بالعدوان والتعصب وتمجيد القوة ، والحض على قهر الآخرين المناهضين لأفكارنا واتجاهاتنا وقيمتنا وميولنا .

وعلى الجانب الآخر من أزمة الإنسان المعاصر ، واغترابه ، كان علماء النفس الإنسانيون يبحثون عن الجانب المضيء والإيجابى فى الإنسان عن المعنى الكامن فى الإنسان فى مواجهة عالم مغترب ، وعن تأصيل القيم الإنسانية فى عالم اهتزت قيمه تحت وطأة الحروب ، ودفاعات التغيير المتسارعة التى هزت كل القيم الثابتة ، الدين والأمة والمجتمع والأسرة تهتز الآن بقوة تحت التأثير العاصف لدفعة التغيير المتسارعة (توفلر ، ١٩٧٤ ، ص ٣٦) .

وقد تبلور هذا التيار الإنساني كامتداد علمي لبعض معطيات الفلسفة الوجودية ،
التي تقوم بعض ركائزها على أن الوجود الإنساني هو وحده الوجود الحقيقي ... ،
(هيدجر ، ١٩٦٧ ، ص ٥٤) . وأن ، الحقيقة هي ما يحققه الفرد بعمله ، (كيركجورد ،
١٩٦٧ ، ص ١٩٢) وأن وجود الآخرين شرط لوجودي وشرط لمعرفتي لنفسي ..
(سارتر ، ١٩٦٦ ، ص ٢٤٠) .

ولهذا كان الإنسان - من وجهة نظر المنحى الوجودي - محور الوجود وذاتية
الفرد نقطة الانطلاق ، وأن حرية الإنسان هي الأساس ، ومن ثم لا توجد طبيعة قبلية
تحدد هوية الإنسان ، وملامح شخصيته فهو ما يفعل ، وما يختار ، وأن حريته مسئولة
وملزمة ، والآخرين هم شرط وجود الإنسان وشرط معرفته بنفسه ، والإنسان - وإن
كان يعيش نهياً لمشاعر الإثم والقلق والاغتراب - عليه أن يتجاوز وضعه ، وأن يعلو
على نفسه ، وأن يحقق ذاته ، ويصوغ لنفسه هوية ومعنى وقيمة .

وقد وجد روجرز (Rogers (١٩٥١) ، ماسلو (١٩٥٤ ، ١٩٧٢) وفرانكل (Fran-
kle (١٩٨٢) ، وماي ، May (١٩٥٠) وفروم (١٩٤٥ ، ١٩٧١) ، وينزفجر (Ben-
swanger (١٩٥٧) وماركيوز (١٩٤٥) ، وتورانس (١٩٦٧) وعبد السلام عبد الغفار
(١٩٧٣ ، ١٩٨٠) في بعض معطيات الفلسفة الوجودية المضمون التصوري لما يمكن
أن يكون عليه الإنسان ، من حيث هو نزوع مستقبلي ، و هوية فريدة في نوعها
لا تتكرر ، (فروم ١٩٦٩ ، ص ١٣٠) ، وصيرورة نمائية تتجه صوب تحقيق الذات ،
بنداء فطري لا راد له (روجرز ، ١٩٥١ ، ماسلو . ١٩٥٤) وأن حياة الإنسان تكمن
في المعنى ، وأن فقدان المعنى يعنى الوقوع في أسر ما يسميه فرانكل (١٩٨٢) ،
الفراغ الوجودي ، وهو حالة من الملل والسأم يشعر من يخبرها بأن الحياة تمضي بغير
معنى أو هدف ، وأن حياته راكدة ، مملة وبغير معنى .

وقد وجد عبد السلام عبد الغفار ، (١٩٧٣) في المعنى وفي ، السمو ، وفي
التنظيم العقلي ، ، وفي إرادة الوجود وإرادة العطاء وتحقيق الإنسانية المتكاملة ما يفسر
طبيعة الإنسان ، ويحدد معالم هذه الطبيعة الإنسانية المتواصلة النماء والتطور ..
فوجود الإنسان يكمن في معنى وجوده (ص ٥٦) ، وأن الإنسان حر بطبيعته وأن
حريته مشروطة وملزمة ، وأنه كائن متواصل النماء ، وأن الصراع الذي يعانيه
الإنسان ويكابد صراع وجودي بين الوجود - واللاوجود : الوجود الذي يكمن في
المعنى الذي يؤدي إلى استمرار الوجود ، واللاوجود حيث يتلاشى المعنى في الحياة .
وأن الإنسان يملك ، إرادة الوجود ، والتي حددها بوصفها القوة الدائمة الدفع والتوجيه

والتنظيم لنشاط الفرد بغية تحقيق وجوده والوصول إلى مستوى مناسب من الإنسانية المتكاملة ، (٥٤) .

وأوضح ماسلو ، (١٩٥٤) أن الإنسان خيرٌ بفطرته ، وأن الخير في الإنسان هو أعدل الأشياء قسمة بين الشر ، وأن الإنسان ينطوى على إمكانات بغير انتهاء ، وقدرات عقلية متميزة ، ومواهب إبداعية شتى ، وأن تحقيق الذات ، مروراً بإشباع حاجات الفرد الإنسانية هو مجلى الوجود الإنساني ، وجوهر فطرته .

ولهذا كانت مهمة التربية والعلاج النفسى ، حسبما يرى ماسلو (١٩٥٤) ، وفرانكل ، (١٩٨٢) ، وتورانس ، (١٩٦٧) ، وينزفجر (١٩٥٨) ، وعبد السلام عبدالغفار ، (١٩٧٣ - ١٩٨٠) وإريكسون (١٩٦٨) تكمن في رد الإنسان إلى نفسه ، إلى إنسانيته إلى إمكاناته الداخلية ، وقدراته على الفعل الإبداعي ، فهو الكائن الوحيد الذى ينزع دوماً إلى أن ينمو على نحو أكثر صحة ، وإلى أن يحقق إمكاناته ، وإلى أن يكون متطلعاً ومنقباً ومبدعاً .. وهو لا يتكيف فحسب ، ولكن يتمرد أيضاً (ماسلو ، ١٩٧٨ ، ص ٤٨) .

والتمرد ، هنا إيجابى قائم على تسامى الإنسان وتجاوزه لوضعه أى تجاوزه لما هو كائن، لبلوغ ما ، ينبغى أن يكون ، ، باستكشاف جوانب المعنى والقيمة والهدف فى داخله ، بوصفها مصادر السعى والفاعلية والحيوية والاستمرارية .

ويمكن تلخيص بعض جوانب أزمة الإنسان المعاصر، والتي أدت إلى اغترابه، واستلابه من ذاته ، وتشويته ، فيما يلى :

١ - حريان عالميتان كبيرتان ، فجرهما الإنسان فى أقل من ثلاثين عاماً ويسببهما تمزقت معنويات الإنسان ، وجعلتاه يشعر بعجز القيم السائدة عن إنقاذه من ويلات الحرب ودمارها الرهيب .

٢ - تفجر معرفى استلزمته ضرورات الحرب وضرورات السلام ، امتد ليستوعب كافة مناشط الإنسان ، وتمثل فى ثورة المعلومات ، وفى الطاقة الجبارة بكل مخاطرها وإيجابياتها ، وفى تكنولوجيا المعلومات .

وقد أدى هذا التفجر المعرفى إلى زيادة الإنتاج ، وظهور ما سمي بظاهرة الأتومشين Automation وظهور الإنسان - الآلة .

٣ - مذاهب فلسفية وفكرية اتسمت بالكلية والشمول : كفلسفة الحضارة وفلسفة التطور وفلسفة الحياة ، وقد أسهمت جميعاً بشكل أو بآخر ، فى تحويل

الإنسان إلى كائن لا وزن له .. إلى إنسان لا حول ولا قوة له .. إلى ذرة إنسانية ... إلى رقم فى إحصاء كبير .. إلى موجود فى ذاته كما يسميه سارتر .

٤ - أيديولوجيات عقائدية اتسمت بالتسلط والقطعية وجمود الفكر والتعصب والتمييز العنصرى والحض على العدوان ، وتمجيد القوة ، ومعاداة الأفكار الأخرى .

وتمثلت هذه الأيديولوجيات المذهبية فى النازية والفاشية فى الثلاثينيات والأربعينيات . وفى الخمسينيات كانت الحرب الباردة ، بين المعسكرين ، ثم ظهرت بعد ذلك أشكال متعددة من التعصب وجمود العقل والتفكير القطعى فى أنحاء شتى من العالم .

٥ - احتجاجات على وضع الإنسان وموقفه ، تمثلت فى كتابات المفكرين وعلماء النفس والاجتماع والتربية ، وتمثلت فى البحث عن الجوانب الإيجابية فى الإنسان حيث الفاعلية والاستمرارية ، وتأصيل القيم واستثارة كوامن المعنى فى أعماقه وتأكيد حريته وتساميه وسعيه الدؤوب نحو تأكيد ذاته .

٦ - أيديولوجيات جديدة ومراكز قوى ظهرت بعد الحرب العالمية الكبرى ، وصاحبته حروب هنا وهناك وبؤر للصراع والتوتر فى أنحاء شتى من العالم ، مثل : فيتنام ، وكوريا الشمالية ، وإيران والعراق ولبنان .. إلخ ، كل هذا حدث كما لو كان فى داخل الإنسان ، شىء انتحارى يدفعه إلى الحروب ، (سكنر ، ١٩٨٤ ، ص ١٢) .

كل هذا ، جعل الإنسان المعاصر يشعر بالاغتراب ، كما أدت التحولات المادية السريعة إلى أن يفقد الإنسان القدرة على التواصل مع نفسه ، ومع مجتمعه ، ومن ثم اهتزت معاييرهم ، فحينما تتغير الأشياء من حولك فإن تغيراً موازياً يحدث فى داخلك ، (توفلر ، ١٩٧٤ ، ص ٣٦) .

وقد أدى التقدم التكنولوجى ، والإيقاع السريع لحركة المتغيرات - حسبما يرى فروم - (١٩٧١) إلى شعور الإنسان بأنه أصبح عبداً للآلة التى صنعها ، وليس سيداً لها ، وأن الحرية التى كابد من أجل الحصول عليها لم تقدم له سوى الشعور بالعجز واللاجدوى والعزلة .

ومن ثم كانت أساليب الإنسان المعاصر للهرب من حريته ؛ أى الهرب من حالة العجز واللاجدوى والشعور بالوحدة الذى لا يطاق ، بالانتماء إلى كيانات أكبر منه تشعره بالقوة وبالأمن ، وترد إليه الإحساس بالحرية ، واختلفت انتماءات الإنسان المعاصر باختلاف أساليب الهرب من حريته ، فقد تكون شخصاً أو مؤسسة ، أو أهلاً أو أمة أو ضميراً ، أو قهراً نفسياً (ص ١٧٧) .

ولسوء حظ الإنسان المعاصر - فيما يرى فروم ، (١٩٧١) - فإن التجمعات النقابية التى لجأ إليها لم تحقق له التواصل ، ولم تقهر فى داخله الشعور بالاغتراب ، ولم ترد إليه الشعور بالأمن ؛ لأن ، كثيراً من النقابات نفسها قد نمت وتضخمت إلى درجة لم يعد للعضو البسيط أى دور فى تشكيل قرارات النقابة التى ينتمى إليها ، وتحول مرة أخرى إلى مجرد ترس فى آلة كبيرة ، عليه أن يخضع وأن يطيع (ص ١٤٨) .

ويرى (فروم- ١٩٦٩) أن الإنسان المعاصر قد خلق لنفسه عالماً خاصاً من النظم .. من القوانين .. من الأشياء التى لم يكن لها وجود من قبل ، ومع ذلك فهو لا يشعر بنفسه خالقاً لهذه النظم ، بل عبداً لوثن صنعه بيديه ، ولم يشعر بنفسه خالقاً لعمله متحكماً فيه ، بل أصبحت أعماله - وما يترتب عليها - منفصلة عنه ومتسيدة عليه ، وأصبحت حياته من جراء ما يكابده فى عمله لا يسودها الإخاء والسعادة والقناعة ، بل تجتاحها الفوضى الروحية والضياع الذى يقترب اقتراباً خطراً من الاضطراب العقلى الذى يشبه انفصام الشخصية ، حيث ينعدم فيه الاتصال بالواقع الخارجى ، وينشق فيه الفكر عن الوجدان (فروم ، ١٩٧٨ ، ص ٧) .

ويتضح مما سبق بعض ما قد يعانى منه الإنسان المعاصر من عجز واغتراب ، وهذا ما يجعله غريباً عن ذاته ، عن ثرائه الداخلى ، ونتيجة لانفصاله عن ذاته لحساب الواقع الخارجى - تواؤماً واستكانة وخضوعاً - يصبح عقيماً ، فقيراً عن كل ثراء ذاتى ؛ لأنه تحول إلى مجرد شيء إلى موجود فى ذاته Being - in - itself ، كما يسميه سارتر .

وحيثما تزداد حدة ما يشعر به الفرد من اغتراب ، وانفصال عن نفسه .. فإن حياته النفسية تختل معاييرها وتهتز وتظهر عليه الأعراض المصاحبة للاغتراب ، والتى قد يتمثل بعضها فى الشعور بالوحدة والتشيؤ واللامعيارية والعجز واللامعنى والتمرد .

هدف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة التحليلية الكشف عن العوامل التي تحدد ظاهرة الاغتراب ، كما تهدف أيضاً دراسة العلاقة بين هذه العوامل وكل من التسلطية والدوجماتيقية والقلق وتحقيق الذات .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة في الموضوع الذي تتصدى لدراسته ، ولا سيما أن الدراسة تتخذ من خمسة متغيرات تتمثل في الاغتراب ، والتسلطية والدوجماتيقية والقلق وتحقيق الذات أداة لتحليل بعض ما يعانيه الشباب المصري الجامعي من أزمات نفسية واجتماعية ، وإبراز الجوانب الإيجابية في شخصيته حيث تحقيق الذات باستثمار القدرة والإمكانة والموهبة ، وتأصيل المعنى والقيمة والهدف في حياته .

وتكتسب متغيرات الدراسة أهمية خاصة بتعبيرها عن بعض جوانب أزمة الإنسان المعاصر ، ولهذا يمكن تسميتها «مصطلحات أزمة» ؛ لأنها ارتبطت بالإنسان المعاصر ، إثر أزمته الطاحنة في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ، وحيث تكون «الأزمة» يكون المخرج منها «إنسانياً» بالبحث والدراسة ، ومعرفة ما تؤدي إليه من مصاحبات وما يكمن وراءها من عوامل وأسباب .

فبعد انتهاء الحرب الثانية ، بدا أن هناك عالماً جديداً يتشكل وسط أزمات إنسانية طاحنة ، وطموحات جديدة ، ومتغيرات علمية وتكنولوجية جديدة ، استلزمها ضرورات الحرب وضرورات السلام ، وإن إنساناً جديداً يختلف عن إنسان ما قبل الحرب العالمية الثانية ، استوعبته أزمات الحرب وآثارها ، أصبح عليه عبء تجاوز آثارها النفسية والاجتماعية والحضارية .

ها هنا ، كان جهد العلماء والمفكرين والباحثين في البحث عن أسباب وأبعاد «أزمة الإنسان المعاصر» والتي قد تتمثل في بعض جوانبها في الاغتراب ، وما يترتب عليه من مصاحبات ، وما يرتبط به من متغيرات يتحدد بعضها في التسلطية والدوجماتيقية والقلق وتحقيق الذات .

ولئن كان الاغتراب مصطلحاً قديماً ، استخدم على أنحاء شتى ، لاهوتياً وفلسفياً وأدبياً ، فإن العلماء والمفكرين وجدوا فيه تعبيراً عما يكابده الإنسان المعاصر ويعانيه ، وعدوه ظاهرة إنسانية ، متعددة الأبعاد ، مختلفة من حيث زاوية الرؤية : نفسياً واجتماعياً ووجودياً ، واتفقوا على أن الاغتراب تزداد حدته ودرجته ومجال انتشاره كلما توافرت العوامل والأسباب المهيئة للشعور بالاغتراب نفسياً واجتماعياً ووجودياً .

وبالنسبة لمتغيرى التسلطية والدوجماطيقية ، فكلاهما نتاج أزمة عصر ما قبل وفى أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية ، حيث تعرض الإنسان لهزات قيمية حادة ، وتسلطت على مقدراته اتجاهات اتسمت بالتسلط والشوق الدائم للقوة والحض على العدوان ، وما إلى ذلك من أبعاد يتحدد فى ضوئها معنى التسلطية .

وقد مهدت لهذه الاتجاهات أيديولوجيات ، تمثلت فى النازية والفاشية ؛ ولهذا كان جهد أدورنو وزملائه (١٩٤٣ ، ١٩٥٠) وميرفى (١٩٤٧) وفروم (١٩٧١) ، وغيرهم من العلماء والباحثين يتمثل فى معرفة المكونات النفسية للشخصية التسلطية ، بما تنطوى عليه من دوافع وما تتسم به من سمات .

أما روكيتش (١٩٥٤ - ١٩٦٠) - الذى ظهرت دراساته إثر الحرب الباردة - فقد راح يبحث عن جذور الدوجماطيقية فى الفكر والسلوك والمواقف التى قد تتسم بـ«مع ، أو ضد» ، وانتهى إلى أن جذور الدوجماطيقية تكون فى «البناء المعرفى» لدى الفرد ، وفى طريقة تناوله للأفكار والموضوعات والمواقف ، وليس فى مضمون الفكرة أو الأيديولوجية .

هذا .. وقد وجد علماء النفس والطب النفسى فى القلق ، خبرة انفعالية ، قديمة قدم الإنسان نفسه ، تمثل عصب الحياة النفسية للفرد ، وتفسر طبيعة الصراع النفسى الذى يعانى به الفرد ، وأنه سمة كامنة ومتأصلة فى وجود الفرد ، وحالة ، تزداد حدتها مع مواقف التهديد والضغط والشدة ، وأنه عرض يصاحبه كثير من الأعراض البيولوجية ، وأن القلق أمر لا مناص منه عند درجة معينة ؛ لتقديم كل إيجابى وجديد فى الحياة ، وأنه المتغير الذى يعبر عن طبيعة العصر الذى نعيشه ، ويرتبط بكافة متغيرات الصحة النفسية . (فرويد ، ١٩٩٦) ، هورنى ، (١٩٦٢) ، كامبل وشبيلبرجر (١٩٦٦) ، تايلور وسبنسر ، (١٩٦٦) ، وغيرهم من العلماء والباحثين .

وعلى الجانب الآخر من أزمة الإنسان المعاصر ، كان بحث علماء النفس الإنسانين عن الجوانب الإيجابية فى طبيعة الإنسان ؛ حيث تحقق الذات باستثمار طاقاته وحسن توظيفها ، وتأصيل المعنى والقيمة والسعى والاستمرارية والنماء ليتجاوز الإنسان ما هو «كائن» لبلوغ ما ينبغى أن يكون عليه ، ومن ثم كانت دراسات (جولد شتين ، ١٩٣٩) ؛ ماسلو (١٩٥٤ - ١٩٦٢) ؛ روجرز ، (١٩٥٤) ؛ ماى ، (١٩٦٦) ؛ شوستروم (١٩٧٤) ؛ فرانكل ، (١٩٨٠) ؛ عبد السلام عبد الغفار ، (١٩٧٣ ، ١٩٨٠) وغيرهم من الباحثين .

وهكذا تعبر هذه المتغيرات عن طبيعة الإنسان .. عن مواطن الأزمة فيه ، وعن مكان الثراء الإنسانى فى صلب تكوينه .

ولئن كانت هذه المتغيرات «نبأً طبيعياً» لأزمة الإنسان المعاصر فى الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات والستينيات ، فإنها تعبر عنه فى السبعينيات والثمانينيات ، حيث يمج العالم بتيارات فكرية وعقائدية ، يتسم بعضها بالتطرف والتشدد ، وانتشار الإرهاب والعنف ، وتزايد الشعور بالقلق والخوف الذى يلزم الإنسان فى مسيرته الحضارية للخروج من الأرض بجاذبيتها إلى أفلاك السماء ، وتزايد الشعور بالقلق من نشوب حرب عالمية ثالثة نتيجة لخطأ علمى ، أو ضغط سياسى ، وتهديد مستمر للطبيعة والدمار أو التلوث (تشيرنوبل فى الاتحاد السوفيتى؛ تشالنجر فى الولايات المتحدة ، انفجار بحيرة للغاز الطبيعى فى نيجيريا ، حدوث خلل فى مفاعل نووى فى سويسرا) وما إلى ذلك من مخاطر تهدد الإنسان والبيئة والحياة جميعاً بالفناء والتلوث؛ أضف إلى ذلك ما يعيشه العالم من أزمات طاقة وتجارة وديون .

ومن هنا بدأ العالم المتقدم يعيش تحديات شتى ، لعل أهم التحديات التى تواجه الدول المتقدمة ، هى : الحاجة إلى نظام اقتصادى عالمى جديد ، والوصول إلى درجة مناسبة من الوفاق العالمى ، ومواجهة ظاهرة الاغتراب بين الشباب .

وتعتبر ظاهرة الاغتراب ، وما يترتب عليها من «مصاحبات» ، وما يرتبط بها من متغيرات نفسية كالتسلطية والدوجماطيقية والقلق وتحقيق الذات ، أحد جوانب أزمة الإنسان المعاصر ، التى نجد لها تعبيراً بين الشباب الذى يمثل - بحكم مرحلته العمرية - التوجه للمستقبل ، ومن ثم كان الشباب أولى من غيره فى الإحساس بالاغتراب ، والعمل على ضرورة إزالته ؛ لأنه الوريث الشرعى للحضارة البشرية فى امتدادها البشرى (مراد وهبه ، ١٩٧١ ، ص ٢٥٠) .

وتمثل مرحلة الشباب تغيراً - كمياً وكيفياً - فى تكوين شخصية الفرد .. ولهذا كان الشباب هو العنصر الحاسم فى كل تقدم وازدهار بما يحمله من إمكانات وقدرات ومواهب وخيال خصب ، تجعله أشد حساسية لما يحدث فى داخله من تغيرات عضوية ونفسية وفكرية ، وما يحدث فى واقعه من تغيرات حضارية واجتماعية وسياسية ، وفى الفترة من سبتمبر ١٩٦٤ ، إلى يناير ١٩٦٥ شهدت جامعة بركللى الأمريكية بكاليفورنيا سلسلة من الاضطرابات ، وانطلقت الثورة فى الصين الشعبية فى سبتمبر ١٩٦٥ ، ثم تفاقمت تحركات الشباب بعد ذلك ، منها : مظاهرات فبراير عام ١٩٦٨ ، فى جامعة بلجراد بيوغسلافيا ، (مراد وهبه ، ١٩٧١ ، ص ٢٥٠) .

ويستطرد مراد وهبه ، (١٩٧١) موضحاً ، أن هذه التحركات ، وإن تباعدت بينها المسافات لها دلالة ، وهى تطلع الشباب إلى رؤية جديدة تضع التكنولوجيا فى مكانها الصحيح ، بحيث تصبح أداة لخدمة الإنسان لا للهيمنة عليه ، (ص ٢٥٠ - ٢٥١).

ويذكر حازم الببلاوى (١٩٨٣) أن من بين الشعارات التى رفعت فى أثناء ثورة الطلاب فى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ على جدران جامعة السربون ، الثورة البورجوازية ثورة قانونية ، والثورة البروليتارية ثورة اقتصادية ، أما ثورتنا فهى ثورة ثقافية نفسية ، (ص ٨٥).

وقد أثارت تحركات الشباب اهتمام علماء النفس والاجتماع والتربية لمعرفة أسباب اغتراب الشباب وما يترتب عليه من مصاحبات ، وما يرتبط باغترابه من متغيرات ، وما يتسم به من سمات ، وما يعتنقه من أفكار واتجاهات وقيم ، ومن ثم راحوا يدرسون المجتمع الطلابى ، ومناهجه ومجالات نشاطاته ، وأسباب رفضه واغترابه وما يرتبط به من متغيرات .

هذا .. وتحاول هذه الدراسة أن تكشف عن بعض مظاهر الاغتراب لدى الطالب المصرى ، وما يرتبط باغترابه من متغيرات نفسية تتمثل فى التسلطية والدوجماطيقية والقلق وتحقيق الذات .

ولعل ما يموج به المجتمع الطلابى فى مصر ، من تحديات شتى منها ما هو اجتماعى ، وما هو سياسى وما هو فكرى ، وما هو نفسى يجعل من هذه الدراسة ضرورة لا مناص منها ، إذا ما أريد فهم بعض مظاهر الاغتراب وما يصاحبه ، وما يرتبط به من متغيرات .

مفاهيم أساسية :

(١) الاغتراب Alienation

هو انفصال الإنسان عن وجوده الإنسانى ، ويمثل هذا الانفصال زملة من الأعراض المصاحبة ، والتى تتمثل فى :

أ - العزلة الاجتماعية Social isolation

ويقصد بها الالتصاق بالذات ، والانفصال عن الآخرين والشعور بعدم الانتماء إلى مجتمعه وإلى عالمه .

ب - التشيؤ Reification

ويقصد به أن الفرد يعامل كما لو كان شيئاً ، وأنه قد تحول إلى موضوع ، وفقد إحساسه بهويته ، ومن ثم يشعر أنه مقتلع حيث لا جذور تربطه بنفسه أو واقعه .

ج - اللامعيارية Normlessness

انفصال ما هو ذاتي عما هو موضوعي ، حيث تنفصل غايات وأهداف الفرد عن أهداف ومعايير المجتمع ، وتصبح الغاية عند الفرد تبرر الوسيلة .

د - العجز Powerlessness

ويقصد به الشعور بالاحول واللاقوة ، ويعجز الفرد عن السيطرة على تصرفاته ، ورغباته ، وافتقاره إلى الشعور بأنه قوة حاسمة ومقررة في حياته ، وفقدانه الشعور بتلقائيته ، ومرح الحياة .

هـ - اللامعنى : Meaninglessness

ويقصد به أن الفرد يرى أن الحياة لا معنى لها ، وأنها تسير وفق منطق غير معقول ، ومن ثم يشعر المغترب أن حياته عبث لا جدوى منها ، فيفقد واقعيتها ويحيا نهباً لمشاعر اللامبالاة والفراغ الوجودي .

و - التمرد : Rebellion

شعور الفرد بالرفض والكرهية لكل ما يحيط به من قيم دينية أو وضعية وشعوره بالرفض لنفسه ولمجتمعه .

٢ - المتغيرات النفسية :

أ - التسلطية : Authoritarianism

مجموعة من السمات التي تتصف بالتعصب الفكري ، وتمجيد القوة ، والامتثال للسلطة والقيم التي تشجع على التعصب والعنصرية واحتقار الضعفاء (أدورنو، ١٩٥٠ ، ص ٢٢٨) .

ب - الدوجماتيقية : Dogmatism

نسق معرفي مغلق من المعتقدات الخاصة بالواقع والحياة ، ينتظم حول مجموعة من الأفكار الخاصة بقوة السلطة المطلقة ، وتحول هذه بدورها إلى معايير تنظم سلوك الفرد نحو الآخرين وتتسم بالتسامح والنفور، (روكينش ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٥) .

ج - القلق : Anxiety

استجابة لخطر غامض وغير معروف . وسواء كان هذا الخطر داخلياً في نفس الفرد أم خارجياً في بيئته الاجتماعية الحضارية .. فإنه يهدد شعوره بالأمن والاستقرار (أحمد رفعت جبر ، ١٩٧٨ ، ص ٥٧) .

د - تحقيق الذات : Self - Actualization

استثمار الفرد المحقق لذاته لإمكاناته على نحو يجعله يحيا حياة ثرية في معناها ، أكثر بكثير من الشخص العادي (شستروم ، ١٩٧٤ ، ص ١٤٧) .

الشباب وأزمة التطرف

جذور التطرف تاريخياً واجتماعياً ونفسياً

سمى التيار الدينى بمسميات عدة .. منها التطرف الدينى ، الأصولية ، الإسلامية ، الإخوان المسلمين . والجماعات الإسلامية ، وما انطوت عليه من فصائل ومسميات متعددة .

وكان يقصد بتلك المسميات إبراز الخصائص الأساسية لبعض التيارات الدينية ، وما تنطوى عليه من تفكير قطعى ، وضيق أفق ، وجمود وخوف ، وعدوان مخضب بالدم فى بعض الأحيان .

وهذه المسميات جميعاً ترجع إلى فكرة واحدة محورية .. هى العودة إلى الأصولية الدينية الإسلامية متخذة لنفسها أساليب عدة أبرزها العنف والتشدد والتطرف والتعصب فى الفكر والسلوك والاعتقاد .

ويخطئ من يتصور أن التيار الأصولى الجديد ، وليد هذه الحقبة من تاريخنا ، بل هو تيار له جذوره التاريخية الضاربة فى عمق التاريخ الإسلامى ، وله أسبابه الاجتماعية ومظاهره النفسية ؛ ولهذا فإن فهم هذا التيار الدينى يستوجب البحث فى تفاعلات الماضى فى جذوره التاريخية ؛ من أجل الوصول إلى مستقبل أفضل تسوده حرية الحوار بالحجة والرأى المستنير لا بالرصاص ، وبهذا يكون التاريخ هو علم فهم المستقبل ، ويكون الرجوع إليه ضرورة لفهم ديناميات الحاضر وتفاعلاته الاجتماعية والنفسية .

وهنا تثار عدة تساؤلات :

١ - ما جذور هذا الفكر المطلق ؛ أى الفكر القطعى الذى يقوم على ثنائيات قطعية كفر أو إيمان جاهلية أو إسلام ، حاكمية الله فى مقابل حاكمية البشر ... خير أو شر ، أبيض أو أسود ولا ظلال بينهما ؟

٢ - ما الذى يدفع البعض من الشباب إلى تحويل أشد الأفكار الدينية تفتحاً إلى أفكار مغلقة جامدة لا تقبل الجدل أو النقاش ؟ وما الذى يدفع بعض الشباب إلى الدفاع عما يؤمنون به من أفكار بخوف وتعصب وغضب وعدوان مخضب بالدم أحياناً ؟

٣ - لماذا يتميز الأصوليون الدينيون بخصائص نفسية واجتماعية ، تتخذ من التفكير القطعى محوراً ونقطة انطلاق لكافة توجهاتهم فى الفكر والسلوك والمواقف ؟

لابد إذاً أن تكون لهذا الفكر جذوره التاريخية ، وأن تكون للقائمين على هذا الفكر خصائصهم النفسية ، وأن تكون لهذا الفكر أسبابه الاجتماعية التى تجعل البعض مستهدفاً لتقبل الأفكار التى تدعو إلى التطرف وتحض على العدوان ، ومناهضة كافة الأفكار الأخرى بعنف وخوف وعدوان .

ويمثل مطلب العودة إلى الأصولية الدينية ظاهرة تاريخية ونفسية واجتماعية ، فلنبداً بجذورها التاريخية ، فمن البذرة تعرف الثمرة .

لقد بذرت بذرة الأصولية الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ، وتواصلت عبر العصور إلى وقتنا الحاضر بمسميات شتى وأساليب متنوعة وفصائل متعددة ، وكانت البداية إبان الصراع السياسى الذى شاهده الساحة الإسلامية بين على (كرم الله وجهه) ومعاوية بن أبى سفيان ، ولم تستطع جماعة من المسلمين ، أطلق عليها اسم الخوارج أن تفهم طبيعة الصراع السائد أو طبيعة العوامل الاجتماعية والاقتصادية والإقليمية التى تكمن خلفه ، بل راحت تكفر الجميع وتعلن مروق الجميع من دين الله ، ومن ثم كانت صيحتهم الشهيرة فى معسكر صفين ، معسكر على ابن أبى طالب :

لا حكم إلا الله ولو كره المشركون

وكان جواب على حاسماً: إنها كلمة حق يراد بها باطل.

لقد أدرك على ببصيرته الإيمانية وبصيرته السياسية أن هذه الصيحة تعنى إقحام المطلق فى عالم النسبى ، وتخلط بين الكلى الثابت والجزئى المتغير ، وأن صيحة الخوارج اغتراب للكلم عن موضعه .

فلقد كان الصراع سياسياً له أدواته وله عوامله .. وله حركته ، ولكن الخوارج لم يفهموا طبيعة هذا الصراع السياسى أو قواعده ، وأضفوا عليه طابعاً دينياً متطرفاً واعتبروا أنفسهم مسلمى الأمة ، وأن من عداهم كافر ، وأن من ينشق عن دعوتهم ولا يستجيب لصيحتهم مارق فاسق ظالم يستباح دمه .

وهنا لنا أن نتساءل ..

هل كان الخوارج بصيحتهم ريانيين يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وكان على كرم الله وجهه مارقاً من دين الله ، فاسقاً ظالماً ؟

وهل كان الخوارج منزهين عن الغرض والهوى الشخصي ، عندما استباحوا دم على ؟ لقد كان الخوارج من بدواة الأعراب ، ولم يكونوا من الصحابة .

وكان على ربانيًا ، إماماً تقيًا يغوص في أعماق الدين ويفهم ما وراء النصوص ، وكان رجل دولة ، حكيمًا بصيرًا بشئون السياسة وعوامل التغيير الاجتماعي والاقتصادي ، وغلبة المصالح القبلية على فكر ووجدان الناس ، وكان عبقرياً تتخطى جوانب الشموخ في شخصيته الكلمات .

ولكنهم استباحوا دمه واعتبروه مارقاً من دين الله ، فهل كانوا بذلك منزهين عن الغرض ؟ .

إن من قتل علياً حسبما يرى الاستاذ العقاد في كتابه «علي بن أبي طالب» كان عاشقاً مخبولاً ، يستنجزه الوعد فهو مأسور زمامه في يد غيره وليس في يديه .

وهذا العاشق المخبول الذي قتل علياً كان اسمه عبد الرحمن ابن ملجم ، كان يحب فتاة من تيم الرباب ، قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها في معركة الخوارج ، وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية وتدين بمذهب قومها فوق ما في جوانحها من لوعة الحزن على ذوبها ، فلما خطبها ابن ملجم له لن ترضى به زوجاً إلا أن يشفى لوعتها .

قال : وما يشفيك ؟

قالت : ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة وقتل علي بن أبي طالب .

قال : أما قتل علي فلا أراك ذكرته لي وأنت تريدني .

قالت : بل ألتمس غرته فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسي ، وبهنا لك العيش معي ، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها .

وهكذا قتل علي بخنجر ابن ملجم العاشق المخبول عشقاً ، وغراماً بفتاة تيم الرباب ، وانطلق الخوارج يكفرون كل ما عداهم ويبذرون بغلوهم في الدين بذور التفكير القطعي حيث ثنائية الكفر أو الإيمان ، حاكمية الله أو حاكمية البشر ، واستمرت ثورتهم على الأمويين قرابة قرن من الزمان ، أنهكوا فيها قوة الدولة الأموية تماماً وظلت صيحتهم الشهيرة «لا حكم إلا الله» المضمون الأساسي للحركات الإسلامية في أوائل القرن العشرين ، على أيدي أبي الأعلى المودودي في باكستان ، والأستاذ سيد قطب في مصر .

وبقيام الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية ، واتساع الدولة الإسلامية في الشرق حيث الهند وفي المغرب حيث الأندلس ، أصبحت الدولة العباسية مسئولة عن أمم وشعوب وأجناس لها أبنيتها الفكرية وهويتها الذاتية وخصوصيتها النوعية ومشاكلها الخاصة ، ونتيجة لهذا الالتقاء الحضارى بدأت تتسرب بعض المؤثرات الحضارية إلى بلاط الخلافة ؛ خاصة المؤثرات الفارسية ، فتأثر العباسيون بنمط حياة أكاسرة الفرس مثلما تأثر الأمويون بنمط حياة قياصرة الروم ، وتجاوزت المؤثرات الجديدة حدود البلاط العباسي ، إلى الحياة الاجتماعية فظهرت طبقات اجتماعية جديدة وأنماط سلوكية جديدة وتحديات حضارية جديدة ، بدأت تواجه العقل العربي المسلم بتحديات حضارية شديدة الخصوبة والتعقيد مثل منطق أرسطو وبراهينه العقلية ، وحكمة ميراث الفرس ، وهندسة المصريين ، وخصوصية هويتهم .. وما إلى ذلك من تحديات استوجبها التقاء أمم وشعوب وحضارات .

في هذا المناخ ظهر الإمام أحمد بن حنبل ، وقاد الدعوة إلى الأصولية الدينية الإسلامية .

وكان إماماً فقهياً مستنيراً ولم يكن متطرفاً ، بل كان مدققاً فيما يتصل بالأحاديث النبوية ، ولهذا لم يعتمد إلا الأحاديث التي اتفق على صحتها إجماع الرواة .

واعتباراً من القرن التاسع الميلادي ، بدأت الدولة العباسية تزداد ضعفاً ، إذ قطعت الانقسامات عن مركز الخلافة روابط الوحدة مع مركز الخلافة الرئيسي ، وهددت الثورات المستمرة مركز الخلافة نفسه ، وبدأ يزداد عدد الأجناس غير العربية ، ولا سيما الأتراك والسلاجقة ، وبدأوا يشكلون قوة لها نفوذها وسلطانها على مركز الخلافة نفسها ، وبدأ التدفق العربي من شبه الجزيرة العربية تخف موجات تدفقه .

وفي وسط هذا الموقف العربي والإسلامي المتردى ، ارتكب الخليفة «المعتصم» خطأ حضارياً كبيراً ، باستعانتته بالترك المماليك لمجابهة الانقسامات والثورات داخل الدولة .

وكان طبيعياً أن تفرز هذه الفترة تيارات فكرية ، تناهض الغزو وتحض على الكفاح ، وتقف بحسم ضد تيارات التغريب الكاسحة ، وترد المسلمين إلى أصولهم الدينية وسالف مجدهم ، فكانت أفكار «ابن تيمية» استلهاماً مباشرة لفكر المعلم الأصولي الإمام أحمد بن حنبل .

وانتقل فكر ابن تيمية عبر العصور ، فكان ومن قبله الإمام أحمد بن حنبل المصدر الأساسي لكل دعوة أصولية ، فتأثر بهما الشيخ جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده في القرن ١٩ .

أما ، أبو الأعلى المودودي ، فكان تأثره أشد بفكرة ، الحاكمية ، ، التي انطلقت صيحتها الأولى من الخوارج في القرن الأول الهجري .

واستطاع ، أبو علي المودودي ، أن يبلور هذه الفكرة ويجعلها ، الوسيلة ، لاستقلال باكستان السياسي والديني في الهند .

وقد تأثر ، سيد قطب ، بهذه الفكرة ومن بعده الجماعات الإسلامية ، التي انطلقت من كل صوب وكل مكان على نحو قطعي عنيف في مصر وفي عالمي العروبة والإسلام .

جماعة الإخوان .. والدعوة الأصولية :

نشأ تيار الأصولية الإسلامية إثر اغتيال الشيخ حسن البنا المرشد العام لجماعة الإخوان في ١٢ فبراير ١٩٤٩ م ، وبإغتيال حسن البنا دخلت جماعة الإخوان منعطفاً تاريخياً جديداً .. وبدأت جذور التطرف الديني تجد لها سبيلاً داخل جماعة الإخوان ، لغيبة قيادتها التاريخية المتمثلة في الشيخ حسن البنا .

وعندما كان شباب الإخوان يعذبون داخل السجون والمعتقادات عام ١٩٤٩ - إثر اغتيال شيخهم واتهامهم بقتل محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء وقتذاك - بدأت تنتشر بين المسجونين من الإخوان ، ولاسيما الطلبة منهم أفكار تتساءل عن إسلام المجتمع وإسلام الجماعة ، وهل المجتمع مسلم أم مارق من دين الله ، وأن المسلمين هم أفراد الجماعة ، وأن الحكومة تعذبهم مثلما كان المشركون يعذبون المسلمين ، وأن عليهم واجب الدفاع عن العقيدة والاستشهاد في سبيلها ، وبدأت تظهر على نحو غامض أفكار عن تكفير المجتمع وعن جاهليته .

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو ، بدأت تنشط جماعة الإخوان .. وأعادت الثورة الى الجماعة ما سلب منها في عهد الملكية .. ورغم قرار حل الأحزاب السياسية ، أبقت الثورة على جماعة الإخوان . ولكن سرعان ما بدأ الصراع بين ثورة يوليو وجماعة الإخوان .. ولم يكن الصراع بينهما ، دينياً ، بل كان ، سياسياً ، فتوجهات الثورة لم تكن هي نفسها توجهات ومنطلقات الإخوان الفكرية والسياسية والدينية ، فحدث الصدام بين الثورة وجماعة الإخوان ، وكان قرار مجلس قيادة الثورة بحل جماعة الإخوان المسلمين في ١٤ يناير ١٩٥٤ . وكان رد فعل الإخوان عنيفاً دموياً حيث قرر

بعض أعضاء التنظيم الخاص الذى أنشأه الشيخ حسن البنا ، وأطلق عليه اسم « رهبان الليل وفرسان النهار ، ضرب الثورة فى مقتل بمحاولة اغتيال قائد الثورة جمال عبد الناصر ، فى ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤ ونجا جمال عبد الناصر ، وشكلت لجماعة الإخوان محاكمات وقبض على أعضاء التنظيم الخاص .

واعتقل وسجن كثير من الإخوان . وداخل جدران السجن بدأت جماعة الإخوان تعيش محنة ، أوجدها سوء تقدير قيادات الإخوان للظروف التى تحيط بتوجهات ومنطلقات مصر الثورة .

وتحت وطأة المحنة ، بدأت أفكار « المودودى » تتسرب بشكل أو بآخر .. إلى سجناء الإخوان ، وبدأت مقولاته الفكرية والسياسية عن « الحاكمية الإلهية » ، وتكفير المجتمع ، و « الحكم بجاهليته » تجد لها سبيلاً إلى وعى سجناء الإخوان ، وبخاصة الأستاذ « سيد قطب » الذى تأثر بفكر « المودودى » وتفاعل مع مقولاته وتوجهاته ، وصاغ هذه الأفكار فى كتابين من أهم كتبه ، وهما : « معالم فى الطريق » ، و « فى ظلال القرآن » .

الحاكمية الإلهية .. حق يراد به باطل :

وتتلخص فكرة الحاكمية عند « المودودى » فى أن حاكمية الله تعنى أن الله سبحانه وتعالى هو الملك الأمر المشرع ، الذى لا يجوز لأحد غيره أن يحكم أو يأمر أو يشرع ، فحق التشريع غير ممنوح لأحد من الخلق ، غير ممنوح لهيئة من الهيئات ، ولا لحزب من الأحزاب ، ولا للبرلمان ولا لمجموع الأمة ، ولا لمجموع البشرية ، فمصدر الحكم هو الله .

وبهذا ينفى « المودودى » فى كتابه « الحكومة الإسلامية » أن يكون لبشر ... فرد أو حزب ، أو هيئة ، أو شعب أو مجموع البشرية أى حق فى هذه الحاكمية ، ويرى أن الله قد أصدر ثلاثة أحكام فى شأن من لا يحكمون بقانون الله المنزل الأول : أنهم كافرون .. والثانى : أنهم ظالمون .. والثالث أنهم فاسقون ، وأن من يترك قانون الله ويؤمن بقانون آخر وضعه بنفسه أو شرعه له غيره من البشر ، إنما هو طاغوت باغ خارج عن طاعة الحق ، وأن من يبغي الحكم بهذا القانون الوضعى ويعمل على تنفيذه فهو باغ عات عن أمر ربه أيضاً .

ومما سبق نلاحظ أن فكر المودودى يستند إلى ثلاث مقولات أساسية لها دلالتها ومغزاها السياسى ، وإن اصطبغت بطابع دينى قطعى ، وهذه المقولات هى :

١ - الحاكمية الإلهية فى مقابل حاكمية البشر .

٢ - تكفير المجتمع والحكم بجاهليته .

٣ - التحريض على الثورة لإنهاء حكم الطواغيت .

(١) إن فكرة المودودى عن الحاكمية ، تلك التى انطلقت صيحتها الأولى فى القرن الأول الهجرى على لسان الخوارج - وظلت كامنة ثلاثة عشر قرناً من الزمان - لها دلالتها السياسية ، فقد كانت باكستان ضمن الهند والهند تسيطر عليها أغلبية سكانية هندوكسية .. فكان لابد من وجهة نظر المودودى وأعوانه - من اعتبار الديمقراطية الهندوكسية عدواناً على الحاكمية الإلهية ، ورمزاً من رموز الشرك يترد بالمجتمع إلى الجاهلية ، ونجح المودودى فى ذلك ، وتم لباكستان الانفصال عن الهند .

(٢) إن أفكار المودودى ، فى جوهرها ، ثورية ، تحض الناس على الثورة وتغيير الواقع ، والثورة - أى ثورة - تكون فى بدايتها قطعية ، ترفض كل ما عداها من أفكار وتوجهات ، بغض النظر عن معقولية هذه الأفكار وجدواها .

(٣) إن المودودى لم يكن موضوعياً فى اختيار النصوص القرآنية ، فقد اختار ما يتفق ونزعتة السياسية ، دون الرجوع إلى السياق الذى من خلاله نزلت الآيات .

وقد تأثر سيد قطب بفكر المودودى .. وكانت أفكار المودودى عن الحاكمية الإلهية والتكفير والجاهلية .. الاستلهاطات الحقيقية لفكر سيد قطب ، وتحددت قضية المجتمع والأمة جميعاً أمام سيد قطب فى ثنائية قطعية الكفر أو الإيمان ... الجاهلية أو الإسلام . حاكمية الله فى مقابل حاكمية البشر .

وبدا لسيد قطب - أنه وقد تجاوز بجماعته الإسلامية مرحلة الاستضعاف حيث الاستعداد لمجابهة المجتمع ، المشرك - أن ينطلقوا إلى مرحلة الجهاد ، حيث الثورة الإسلامية الشاملة ، وخططوا ، وبدأوا التنفيذ بتوجيه ضربات عنيفة ضد مؤسسات الدولة ومنشأتها .

وانكشف المخطط ، وتمت لأعضاء الجماعة محاكمات .. كان من بينها حكم بإعدام الأستاذ سيد قطب الذى تحول إلى شهيد فى وعى ووجدان معظم الجماعات ولاسيما تلك التى عانت قيادتها محنة السجن فى الستينيات .

ويتحول ، سيد قطب ، إلى شهيد ، تحولت أفكاره وأفكار المودودي إلى أفكار مطلقة ، أفكار قطعية .. تبلورت في ثنائيات قطعية الكفر أو الإيمان .. الإسلام أو الجاهلية .. حاكمية الله في مقابل حاكمية البشر .

ومع بداية السبعينيات .. بدأت تخرج الجماعات الأصولية من مكانها .. وتحققت لها انفراجات في الحركة والفعل ، على حساب غيرها من الجماعات الفكرية وبخاصة في الجامعات والمعاهد العليا .. وتبوأ معظم قادة الجماعات الإسلامية المراكز القيادية في الاتحادات الطلابية . وأخذوا يشنون حرباً عقائدية ضد كافة الأفكار المناهضة لفكرهم .. وحققوا مكاسب طلابية واجتماعية كبيرة .. وبدأوا يتحركون بشكل واضح ومتميز في الملبس والحركة .. فالبعض منهم راح يعظ ويرشد جهراً - بل أحياناً بالقوة - بين صفوف الطلبة .. وفي قلب الجامعات ومعاهد التعليم .. وبعضهم الآخر المختبئ تحت الأرض .. ينظم صفوفه ، ويدعم نفسه ويعد العدة للانقضاء على النظام .

وهكذا ، بدأت قوى التيار الأصولي تزداد يوماً بعد يوم ، وبدأ عدد الجماعات يتزايد باضطراد .. فكل ثلاثة يؤمرون أحدهم .. ويعتبرونه أميراً لهم ، ويبايعونه على السمع والطاعة .. ومن خلال الجماعة الصغيرة ، يتم استقطاب أفراد جدد من الشباب الذي يتسم بسمات اجتماعية ونفسية لها خصائصها .. فمعظم هؤلاء الشباب ينحدرون من شرائح ، الطبقة الوسطى ، الذين يتميزون بالحيوية والمثابرة والكفاءة العلمية والجدية في التحصيل والقلق والمثالية .. ومعظمهم يشعرون بأن الواقع يواجههم كقوة محبطة لهم .. وأن المستقبل لا يمكن التنبؤ به .. وأنهم يعيشون ، صدمة الواقع ، وأن الواقع يصدمهم بتغيره المستمر ، اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وقومياً ... وأن هناك ظلماً اجتماعياً بيناً ، وتفاوتاً اجتماعياً واضحاً ، وأن الإسلام أصبح في دياره غريباً ، وأن هناك تناقضات قاطعة بين حاكمية الله وحاكمية البشر .. بين السياسة بكل توجهاتها الكاسحة للتغير ، والدين بثبات منهجه ويقين دعوته .

هنا ، بدأ بعض الشباب - المهياً نفسياً - لتقبل الفكر المطلق يلوذ بذاتيته إلى الأصولية الإسلامية استجابة لمطالب نفسية واجتماعية حيث عالم الثوابت .. واليقين الإيماني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولكن هذه المرة كانت الدعوة إلى الأصولية الإسلامية أشد تطرفاً ، وأخذت تكيل الضربات تلو الضربات للدولة .. ففي عام ١٩٧٤ ظهرت جماعة صالح سرية ، والتي عرفت باسم ، جماعة الفنية العسكرية ، ثم جماعة ، شكرى مصطفى ، التي

عرفت باسم « التكفير والهجرة » ، ثم جماعة الجهاد ، التي أشعلت النيران فوق المنصة حيث أغتيل الرئيس السادات .

وهكذا .. دخل بعض أعضاء الجماعات الإسلامية إلى دائرة التكفير المطلق ، حيث جمود العقل وانغلاق ؛ وحيث لا التقاء ولا تعايش بين مجتمعين .. بين عقيدتين .
وهنا لنا أن نتساءل : ما طبيعة هذا التفكير الذى يحول أشد الأفكار ، تفتحاً إلى أفكار ثابتة ، جامدة لا تقبل الجدل أو النقاش ؟

والإجابة نجدها عند علماء النفس والاجتماع والفلسفة ، فلقد شغلوا بالبحث عن جذور هذا الفكر المطلق ، وعن طبيعته .. وعن مظاهره فى السلوك والمواقف والاعتقاد .

وانتهوا إلى أن التفكير المطلق تعبير عن « التسلطية العامة » ؛ أى تعبير عن العدوان ، وتمجيد القوة ، وجمود العقل ، وضيق الأفق ، والتوحد مع نماذج القوة ، ومناهضة كافة الأفكار والآراء المخالفة لما يعتقدون ويؤمنون بالقوة .

وأن المتطرف هو شخص متطرف فى استجابته .. فهو إما يقبل الشئ قبولاً مطلقاً ، أو يرفضه رفضاً مطلقاً .. وإنه يدافع عما يعتقد بخوف وعنف وعدوان ، وأن الأشياء والموضوعات والمواقف عنده .. إما بيضاء أو سوداء ولا ظلال بينهما .

ولهذا فإن التطرف أو التعصب ليس مرتبطاً بالعقائد الدينية فحسب ، بل هو ممتد إلى كافة مناشط الإنسان الأيديولوجية والاقتصادية والسياسية والأدبية والفنية فى علاقاته الاجتماعية .. وأيضاً فى علاقاته الأسرية .. تناوله للأفكار والمواقف والموضوعات .. فمثلاً الإنسان المغلق على نفسه ، والذى يرى فى أسرته عالمه الأوحى والوحيد ، ويرى فى أفكاره قيمة قصوى ، لا يستطيع أن يتعايش مع أفكار الآخرين ، ولا يجد بين أفكاره وأفكار الآخرين أى التقاء أو تواصل ، ومن ثم يدافع عما يعتقد به بخوف وعدوان وتسلط من فرط ما يشعر به من خوف وفقدان أمن ..

وهذا الفكر المطلق ، ليس له أرض أو وطن معين .. وليس مستورداً ، فهو يوجد حيث توجد الظروف الاجتماعية والنفسية المهيئة له .. ولهذا نجده صارخاً ، مدمماً وعنيفاً ومخضباً بالدم والدمار فى إيطاليا وألمانيا فى الثلاثينيات والأربعينيات من هذا

المكارثية : نسبة إلى السيناتور مكارثى ، وقد نشأت استجابة لتعاظم قوة الشيوعية فى داخل أمريكا ، أو بالأدق استجابة لما سماه مكارثى المؤامرة الشيوعية الداخلية « التى أدت إلى ضياع الصين .

القرن الماضي .. وفي الخمسينيات والستينيات ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية على يد أعضاء المكارثية (١) وجماعات «كلو كلاس» وعلى أنحاء شتى في السلفادور وشيلي وحاليا في لبنان وإيران وجنوب إفريقيا .

والمطرفون والمتعصبون من الأفراد والجماعات يؤمنون دائماً بالجماعة الواحدة، الرأي الواحد ، والغاية الواحدة ، ويحولون أفكارهم وغاياتهم إلى أفكار علوية .. مطلقة بغير سند أو برهان .

وثمة دوافع نفسية تكمن وراء هذا النوع من التفكير .. تتحدد في الاشتياق إلى القوة .. والرغبة في التوحد مع نماذج القوة . وتمجيد الذات ، وذلك كله راجع إلى الشعور بفقدان الأمن ، والعيش نهباً لمشاعر الذنب والقلق ، وعدم الإحساس المتين بالهوية ، ولهذا فإن البعض من الشباب يبحث عما يعطيه الشعور بالأمن ، ويرد إليه الإحساس بالهوية ، والتميز والتفرد بالاندماج داخل جماعات لها زيتها الخاص ، وتفكيرها المتميز ، وتوجيهاتها العدوانية .

ويعيش العضو داخل الجماعة ، بثنائية نفسية ، فهو يتوحد مع قائد جماعته .. ويبايعه على السمع والطاعة ، ويمثل لأوامره امتثالاً مطلقاً ، ثم يخرج إلى الواقع متسلطاً ، مكفراً أفراداً .

وهنا تكمن في شخصية البعض الرغبة في الخضوع والرغبة في الهيمنة .

ولهذا .. فإن علاج هذا النوع من الفكر وما ينطوي عليه من دوافع نفسية ، وعوامل اجتماعية ، وتراث تاريخي خبيء لا يكون بالعنف ؛ لأن العنف يؤدي إلى مزيد من العنف ، والتطرف لا يفرز إلا التعصب .

ولهذا ينبغي أن يكون العلاج إيجابياً وفعالاً ، نفسياً وعقلياً ، اجتماعياً وقومياً ، سياسياً ودينيّاً ، وتلك قضية أخرى ..

أولاً : مراجع عربية

- ١ - إبراهيم عيد (١٩٩٠) . الاغتراب النفسى ، الرسالة الدولية للإعلان ، القاهرة .
- ٢ - اتوفنخل (١٩٦٩) . نظرية التحليل النفسى فى العصاب ، ترجمة صلاح مخيمر وعبد مبخائل ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .
- ٣ - أحمد عكاشة (١٩٨٢) . علم النفس الفسيولوجى ، دار المعارف . القاهرة .
- ٤ - بول جيوم (١٩٨١) . علم النفس الجشطلت . ترجمة صلاح مخيمر وعبد مبخائل ، مؤسسة سجل العرب . القاهرة .
- ٥ - جورج إم غازدا وآخرون (١٩٨٣) . نظريات التعلم ، عالم المعرفة ، الكويت .
- ٦ - جوردن البورت وآخر (١٩٨٤) . سيكولوجية الإشاعة ، ترجمة صلاح مخيمر وعبد مبخائل ، دار المعارف . القاهرة .
- ٧ - حامد عبد السلام زهران (١٩٨٤) . علم النفس الاجتماعى ، عالم الكتب ، القاهرة .
- ٨ - سامى محمود على (١٩٦٢) . دراسة فى الجماعات العلاجية ، دار المعارف ، القاهرة .
- ٩ - صلاح مخيمر (١٩٧٤) . المدخل إلى الصحة النفسية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ١٠ - صلاح مخيمر (١٩٧٠) . المدخل إلى علم النفس الاجتماعى ، الأنجلو المصرية . القاهرة .
- ١١ - عبد السلام عبد الغفار . علم النفس الاجتماعى ، النهضة العربية ، القاهرة .
- ١٢ - عبد العزيز القوصى (١٩٧٥) . أسس الصحة النفسية ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

- ١٣ - عبد الرحمن بدوى (١٩٦٥) نيتشة ، مكتبة النهضة المصرية .
القاهرة .
- ١٤ - عبد الرحمن بدوى (١٩٦٦) أفلاطون ، مكتبة النهضة المصرية .
القاهرة .
- ١٥ - عباس محمود العقاد (١٩٨٠) ، على بن أبى طالب ، دار نهضة مصر
للطبوع والنشر . القاهرة .
- ١٦ - فؤاد زكريا (١٩٨٨) ، التفكير العلمى ، عالم المعرفة . الكويت .
- ١٧ - فؤاد البهى السيد (١٩٨١) ، علم النفس الاجتماعى ، دار الفكر العربى
القاهرة .
- ١٨ - لويس كامل مليكه (١٩٨٩) سيكولوجية الجماعة والقيادة (ج١) الهيئة
المصرية العامة - القاهرة .
- ١٩ - كرتش وكر تشفيلد (١٩٧٤) سيكولوجية الفرد فى المجتمع ، ترجمة
حامد عبد العزيز الفقى ، سيد خير الله ، الأنجلو المصرية . القاهرة .
- ٢٠ - محمود أبو النيل (١٩٨٥) علم النفس الاجتماعى ، دار النهضة العربية
بيروت .
- ٢١ - مراد وهبه (١٩٨٩) التنوير ، مجلة المنار . العدد ٥٥ ص ١٣٨ - ١٥٨ .
- ٢٢ - مراد وهبه (١٩٩٦) فلسفة الإبداع - دار العالم الثالث - القاهرة .
- ٢٣ - يوسف كرم (١٩٦٧) تاريخ الفلسفة اليونانية - دار المعارف - القاهرة .

ثانياً : المراجع الأجنبية

- 1 - Adorno, T.w. Brunswik, E., Levinson. J., and Stanford N., (1950) The Authoritarian Personility, New York, Harport.
- 2 - Andreski, S., (1954)., Authoritarianism, in J. Could & W. Kolt (Eds) A Dictionary of the Social Sciences. New York, Unesco Press.
- 3 - Aron R., (1972)., Progress and Disllusion : Britian Pelican Book.
- 4 - Atreya, J., (1984)., Dogmatism in religion, in : Roots of Dogmatism, The Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, PP, 47 - 66.
- 5 - Baldwin. J., (ed.,) (1911)., Dictionary of Philosophy, New York : Second Edition. Macmillan.
- 6 - Bailes, D. & Guller, B., (1970)., Dogmatism and attitude toward the Vitnam War, Sociometry, Vol., 33, PP. 140 - 164.
- 7 - Burns, R. Dobson (1984) : Introductory Psychology, MTD Press Limited, Great Britain, London.
- 8 - Clark, J., (1959)., Measuring alienation within social system : American Sociological Review, Vol. 24, No., 6 PP, 849 - 52.
- 9 - Davids, A., (1955) ., Alienation, Social Apperception, and Ego Structure, Journal of Consulting Psychology, 19, pp. 21 - 27.
- 10 - Dayton, M., (1970)., The Design of Educational Experiments, McGraw - Hill Book Company, New York.
- 11 - Dean, D., (1961) Meaning and measuring of alienation : American Sociological Review Vol., 26 pp. 185 - 89.
- 12 - Encyclopedia Britannica, (1976)., (Macro Paedia). U.S.A 15th ed., vol. 1.

- 13 - Encyclopedia of Philosophy., (1976)., London : Vol. 1
- 14 - Eridson E., (1968)., Identity : Youth and Crisis, New York: W. W. Norton.
- 15 - Erikson E., (1975)., Youth and life Cycle in Rolf, E., Adoloscent Behavior and Society, Random House, New York.
- 16 - Eysenck, J., (1954)., Toughmindedness : In Robinson J., and Shaver, P., (1974). Measures of Social Psychological Attitude, Michigan, University of Michigan Press pp. 41 - 417.
- 17 - Freud, S., (1946)., Civilization and its Discontents, (trans) London : Lund Humphries.
- 18 - Fromm. E., (1971). Escape from freedom, New York : Avon Books.
- 19 - Fromm. E., (1969)., The Sane Society. New York : Fawcett Premier.
- 20 - Feldman, R., (1985). Social Psychology, McGraw Hill, Inc. New York.
- 21 - Schneider, D., (1988) Social Psychology, Harcourt Brace Jovanovich, London.
- 22 - Seeman, M., (1959)., On the measuring of alienation, American Sociological Review, Vol., 24, pp 270 - 84.
- 23 - Seeman, M., (1967)., Powerlessness and Knowledge : A comparative Study of Alienation and Learning. Sociometry, Vol. 30 pp. 105 - 123.
- 24 - Seeman, M., (1983) Alienation and Alcohol: The role of Work, mastery, and community in Drunking behavior. American Sociological Reveiw, Vol 24, pp. 270 - 84.
- 25 - Sextion, Miriam E., (1983)., Alienation, dogmatism, and related personality characteristics : Journal of Clinical Psychology, Jan., Vol. 39 (1) pp. 80 - 86.

- 26 - Soucif, M., (1984)., The tendency to extremeness of response : A formal dimension of dogmatism. In *Roots of Dogmatism*, the Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, pp. 75 - 82.
- 27 - Srole L., (1956)., Social integration and certain corollaries, An exploratory, *American Sociological Review*, Vol., 21, pp. 709 - 16.
- 28 - McClosky, H., and Schear, J., (1965)., Psychological dimensions of anatomy, *American Sociological Review*, Vol., 30, pp. 14 - 40.
- 29 - Merton R., (1961) *Social Theory and Social Structure*, New York: Glancoe. Free Press.
- 30 - Middeton, R., (1963)., Alienation, race, and education, *American Sociological Review*, Vol., 28, No. 6, pp. 755 - 68.
- 31 - Murphy G., (1947)., *Personality: Abio - social Approach*. New York.
- 32 - Nauta, L., (1984)., Dogmatism and their critic, a philosophical inquiry into the roots of rigidity. In *Roots of Dogmatism*, The Anglo - Egyptian Bookshop, Cairo, pp. 23 - 46.
- 33 - Netler, G., (1957) A measure of alienation, *American Sociological Review*, Vol., 22, pp. 670 - 77.
- 34 - Patrick G., (1980)., Authoritariansim, Prejudice, and Alienation Among Africanes. *Journal of Social Psychology*, Feb. Vo. 110, pp. 39 - 42.
- 35 - Reich, W., (1970)., *The Mass Psychology of Fascism*. Pelican Books.
- 36 - Robinson, J., & Shaver, P., (1964)., *Measures of Social Psychological Attitudes*, Michigan, University of Michigan Press.
- 37 - Rokeach, M., (1960)., *The Open and Closed Mind*, New York Basic Books.
- 38 - Rokeach, M., (1970)., *The Nature and Meaning of Dogmatism*. London, Penguin.

فهرس الموضوعات

الفصل الأول

| | |
|----|--|
| ٩ | علم النفس الاجتماعي |
| ٩ | تعريفه ونشأته ومجالاته |
| ٢٧ | علم النفس الاجتماعي والعلوم الأخرى |
| ١٣ | نشأة علم النفس الاجتماعي |
| ٣٣ | أهمية دراسة علم النفس الاجتماعي |
| ٣٧ | مقدمة فى مناهج البحث |
| ٤٣ | مناهج البحث فى علم النفس الاجتماعي |

الفصل الثانى

| | |
|----|-------------------------------|
| ٥٥ | الجماعة ودينامياتها |
| ٥٧ | ديناميات الجماعة |
| ٦٠ | المدخل السوسيومتري |
| ٦٠ | مراحل البحث السوسيومتري |
| ٦١ | الاختبارات السوسيومترية |
| ٦٥ | تماسك الجماعة |
| ٦٥ | الروح المعنوية |
| ٦٨ | جاذبية الجماعة لأفرادها |

الفصل الثالث

| | |
|----|---------------------|
| ٧٣ | الاتجاهات |
| ٧٤ | تعريف الاتجاه |
| ٧٦ | خصائص الاتجاهات |
| ٧٦ | تكوين الاتجاهات |
| ٧٧ | وظائف الاتجاهات |
| ٧٩ | الاتجاهات التعصبية |
| ٧٩ | التسلطية |
| ٨٣ | الدوجماطيقية |
| ٨٨ | قياس الاتجاهات |
| ٩٦ | طرق تغيير الاتجاهات |

الفصل الرابع

| | |
|-----|----------------------------|
| ١٠١ | التنشئة الاجتماعية |
| ١٠٩ | الوراثة والبيئة |
| ١١٢ | التعلم والتنشئة الاجتماعية |
| ١١٣ | وسائل التنشئة الاجتماعية |

الفصل الخامس

| | |
|-----|------------------------|
| ١٢٧ | القيادة |
| ١٣١ | السمات والفروق الفردية |
| ١٣٥ | أنواع القيادة |

الفصل السادس

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ١٣٩ | دراسات في علم النفس الاجتماعي |
| ١٣٩ | الهوية الثقافية |
| ١٧٣ | التسامح الثقافي |

الفصل السابع

| | |
|-----|--|
| ٢٠٠ | موضوعات نفس اجتماعية |
| ٢٠١ | السلوك الاجتماعي بين الوراثة والبيئة |
| ٢١٣ | القيم |
| ٢١٩ | الإشاعة |

الفصل الثامن

| | |
|-----|---------------------------|
| ٢٣٧ | أزمات الشباب |
| ٢٣٨ | اغتراب الشباب |
| ٢٥٢ | الشباب وأزمة التطرف |
| ٢٦٣ | المراجع |

